رواية
الشافيات
عبّاس بيضون
دار الساقي
مدونة ابو عبدو
SCANNED BY JAMAL HATMAL

الشافيات

تصميم الغلاف: شذا شرف الدين

عباس بيضون

الشافيات

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-6-14425-744-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114—2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

١

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

كان السائق يقول إنهم أحرقوه عمداً ليحصلوا على ثمنه مضاعفاً ثلاث مرات. بعد ذلك فار غضبه على اللصوص الذين يحكموننا. كان هذا مزاج السائقين. إنهم بسرعة يحتدّون ويصيرون محامي الشعب، ما داموا يقطعون البلد طولاً وعرضاً فإن لهم أن يتكلموا نيابةً عنه، نيابةً عن الناس الذين يلتقطونهم عن الطريق. كان السائق يستجرّني لأؤيده، لكني هذه المرة لم أرد أن أتجبب إليه. ظللت هامداً في مقعدي. حتى إني لم أنطق. كنت ألعب بسوار ساعتي المطاطي أرخيه على رسغي وأشدّه. لقد هبّت النار في المركب أمام عيني. ماذا أتوقع بعد؟ كنت مطمئناً إلى أنه لن يكون هناك بعد خاتمة أخرى، عرفت النهاية ولن يكون هناك ما بعدها، ولم أنتظر شيئاً. أسرعت من قبرص، طرت من هناك لأرى ذلك. اندلع لسان نار في الوسط وارتفع، حرّكه الهواء فماج ثم انتصب بمحاذاته لسان نار آخر، لم يطل الأمر حتى اشتعل الوسط برمّته. لم أكد أدخل نطاق المرفأ حتى حدث ذلك. كانت النار تتدفق من الوسط، تتجدد بدون انحسار، تتجدّد في داخلها وهي تتعاظم. بهرني المشهد، ليس إلا أنه يبهرني،

احتجت إلى وقت حتى أعثر على صلتي به. إنه مركبي الذي لم يصر لي إلا بعد نزاع مع الحزب كدت أفقد حياتي فيه، الآن أستطيع بصعوبة أن أذكّر نفسي بذلك. لقد صار لي لكني لم أكمل جولةً فيه، لا أعرف فعلاً عنابره السفلي، لا أعرف إلى أين كان سيسافر. الآن رأيته جيداً في ضوء النار، قرأت على جانبه اسمه "شيخ البحر"، كان مخططاً بالأحمر على جنبه وبخط ركيك. ذكّرت نفسي بأنه لي كمن يصفع مغمىً عليه ليوقظه. كان عليّ أن انفعل وأنا أرى النار تأكل مالي، افتعلت حسرةً وكدت أدمع لكن شيئاً ما أوقف الدمعة وجعلها مستحيلة، كأني فجأةً فقدت الدافع. طار من رأسي الموضوع. منذ صار لي لم أصعد إلى سطح المركب سوى مرات قليلة وفي كل مرة كنت أتعجّل مغادرته. أن نملك مركباً شبيه بأن نملك نجماً. لم أصدّق نفسي، أدخلت يدي إلى جيبي ولمست محفظتي، تأكدت منها. كان مالي في جيبي، لم أفقده. ارتفعت النار في وسط المركب، تسمّرت عيني عليها، خجلت من نفسي لأني أتمتع بالنار التي تأكل مركبي. شعرت أني أستحقها لكني قبل أن أكمل ضاع مني ما استحققته وفتشت عنه وسط النار. أفكاري تبرد وتجفّ قبل أن أصل إليها، قبل أن تكتمل، كان عليّ أن أقنصها قبل أن تختفي. كنت في اللحظة التي لا أستطيع أن أكوّن فيها فكرة، شيئاً لي، اللحظة التي أحاول فيها أن أكوّن جملاً كاملةً لنفسي. أريدها أن ترتسم أولاً وأعد نفسي بأن أحسّ بها في وقتٍ آخر، أن أحس بها حال اكتمالها. النار تتدفق أمامي وأنا لا أستطيع أن أكوّن فكرة منها، تتدفق ولا أستطيع أن أحوّل بصري عنها. تتدفّق أمامي وتملأ

بصري، تملأني، وللحظة أشعر انها لي، أنها أنا. اشعر انها تأكل افكاري، أحاسيسي، أنها تشتعل من ذلك اليبس الذي في داخلي. انها تجعلني أجردَ وفارغاً، وانني، هذه اللحظة، لست سوى إطار ينظر إليها. النار تشتعل وكان لا أحد يراها. اختفى كل الذين كانوا، او افترض أنهم كانوا، في نطاق المرفأ. لم أسمع ضجةً من اي ناحية. كان هناك اثنان من شرطة المرفأ استمرّا في حديثهما. تراءى لي أنني الوحيد الذي يرى. فكرت انّ المشهد قد يكون اصطناعياً لكني لم اصمد عند هذه الفكرة. بالعكس، خامرني شيء كالذنب. كنت الوحيد الذي يرى والوحيد الذي يعلم، وسيعرفون ذلك بدون شك. سيأتون إليّ. قلت للسائق:

– الصنوبرية.

لم يكن السائق يعرف أينها الصنوبرية، قلت له:

– فوق النبطية.

لم أرد أن أجيب إلى السائق. تركته يغضب على هواه إلى أن تعب فسكت. دبّ السكوت ثقيلاً في السيارة وشعرت أنا بحجمه فتضايقت لكني لم أغامر بكلمة. تركت نفسي أعتاده كما أعتاد العتمة التي بدأت تخيّم وكأنها تتكوّن منه. عاد السائق إلى فورته. ألقى عبارات لم أميزها جيداً فالعتمة كانت أبعدتني عنه. انتبهت إلى المشاهد التي تمرق شبحيةً من وراء زجاج الواجهة. كانت تمرّ مبقعةً أمام عيني لكن حبرها يزداد بحيث تختلط وترشح على بعضها وتستحيل رؤية حدودها. وصلنا إلى الصنوبرية. لم أعلم ذلك إلا بعد أن صرت في وسطها. رغم ذلك ظل الأمر مبهماً إلى أن رأيت أبو

كايد وسط دكانه فتاكدت. لم اقل للسائق إلى اين يتجه. لم أكن واثقاً من أن في وسعي أن أوجّهه. خشيت بعد كل هذا الوقت الذي مرّ أن لا أعرف الطريق. في الحقيقة لا أجزم في أنني أعرف اي طريق كان ولا يدهشني أن أضيع حتى عن بيتي. لكنني لم أتأكد إلا بعد هنيهة من ذلك الدرج الملتف والشبابيك الخضر والشرفة شبه المتهاوية. كان الطلاء الأصفر قد بهت وانقشر وامتلأ بكلمات ورسوم مخطوطة بعيدان متفحّمة. الشجرة الوحيدة المنصوبة قبالته باشرها اليباس وبدت من الخارج وكأنها ترفع عظامها. كانت البوابة الصغيرة في أسفل الدرج مشرّعة ومخلّعة. مع ذلك لم أكن واثقاً بانني حقاً تحت بيت طفولتي. حضرت إلى هنا منذ أعوام لأشيع جدتي لكنني لم أكن واثقاً. لقد عثرت عليه السيارة، وصلت من دون أن أرشد السائق. تركته يمرّ من أمامه من دون أن أبدي حركة. علقت كلمة "أوقف" في بلعومي. دخلت السيارة إلى طريق فرعي وحين تأكدت من أننا ابتعدنا صرت واثقاً من أنني سهوت، من أنني تركت البيت ورائي. قلت للسائق لنعد، أظن أن البيت صار في الخلف. لم يبدُ على السائق أنه استهجن شيئاً، عاد وهذه المرة وقف من نفسه تحت البيت. دفعت له وتركته يقلع بسرعة هائلة كأنه نجا من مأزق. وقفت تحت البيت دقيقة طويلة. تقدّم ولدان أحدهما نمش وجهه وطوله الذي يزيد عن طول صاحبه يوحيان بأنه بكّر في النمو. وقفا جنبي على مبعدة مني وعيونهما عليّ. انتظرا بالتأكيد ان استدلّ منهما أو أسترشد بهما. زدت ارتباكاً وفي لحظة أزحت البوابة وصعدت. على جانب الدرج وجدت رأساً بلاستيكياً منزوعاً من دمية. كان

هناك قش كثير وتراب على الدرجات. على رأس الدرج رأيت كرة مزوية وكأنها مخبّأة هناك. صعد الولد القصير ورائي وانحنى عليها وحملها وعاد. نظرت من فوق فوجدته والكرة في يده لا يزال واقفاً مع رفيقه. وجدت حجارة وقطع فحم، فكّرت أنها هناك محفوظة لرسم ملعب بدائي في الفسحة التي بين البيوت. قدرت أن الولدان ما زالا ينتظران في الأسفل حرصاً عليها. كنت أمام الباب والمفتاح ليس معي. وقفت محتاراً. لاحظت أن طفلة خرجت من أحد البيوت تنعطف باتجاه البيت. رأيتها من شعرها لكن وجهها كان تماماً كما تخيّلته بيضاوياً مع طبعة في الذقن. اتجهت إلى البوابة وبدأت تصعد بسرعة. حين وصلتْ مدّت لي يدها بالمفتاح الكبير الحديدي. قالت إن جدّتي المرحومة تركته لي عندهم. تذكّرت أنني كنت أجد المفتاح عندهم حين يكون جدّاي خارج البيت. فتحتُ، دار المفتاح الكبير الصدئ في القفل بسهولة فاجأتني. دخلت. كان الهواء المحبوس منذ عام قد أصبح عطناً راكداً. رائحة تراب وقماش فحّت من الستائر ومن الجدران. رائحة داكنة كان من العبث أن أبحث عن طفولتي فيها. كانت الصور لا تزال معلّقة. أبي وأمّي واقفان في عرسهما. أنا في صورة مكبّرة. عائلتي في صورة تحوي الجميع سواي. صورة أخي علي الذي صار ألفونسو. صورة لي مع أخي فريد الذي صار فريدي. صورة مع أختي زينة. لم أجد صورة جدّي. كانت هذه الصور حديقتي في الطفولة، أجلس وأتأمّلها أوقاتاً طويلة، وطالما وجدتني جدتي أفعل ذلك ونهرتني من أن ذلك قد يفقدني عقلي، إذ تظن أن إعمال الفكر بدون موضوع، أن

التفكير الصرف الذي لا يتصل بعمل قد يؤدي بصاحبه إلى الجنون. كانت متأكدة أن جنون يحيى كان من فرط تأمّله النجوم، لذا كانت تأمرني أن أخفض عينيّ كلما رفعتهما إلى السماء. الصورة التي أخذتها أمي لجديّ جالسين على الكنبة تسترعي الجميع إلا أنا، فقد وجدتها غير حقيقية فلم أضمّها إلى حديقتي. لم أفهم كيف تكون لجديّ صورة. كانا حقيقين أكثر من صورتهما، مألوفين بحيث لا يحتاجان إلى صورة. لم أكن أنظر إلى صورتهما ولا إلى تلك الصورة التي تمثلني وأنا أدرج في شهري السادس. كنت على بطني وعلى يدي. لم أصدق أني كنت هذا الطرح وانظر إلى صورتي كما لو أنني كنت يرقة عند ذاك. صور إخوتي في دارهم في كولومبيا تحت الأشجار وعلى الجسر وفي الغابة تأخذني في مشوار أكون فيه بهيئة طرزان وأنا أكلم السعادين والحيوانات تهرب من أمامي. جدتي كلما وجدتني هكذا كانت تسحبني بعنف من الصالون وتغلق الباب ورائي. الآن أنظر إلى البراويز التي تغبّرت ولا أرى إلاّ البراويز. كانت الصور معمية خلف الزجاج الملطّخ. نظرت إليها وشعرت كأنها تغبّش عينيّ. خرجت بسرعة ودخلت إلى الغرفة التي شغلتها في طفولتي. كان السرير كما تركته من أربعين سنة. من حينها تمدّدت فيه مرتين واليوم هو ممتد سميك مرتّب لكن طيّة الشرشف، التي لم تتغيّر عليه من سنوات، استحالت حدّا قاسياً وكأنها تعضّمت مع الزمن. رأيت على المنضدة إلى يمينه بضعة كتب. جزء من البؤساء لهيغو وواحدة من روايات أرسين لوبين وإلى جنبهما كتاب لم أقراه ولم أعرف بوجوده وكتابان دينيّان. لا بدّ أن جدّتي شغلت الغرفة

بعد رحيلي. كانت قساوة عظامها ظاهرة على السرير. لم أستغرب أن أجد على المنضدة أيضاً نظارتيها السميكتين. شعرت أن الأمور تختلط كثيراً. لا أمل لي في أن أعثر على طفولتي في هذا السرير الذي شغلته جدّتي وتركت رائحة موتها فيه.

٢

الأمور تختلط. لم يعد عندي شكّ حين وجدت نحاسيات جدّتي التي كانت بالغة الحرص عليها قد أخرجت من التتخيتة ونثرت على المجلى. حين رأيت السجادة الثمينة ملفوفة ومطروحة على الأرض. حين غدت الغرفة الشمالية عمياء تماماً بعد أن عمّروا قبالتها. لا أمل لي في أن أعثر على طفولتي في هذا البيت الذي كبُر في العمر أكثر منّي. لم أكن هنا لأبحث عنها على كل حال. جئت لأختفي. لم افكر كيف سأجد البيت، لكني لم انتظر أنني ساجده هكذا على الأرض. النحاسيات، الزجاجيات القديمة، الثياب، أطقم البورسلين، الشوَك، الملاعق، السكاكين، كان المطبخ عائماً بها. في الغرفة العمياء خُلعت الخزانة ورُمي كل شيء على الأرض. أكياس المكسرات، علب الشوكولا. كل ما كانت جدّتي تحفظه لي ولا تابه لمرور الأشهر بل والسنين عليه. كان البيت الذي جهز منذ سبعين عاماً حينما ذهب جدّي واشترى من طرابلس الكنبات والمائدة وبقية الأغراض. غرفتي وحدها لم تمسّ. تراءى لي أنهم وقفوا ببابها و لم يدخلوا. عمّ كانوا يبحثون؟ لا أظن أنهم بحثوا عن شيء. أرادوا غالباً أن يعبثوا. أن يعاقبوا

البيت. حفلة كهذه منتظرة لبيت مهجور. لبيت أغلقه الموت. إنها قساوة طبيعية. لقد غيّروا تقريباً صورة البيت. بدا متنكراً. لا بدّ أنهم فعلوا ذلك بمرح. كانت آثار أحذيتهم واضحة. لقد نقلوا الوحل إلى كل مكان. لا أعرف كيف دخلوا. حين وجدت شباك غرفتي المحاذي للشجرة مفتوحاً فهمت أنهم قفزوا من الشجرة إلى غرفتي. لكنهم مع ذلك لم يمسّوها. لا بد أن الكتب ردعتهم. لقد خافوا منها. لا بدّ أنهم شعروا أن الموت لم يمرّ هنا ليأتوا في أعقابه. كل المرات التي توفيت فيها نساء مسنّات وحيدات سبقهنّ أزواجهنّ إلى الرحيل وتبعثر أولادهنّ في المهاجر كانت حفلة كهذه تحدث. يدخل مراهقون إلى البيت ويحطّمونه أحياناً ويتركونه على الأرض. كان هذا عبثاً جنائزياً ونوعاً من العهد مع الموت. في الغرفة العمياء وجدت تحتيات جدّتي مفروزة عن ثيابها. لقد لعبوا بها كثيراً. سراويلها الداخلية وسوتياناتها المقشرة، ديست بالأحذية الضخمة المتوحّلة، ديست بقسوة إضافية. كان هذا تحطيماً لبقية الحياة المختزنة فيها. لم تفاجئني الحفلة، كان عليّ أن أنتظرها. تذكرت كيف كانوا يزفّون العرسان إلى عرائسهم وهم يعملون فيهم ضرباً ويدسّون أصابعهم في أقفيتهم طوال الطريق حتى يصل هؤلاء مثخنين ساقطين من التعب وقد غادرتهم أيّ رغبة. كان ذلك هو التحطيم للرغبات بما فيها تلك التي انفضت، وعلى الأقل الإهانة والتلطيخ لأوعيتها ومعالمها. بقي هذا التقليد في الصنوبرية وحدها وأظن أن أثراً منه لا يزال إلى الآن.

وقفت أمام الشباك الذي استحال عليّ إغلاقه. كان البلكون المقابل فارغاً وفي مقدّمته سطول زرع والخضرة عارمة وعالية. كنت بحاجة

إلى أن أرى شيئاً منتظماً وسليماً بعد حفلة التحطيم التي اربكتني. تركت النار تشتعل في المركب وابتعدت عنها. كنت قادراً على أن أعود إلى نفسي بعد حادث كهذا، ما النفع من أن نتحسّر. صادفت اشخاصاً يقضون طوال عمرهم في التحسّر. أنا لا أترك نفسي طويلاً وراء شيء لم يتحقق ولن يتحقق، لا افكّر في ان شيئاً ما حصل ضدّ الواقع. سرعان ما أقبل ما يحصل وأغدو جزءاً منه. الطريق إلى الصنوبرية كان كافياً لأغدو بلا مركب ولأفكر كشخص لم يعد لديه مركب. مسألة البيت بالطبع مسألة صغيرة، لعب مراهقين لا أكثر. لكن المفاجئ هو انني لا أزال أجد لها طعماً مرّاً في نفسي. الذي ضايقني أكثر هو أنني لم انجح بسرعة في التغلّب على هذا الإحساس، لا أريد أن اردّ ذلك إلى الحنين، أنا شخص لا يحنّ، أو انني امسك نفسي عن الحنين، لا أستطعم لهفته ولا أتساقط او اذوب فيه. إنه انتكاس إلى الطفولة لا احبه واجده مضحكاً، نوع من الرثاء للذات أو مجرد تآكل لها. هذا البيت الذي أمضيت فيه طفولتي لا يستحق ان أبكي له، فلماذا اشعر به في حلقي؟ لماذا أشعر بذاتي سائلة ولا أستطيع أن أجمعها، لا استطيع أن انهض من اضطرابي، أو على الأقل مضى عليّ وقت وأنا أتقلّب فيه، وأنا الوكه؟ مضى عليّ وقت وأنا أشعر به يتردّد في أحشائي ويصعد إلى فمي، كأني أجترّ ما أشحن نفسي به. هل أنني لم أطوِ قصة فقدان المركب حقاً وهي تعاودني خلسةً بهذه الطريقة؟ هل هو الأسى الذي لم اسمح لنفسي به، وأنا ارى المركب يشتعل، يعود إليّ بطريقة أخرى، ام أن الأمر غير ذلك؟ لم أحترس من أمور صغيرة صغيرة لدرجة انني لم أنتبه لها و لم أقم لها وزناً، لدرجة

أني حسبتها تختفي مع الزمن أو تختفي في الزمن. أمور ثانوية ضئيلة تستمر مع ذلك، بدون أن نشعر وأن نهتم، تزفر في داخلنا. تؤلمنا في أطرافنا وأسناننا وحتى في اظافرنا، لكنها مع ذلك لا تموت إلا بخبطة كبيرة، إلا بعد أن تتعذب كثيراً فينا وتعذّبنا معها. كنت لا أستطيع ان أمسك لهفتي، أتركها تتصاعد وتتقطر في نفسي. أشيح عنها، أتجاهلها فأجدها لا تزال تمسكني في حلقي. حزن أجرد ومسنون مع ذلك، وقديم، قديم للغاية ينبع فيّ، يشبّ كالنار التي أكلت المركب. تعاودني ذكريات شتى، تصلني من مناطق متباعدة بدون أن أستدعيها: جدّتي وهي تنظر بعجز وبذهول إلى الدم ينزف من خدّي. كاميليا تصرخ بي "برّة، برّة" ولسان النار يندلع في وسط المركب. ذكريات لا تختلط ولا تتماسّ وتمرّ بترتيب كأني تقصدتها، أو كأني استدعيتها بإرادتي. كانت أشبه بصفحات أقلبها، أتمعّن فيها. هكذا أحب ان أتذكر لكن هذه الذكريات تطبق عليّ وأشعر أثناء ذلك بقدر من الضيق. كنت أظن أني تغلّبت على فراق كاميليا. عانيت بضعة أيام لكن عودتي إلى القرية والأصدقاء الذين عاشرتهم والعشاءات التي أمضيناها سوية وعلاقة عابرة مع لينا سوّت الأمر. الآن أستعيد المشهد الذي احتجت للتخلص منه إلى قدر من القسر، إلى التعسف مع ذاتي. أستعيده من عمق البيت المحطم والنار المشتعلة في وسط المركب. هل هي إحباطات لم أهتم و لم أحسن معالجتها تعود فتلتهب في ذاكرتي. لست الذي يتوقف طويلاً عند أمور لا يفهمها او أمور انقضت وتكفّل بها حينها. أنا ما يسمّونه الرجل العاقل الذي يرتّب أولوياته. أختار الأكثر إلحاحاً وما أستطيع فعلاً معالجته، أما ما هو غير ذلك فلا يهمّني إذا بقي ماثلاً. إنه على

كل حال لن يظلّل حياتي، ولن أسمح له بأن يسيطر عليها. لست من يخترع لنفسي مخاوف. لا أتعذب بالمستقبل ولا بالماضي. لي لحظتي وهي تكفيني. مع ذلك بدا هذا البيت المحطم. هذه العقوبة التي تنزل بالأموات وكأنهما يثيران فيّ خوفاً غامضاً. كأن هذه الفوضى دبّت في نفسي أو خشيت منها عليها. لا أدري من اين واتاني خوف من أن تتحطم حياتي مثلما تحطم بيتي أو أن تكون، بدون أن أدري، صارت كذلك. إنها فكرة لا نجدها إلا في الروايات والأفلام، لكنني لم أصدق لحظة هذه النفوس السائلة التي لا تتوقف سيولتها والتي تغدو شيئاً آخر كل لحظة. لم أفهم كيف يمكن لإنسان أن لا يحصّل طوال حياته شيئاً يقف عنده. كيف يمكن أن تكون النفوس كالنهر الذي يجري دونما اتجاه. البيت المحطم بدا كهذيان مطبق، كنهر لا يتوقف، لكنني لم أخف من أن أخسر طفولتي. لست من الذين يخافون أن يخسروا ذكرياتهم أو أحلامهم فأنا لا أستطيع أن أقضي حياتي مرعوباً من أن يقتنصني شبح، أو أن يقفز عليّ من طفولة منقضية أو من شيخوخة على الطريق. هذه المعركة مع الأشباح أتركها لسواي. لست من هذا النوع.

استيقظت والشمس تملأ الغرفة. لم أجد ساعتي في يدي، تخلصت منها في الليل، صارت ثقيلة عليّ، صرت أنا ثقيلاً على نفسي. لم أجدها تحت الوسادة، بحثت عنها فلم أجدها في السرير، انتبهت إليها أخيراً على المنضدة. بدا لي اختفاؤها وكأنه رسالة من البيت المحطم.

نمت بثيابي. ألقيت نفسي على السرير، لم أصدّق أنني سأجد طريقاً إلى النوم وفي رأسي كل هذا المنزل العائم. لكن النوم وجدني رغم كل

ذلك. في الليل لم يأتني ايّ حلم، لكن كان لديّ الشعور بأني ممدّد على حطام وبأني فقدت ساعتي، لذا كان أول ما فعلت، عند استيقاظي، البحث عنها. بقيت في السرير مغمضاً عينيّ تاركاً الزمن يمرّ بدون أن أفعل سوى الإحساس بمروره. سمعت خشّة فوقي، انتبهت فوجدت كان مصراع النافذة المغلق يتحرّك تحت ضغط من الخارج. رفعت رأسي فوجدته ينزاح عن مكانه. قمت وفتحته فوجدت الولد القصير في أعلى الشجرة المقابلة. كان تسلّقها وحين وجد النافذة مغلقة لم يفكّر إلا بفتحها. كان واقفاً في أعلاها وحين رآني تراجع قليلاً وكاد يسقط لكنه استعاد توازنه. لا اعرف إذا كان ينتظر أن يراني لكنه رفع يده محيياً وقال بدون وهلة:

– صباح الخير.

سبقني الجواب فقلت أنا ايضاً: صباح الخير... لكني ما أن نطقتها حتى لمت نفسي كما ألومها دائماً حين يجعلني ميلي إلى المسايرة أنجرّ إلى أشياء من هذا النوع. أجبته "صباح الخير" لكني سرعان ما تداركت نفسي فقلت:

– شو عم تعمل هون؟

كنت اظن أن سؤالاً كهذا سيجعله يبتلع لسانه ويخرس وبالفعل سكت قليلاً قبل أن يجد الجواب ويقوله بدون تلجلج:

– جايي شوف إذا بدّك شي. بعتتني إمي. قالت لي شوف جارنا إذا بدّو شي.

– بس يا ابني الناس ما بتجي من الشجرة. البيت إلو باب. بتعرف إنو إلو باب.

– إيه. دقّيت على الباب. دقّيت تلات مرّات وما حدا فتح.

– كنت نايم. بس برضايي عليك ما تبقى تجي من الشجرة. هيدي خطرة. كان ممكن توقع. في باب. تعا من الباب.

نزل الولد بسرعة. أحاط الجذع بذراعه وانزلق عليه. بقيت أنظر إلى أن تأكدت من أنه وصل إلى الأرض. تركت الشباك مفتوحاً. هنيهة وسمعت الطرق عالياً على الباب. ذهبت وفتحته. واجهني الولد بالشورت الأخضر وقميصه البنيّ فيه أكثر من رتق. كان وجهه صغيراً لكن عينيه كبيرتان ووقحتان من وراء عدستَي النظارة السميكتين اللذين كانا على وجهه، وحين يتكلم يغمز بهما وكأنه هكذا يعابث مخاطبه. كان أخذ يشبّ وبشعره المسرّح إلى الوراء يقلّد الكبار. سألته وقد عدت إلى الجلوس على السرير بينما ظلّ هو واقفاً:

– شو بتفوتوا بتعملوا بالبيت؟

– ولا شي. بنلعب.

سحبته من يده وأدخلته إلى الصالون، وقلت له:

– بتلعبوا. إيه بتلعبوا. مين عمل كل هـ الشي؟

– مش نحنا، نحنا بنلعب. مش نحنا (وغمز بعينه) هودي السكرجيه (غمز بعينه) علي ويسكي وجماعته. إجوا وفتحوا الباب. جرّبوا مفتاح ما زبط. فتحوا بالشريطة. فاتوا وكسروه (غمز بغينه). هيك بيعملوا. كل ما ماتت أرملي بيعملوا ببيتها هيك.

كنت سمعت بهذه الحكاية، تحطم بيوت الأرامل الوحيدات، و لم أصدّقها. قلما توجد في الصنوبرية امرأة وحيدة. كلهنّ لهنّ أهل واقارب لكن الهجرة جعلتهنّ أحياناً بلا أحد. بالطبع تحطيم بيوت

الأرامل ليس تقليداً. في الماضي كانوا يبخرونها لكي لا يعود الموت إليهم. كانوا يقلبون الأواني والأحذية لئلا يعود الموت إلى القرية. هذا الأمر سيكون عبثاً إذا كان الموت يوم السبت، لا بدّ أننا في السبت القادم سنصبح على وفاة. لا بد أن التبخير وتطيين الموقد كانا طرداً رمزياً للموت، بل استعارة رمزية لتحطيم البيت. ما أن غدا الأمر ممكناً حتى انطلق هذا من رمزيته وتحوّل إلى أداء فعلي. كان العنف الذي وقع على بيت جدتي شرساً للغاية فهؤلاء الذين كانوا يدوسون بأحذيتهم الموحلة التي عبروا بها طرقات القرية المبلطة، في هذا الليل الشتوي، تعمّدوا أن يتمرّغوا بها على الأجزاء الترابية وصعدوا بها إلى البيت الفارغ متعمّدين أن يلطّخوا بها الأرض والأسرّة والكنبات ثم أخرجوا كل ما حوته الخزائن والتتخيتة والنملية والبرّاد وحطّموه على الأرض. لقد فعلوا ذلك بقسوة وضغينة ليس ضدّ الجدّة المسكينة بطبيعة الحال بل ضدّ الموت الذي تراءى لهم أنه احتلّ بيتها وهو يتحفز منه ليقفز إلى بيت آخر. لم يفعلوا شيئاً كهذا في الماضي فالأرامل كنّ دائماً محاطات بالأهل. لقد فعلوه اليوم، لقد انتظروا طويلاً ليحققوا هذه الأسطورة. أظن أن الحرب والعمال الذين عادوا إلى الضيعة مقطعين وفاقدين أعضاء من جسدهم هي التي حفزت إلى إحياء هذه الأسطورة وإلى تأديتها. الأجساد المقطعة التي كانت تصل في أكياس الخيش والتي كان كثيرون يدفعهم فضول شرير وملعون إلى تأملها كانت تستفز إلى هذا التحطيم المروع لمنازل الموتى. تحطيم البيوت كان، بطريقة ما، طرداً صاخباً وطقسياً لهذا الشر الذي لم يكن الأهالي يعرفونه من قبل. ما جرى كان أكثر من الموت وأبعد منه لذا كان لا بدّ من هذا الجنون

لطرده. لقد انفتحت فجاةً هذه الرغبة للرقص والقفز على الحطام وتحطيم الأشياء بالرقص العنيف عليها.

كان الصبي ما زال يحدّق بي من وراء عدستي نظارتيه السميكتين اللتين تظهرانه وقحاً، وحين لاحظت أنه يستمر بالغمز بهما بدون مناسبة فهمت أنهما تتحرّكان بشكل آلي. هذه كانت حركة لاإرادية في وجهه. شعرت بأن ثقته الزائدة بنفسه هي من إمارات الطفولة الشقية التي تجعل الأطفال يتخطون بسرعة الحياء وينضجون قبل الأوان، سألته:

- شو بيشتغل بيّك؟
- بي. بي درکي.
- وين بيتكم؟

اشار إلى بلكون مقابل. بلكون صغير لا يصلح أن يكون شرفة. كان مغموراً تقريباً بشجرة عربشت عليه من تحت. رغم أنه على سوية الأرض فالبيت فيما يبدو بني على منخفض من الجهة الثانية، لا بدّ أنّ الشجرة نبتت وعربشت من هناك، حيث رجحت أن يكون تاسس طابق أرضي لا يبدو من جهة الطريق. قال لي:

- أمّي عازمتك على فنجان قهوة. قالت لي جيبك معي.

٣

كنت لا أزال بثيابي واستحيت أن انزل بالثياب التي نمت فيها لكني استثقلت أن أفتح حقيبتي وان أبدّل ثيابي. كان منظر البيت المحطّم حولي يجعل هذه الفكرة فوق التصوّر. كرهت أن أستعمل ذات الجوارب، مع ذلك عدت وجمعتها ودسست قدمي فيها ووقفت واتجهت إلى الباب فلحقني عبد الكريم، وهذا هو اسمه كما قال لي. كان البيت تقريباً في مواجهة بيت الجدة. انتظرت حتى فتحت الباب سيدة وضعت منديلاً فوق رأسها على عجل إذ أطلّت وهي لا تزال تلفّه عليه. كانت امرأة ثلاثينية لكنها تبدو أكبر عمراً شأنها في ذلك شأن معظم أمّهات القرية، اللواتي بعد ولادة أول طفل يغدونَ نوعاً من حبيسات منازلهنّ رغم أنهنّ يبقينَ على صلة دائمة بجاراتهنّ. منذ تلك اللحظة يقسرن أنفسهنّ على حياة منزلية تغدو كل حياتهنّ. لا يعني ذلك الشغل الدائم في البيت، وهذه البيوت المفتقدة لأدوات كثيرة تحتاج إلى شغل كثير، ولكنه يعني أكثر أن أحلامهنّ ومخيلاتهنّ وحكاياتهنّ تغدو جميعها في نطاق المنزل. في هذه الحياة التي يتطابقنَ فيها مع منازلهنّ وأولادهنّ وأزواجهنّ لا يعود مهمّاً سوى انتظار

الأيام أمّا الاهتمام بأنفسهن وبصباهنّ وبأشكالهنّ فيضعف بعد أول طفل. لا يقمنَ بأي جهد لطرد السمنة التي تبقى من زمن الحمل وتحتاج إلى رياضة وتمارين لتزول. إنهنّ يحتفظنَ هكذا بشيء من شكلهنّ أثناء الحمل ويتركنه يتفاقم من حاله. هكذا يبقينَ أمّهات وهكذا يستعددنَ للطفل القادم وهكذا يزددنَ مع كل طفل سناً وسُمنة بحيث يبدونَ غالباً في أواسط عمر يصعب تحديده. بل يبدون دائماً سابقات أعمارهنَ الحقيقية. كانت أمّ عبد الكريم، وهذه كنيتها كما سمّت نفسها لي، جميلة بالتأكيد في أوائل صباها، عيناها الزرقاوان جميلتان لولا أنهما غارقتان في وجه متضخم. قامتها كانت بالتأكيد ممشوقة لكنها تكوّرت تحت الرقبة وفوق البطن وعند الخصر كأنها بذلك تبرز سخاءها الأمومي. هذه الأجساد هي أجساد أمّهات يتركنَ أنفسهنّ لها، ورغم أن تكوّراتها تختلف من امرأة إلى أخرى، إلا أنهنّ جميعاً يتشابهنَ بهذه الأجساد غير المنتظمة الفائضة. يكفي أن نراهنّ لنعرف أنهنّ أمّهات وأنّ هذه الأجساد تحمل في تكوّراتها تاريخ الحمل والرضاعة والتربية الشاقة والتغذية، التغذية التي يبدو وكأنهنّ يقدّمنها من أجسادهنّ. قالت أمّ عبد الكريم:

– تفضل يا جار.

دخلت. كان الباب يؤدّي إلى الصالة. الصالة عبارة عن صوفا مصفوفة إلى الحائط وحولها كنبات زيتية كثيرة الخشب بحيث بدت أذرعتها عظاماً ضخمة. جلست على الصوفا وأسندت ظهري إلى الجدار. ذهبت أمّ عبد الكريم وعادت ومعها صبية لم تغزُ جسدها التكوّرات فما زال مسحوباً ممشوقاً، ولم يسمك وجهها الأسمر فقد

بقي إطاره البيضوي محافظاً على حافاته، بل بدا جلد الخد مشدوداً وزرّا الخدّين واضحان. وبالطبع لم تغرق عيناها اللوزيتان في وجهها بل ظهرتا مسحوبتين طويلتين بأهداب كثيفة. كانت يد أمّ عبد الكريم تحيط كتفها وبدا كأنها هكذا تدفعها أمامها، بل جرّتها فعلاً. وقفتُ لتحيتهما وتقدّمت إليّ. كان الدم قد صعد إلى خديّ السمراء الأمر الذي أضفى على سمرتها نعومة حريرية. قالت أمّ عبد الكريم:

– أختي صبحية.

التفتت إلى أختها وقالت لها وهي ترفع يدها بحركة مسرحية وبصوت تمثيلي:

– قلتلْكْ مش رح ياكلِك. شوفيه. رجال محترم قد ما تقولي. الله يرحمها ستّو بتفتكري لمّا رقيتك، كانت لمسة رسول. ما عدت حسّيتي بشي. شوفيه، مرتّب ومتعلّم وابن ناس. مش متل اللي بتعرفيهن. حلّك تتعرّفي ع ناس مهمّين. شوفيه بينشرب ع المية العكرة (وملتفتة إليّ) ستّك الله يرحمها كانت متل إمنا. كانت أمّ الحارة (ثم مشيرةً إلى السمراء بيدها) أختي صبحية جوزها ضيعانو، شب متل الحبق، راح بالسبت الأسود. رجّعولها ياه بكيس. يا نار قلبي عليه. كان شقف.

كنت بالتأكيد أشهد فصلاً مسرحياً. صبحية كانت مثلي تنتظر بصبر إلى أن تنتهي بدون أن يظهر على وجهها أيّ انفعال، حتى حين بدأت أمّ عبد الكريم تتحدّث عن زوجها. لكنها كانت فرصتها لتتدخّل:

– خلص. بيكفّي. كمدتيلو قلبو. مش بالأوّل نتعرف عليه.

كانت فرصتي لأقدّم نفسي، لصبحية على الأقل، فقد بدا من كلام أختها أني، بدون أن أدري، قطعت شوطاً معها:

– أنا جلال مزهر ابن بنت الحاجة هدية المرحومة جارتكن.

كان دور صبحية لتحني رأسها وتقول:

– تشرّفنا.

جلسنا، بعد قليل انسحبت أمّ عبد الكريم لتعدّ القهوة كما قالت. شعرت انها تقصدّت ان تتركنا معاً. ما أن خرجت حتى بدأت صبحية تتململ على مقعدها. كانت عقدت يديها على صدرها فأرختهما ثم عادت فعقدتهما. أزاحت قدميها بدون قصد واضح ثم عادت إلى تحريكهما. ملست على شعرها وردته إلى الخلف ثم أسقطت يديها في حجرها. حصل كل ذلك في ثوانٍ. كانت تريد أن تبدو محتارة أو ملولاً. ثم فجاةً تركت مقعدها على الكنبة الزيتية وتقدّمت إليّ. وجدتها تجلس جنبي ثم تلوي عنقها إليّ لتغدو في مواجهتي.

– عبد الكريم بيقول إنو بيتك عايم، كلّو مكسّر. ما بدّك حدا ينظفو.

– أكيد. كنت رح بسالكن إذا بتعرفوا حدا.

– إيه في حدا. ما بدّي إختي تعرف. ما بيهين عليها إني اشتغل بالبيوت. أنا بدّي عيّش حالي. جوزي ما تركلي شي. صهري عسكري ومعلومك قدّيش الأيام صعبة. ما بيهين عليها اشتغل. بس الشغل مش عيب، عيب إنك تمدّ إيدك للناس. أنا صبية وفيي اشتغل. بكرة فاضي؟

– إيه فاضي.

– بجي بكرة من الصبح. استناني. بس ما بفتكر إنو البيت فيه غراض للتنظيف. أنا بشتريهم عطيني شي عَ الحساب.

أخرجت خمسين ألفاً وأعطيتها لها فدسّتها في جزدانها. كأنما كانت امّ عبد الكريم تنتظر هذه اللحظة حتى تدخل وفي يديها صينية القهوة. عادت صبحية بسرعة إلى مقعدها وتظاهرت أمّ عبد الكريم بأنها لم تلحظ شيئاً. جلست بيني وبين صبحية. انزوت صبحية و لم يبقَ هناك أثر لقوامها النحيل وتنورتها الملتفة على خصرها. بينما فرشت أمّ عبد الكريم نفسها على الكنبة الزيتية. كانت بفستانها المعرّق الفضفاض حول صدرها المكتّل بسخاء أمومي وقدمها المفلطحة في المشاية تجعل الجلسة منزلية جداً، بحيث لم يبقَ لي إلا أن أسلّم عليها وأسير بصحبتها وصحبة صبحية إلى الباب. فيما كنا نتبادل عبارات التوديع، قالت صبحية:

– أوعى تنسى بكرة.

وتركتنا وانسحبت وصافحت أنا أمّ عبد الكريم هنية، كما علمت بعد ذلك أن هذا اسمها، وخرجت. وجدت الظلمة سادت وانقبض قلبي خاصةً عندما خطر لي البيت. صعدت إليه وتأنيت وأنا أدخل لكن الأشياء التي تنسحق تحت قدميّ أخذت تصرّ وجعل صريرها المخنوق يصعد من تحت حذائي إلى صدغي. مرقت إلى غرفتي وكنت كلما نقلت قدمي دست على البقايا العالقة بنعلي وسحنتها مجدداً وسمعت تلك الضجّة الخرساء تصرّ تحت قدميّ. كان السرير لا يزال منبوشاً فسويت بسرعة اللحاف والشرشف عليه بحيث استوى سطحه وبات مناسباً لتمددي. رفعت الوسائد وأسندت رأسي إليها واستلقيت. أغمضت عينيّ لأن التحديق في هذا المشهد الفارغ والمحطم بدا عبثياً. مع ذلك لم أفكر في النوم لأن لا شيء في هذا المكان كان يمكنه

أن يحمل النعاس إليّ. كنت صاحياً ويزداد صحوي مع الوقت ويطير النعاس أكثر فأكثر. فجأةً انقطعت الكهرباء وساد ظلام كالحبر. لم افتح عيني سوى هنيهة وعدت فأغمضتهما لكن الليل رزح على كل شيء وبدا كأن له ثقلاً مادياً. ضعت في هذا العتم وتمسكت بسريري الضيق وكأنه خشبة نجاة. الآن ليس أمامي سوى الصحو فمن هذا السائل الليلي لا يمكن أن يأتي النعاس. كنت عائماً فيه شاعراً بأن جسدي يتضاءل وتضيع حدوده حتى إني تحسسته بيدي. كان المكان المحطم يغدو مقلقاً ويتسرب إليّ منه شيء كالصخب الأخرس، كأن الحطام يتحرك في هذا الظلام. لم يكن في مقدوري أن أفتح عيني إذ بدا وكأن الليل يضغط عليهما. أطبقت جفني بشدة وكأني أبذل في ذلك جهداً وبقيت شبه متخشب في العتم. كان الصحو يصبح منهكاً ويحتاج إلى جهد ولا أستطيع بسهولة أن أجد فكرة أو خاطرة تنقلني من هذا المكان. بقيت ساعات على هذا الحال. اعتدت الظلمة و لم أعد أشعر بثقلها لكن صحوي ظلّ كاملاً. لم أنعس لكني في لحظة سقطت في النوم، تدهورت في النوم.

٤

نعم تدهورت في النوم حتى إني لم أرَ حلماً واحداً. كنت نائماً لليلة ثانية بثيابي الكاملة التي تجعلكت وتجعلكتُ انا معها. كنت أتقلب فيها شاعراً بأني أمتهن نفسي واجعلها رثة مثلها. "توت.. توت" سمعت صوت جرس كهربائي لكني رأيت نفسي أمرّ في إحدى ساحات المدينة والجرس يصدر عن أحد منازلها ويستمر، لا شأن لي به، لذا تركته و لم آبه له. عجّل ذلك يقظتي لكني لم أبادر إلى فتح عيني. أبقيتهما مغمضتين وبقيت برهة هكذا في ظل النوم وحواليه، فتحتهما أخيراً فوقعت عيني عليّ نائماً في بنطلوني. شعرت بركاكتي لكني تذكرت الجرس الكهربائي فاسرعت إلى الباب. لم أرَ أحداً على الباب لكني لاحظت امرأة جالسة على أعلى الدرج. رأيتها من ظهرها: بلوزة زرقاء بكمين قصيرين وشعر أسود طويل. رأيتها رتبت جنبها مكنسة وممسحة وسوائل وأغراضاً أخرى. ما أن شعرت بي حتى أدارت وجهها والتفتت إليّ:

– الحمد لله الأستاذ فاق. شو بيصير إذا هـ المسكينة إجت عَ الموعد. خلّيها تستنّى على الدرج. أنا كنت ماشية.

كان وجهها غاضباً وكذلك صوتها. استحييت أنا لأني تركت امرأة تنتظر على الدرج وخمّنت أنها غاضبة، لأن رجلاً، رجلاً، تركها هكذا وقتاً على بابه. كان كبرياؤها الأنثوي مجروحاً. قلت لها:

– حقّك عليي. أنا الخسران. لو بقيت غاطس بالنوم ما كنت تصبّحت بهالوشّ الحلو.

ابتسمت. كان جوابي مصيباً. دخلنا معاً إلى البيت. حين لاحظت الحطام قالت بما يشبه الصياح:

– شو هيدا، كلّو مكسّر. لمّن قللي عبد الكريم ما صدّقت. هلّق عرفت إنو ما حكى كل شي. العمى ما في شي صاغ. كلّو مكسّر. قول مسحون. ليك ليك حتى الكتب ممزقة. الله يلعنهن مين ما كانوا. شو في نفوس مريضة.

رجعت فجلست على السرير فيما باشرت صبحية عملها. كنت أسمع خطواتها لكنها عملت بصمت كامل. اختفى الصوت تماماً فأشرفت على الصالة. لم أجد أحداً لكني سمعت طحشة في المطبخ. بعد قليل جاءت إلى غرفتي قالت إنها ستنزل لتشتري أكياس زبالة فاتها أن تشتريها. وبالفعل غابت دقائق ثم رنّ الجرس. كانت تحمل إلى جانب رزمة الأكياس كيساً أبيض مبقّعاً بالزيت وصحناً فيه كرات لبنة. وضعت كل ذلك على المنضدة وقالت:

– بعدني على شحم بطني وإنت بعدك على الريق. خلّينا ناكل لقمة. بس قبل خليني إعمل شاي. بظن إنو الغاز ماشي. كيف ما حطموه. يمكن ما قدروا. اشتريت مناقيش من الفرن وجبت صحن لبنة من بيت أختي.

ذهبت وعادت بكاسي شاي في صينية، جلسنا نأكل. سألتها:

– عندك ولاد؟

– لأ، الحمد لله، الله ما طعمنا ولد. تحكَّمنا أنا وشكيب. شكيب ما كان عندو بزري. ميّتو ما كانت منيحة. لأ منيح الما عندي ولد. ما بدي ياه يربى يتيم ويعيش عَ الحسنات. منيح إنو ما حبلت. نشكر الله. لو مش هيك كنت بأيا حالة.

كانت تأكل بصمت. ترفع إلى فمها لقماً صغيرة تتناولها بإصبعين من يدها. وتشرب رشفات صغيرة بدون صوت. فيما كنت أنا أشفط شايي بصوت مسموع. تكدر وجهها حينما سمعته وقالت لي:

– بتشرب متل شي مكنسة كهربائي.

ضحكتُ وراقبتُ من ذلك الحين طريقتي في الشرب. لاحظتْ ذلك فغمغمتْ:

– مش قصدي.

– لأ معك حق. كان لازم تنبهيني. أنا بشرب بطريقة مزعجة. كان لازم تقوليلي.

– ما تواخذني. أنا بكره إنو نعمل صوت ونحنا بناكل. هـ الشي بيصدّلي نفسي. ما بيعود إلي نفس. بس قللي. أنا بعرف إنو عندك بنت. بتكون صارت صبيّة. جوّزتها أو لأ؟

– إيه، بنتي هدى صارت بالخمس وعشرين. خلصت جامعة. عملت بيولوجي. ما تجوزت. خطبت مرة وما نجحت الخطبة. فرطتها. وإنت، مكنش أحسن إنك تجيبي ولد من جوزك. كنتِ هيك بتفتكري فيه. بيكون ترك أثر.

– مش كل جوز بيموت بنكون بنحبو. كان أحسن ما نجيب ولاد. هـ الجوازة ما كانت ناجحة. قضيناها شلا بلا طول الوقت. ما كنا متفقين. أهلي جوّزوني ياه غصب عني. ما حبيتو. ما كان بدي ياه. هلّق الله يرحمو. ما بيسوى إحكي عليه، بس كان قاسي، قاسي. جنسن هيك. بيّو بيقولو إنو قتل مرتو. لقوها ميتة وما كان إشبها شي. كان متل بيّو. جنسن هيك. قاسيين وبخلا. أي بخلا. شكيب ما كان يشتري لي فستان إلا بعد ما نتقتّل. قاسيين وبخلا. وإنت شو صارلك حتى طلّقت مرتك. كاميليا حلوة ومهضومة وكل الناس بالضيعة حبّوها.

أجد صعوبة في أن أقول لها إن كاميليا هي التي طردتني لكني لا أفهم كيف أن الناس في الضيعة أحبّوها مع أنها كانت تكلّمهم بقدر من الاستهانة. ترفع صوتها على المسنين، وتطرد الشبان أحياناً من بيتها. بالطبع كان لها أصدقاء في الضيعة وكانت لها أوقات لطف مشهودة مع أصدقائها. لكن أحداً لا يدري متى يتبدّل مزاجها ومتى تغدو عدائية ومتى تلقي بالناس خارجاً. مع ذلك قلت:

– كاميليا هيي إللي طلّقتني. مش أنا اللي طلّقت. كاميليا حلوة ومهضومة متل ما قلتِ. لكن الدنيا حظوظ.

كانت صبحية تستمع مدهوشة. هوذا رجل يصرّح بأنّ امرأته أخرجته من حياتها. العادة هي أن الأمر للرجال. هم الذين يطلّقون وهم الذين يستمرّون. لا أعرف كيف كان وقع كلامي على صبحية. هل استصغرتني بعده؟ هل سقطت من عينها؟ هي لم تبادر فوراً إلى الجواب. ساد بيننا صمت حسّاس. ثم كأنما انتبهت إلى ما يعنيه صمتها:

– يا ذلّي عليك. طلّقتك. يعني هي اللي تركت. ليش شو كان بدها أحسن. رجال متلك شبوبية وعلم ومال بينترك. بس متل ما قلت الدنيا حظوظ. أخ على حالي. كل شيء عملتو لشكيب، كل شي قدمتو، ما كان تفرق معو. كان يضربني. إيه يضربني ولمّن تدقّر معه يزعبني عَ بيت أهلي. اسأل هنية كم مرة رجعت. الله يسامحو. هلّق راح بخيرو وشرّو. الله يسامحو.

كانت صبحية تتكلم بدون أن تنظر إليّ. وفي لحظة انخفض صوتها حتى صار نفَساً وهي تقول "الله يسامحو" وحين استنفدت كلامها الذي قالته وهي تلعب بأصابعها رفعت عينيها، اللتين بقيت طوال حديثها تفحص بهما يديها المضمومتين في حجرها، إلى وجهي، وكان في نظرتها إليّ قدر من الشراكة والتعاطف، شراكة اثنين مطرودين من صاحبيهما. قامت وجمعت بقايا المناقيش وصحن اللبنة وكأسي الشاي وقالت "راجعة عَ الشغل" وقبل أن تختفي لوّحت لي بيدها بحركة فيها أيضاً قدر من الشراكة، والزمالة. ومن أعماق البيت سمعت صوتها صائحاً... شو هيذا... شو هيذا... ثم اختفت جلبتها إلى أن شعرت بأنها تنقل أشياء إلى الشرفة. ثم دخلت إلى غرفتي بمريولها وقالت لي:

– حطيت كياس الزبالة عَ البلكون. مش حلوي إنو نزلهن بإيدي. برميل الزبالة بكعب الدرج. بركي بتنزلهن إنت. إنت رجّال ما حدا بيحكي إذا شافوك. أنا بتبهدل.

خرجت إلى الشرفة فوجدت ستة أكياس ملأى بالحطام. حملتها واحداً واحداً إلى أسفل الدرج وألقيتها في برميل الزبالة ولما انتهيت

من ذلك عدت إلى غرفتي وأنا ألهث. صبحية وافتني وهي تحمل صورة وجدتها في الحطام. كانت صورة لكاميليا من الصور القليلة التي لا ترتدي فيها بنطلوناً. كانت ترفع يدها وتفتح فمها بطريقة تبدو فيها وكأنها تهجم بالكلام على أناس غير منظورين، فيما حاجباها المرتفعان يحملان التعبير نفسه. قالت صبحية:

– شفت شو حلوي، ما كان أحسن تظلوا مع بعض؟

كانت تستدعيني مرة ثانية إلى أن أقول الكلام الذي يصغّرني. عليّ مرة أخرى أن أبدي نزاهتي. أن أقول الحقيقة ولو على نفسي:

– قلتلّك إنو هي اللي تركتني.

– تركتك. إيه افتكرت. قلتلّي، بس هي الخسرانة، منين رح تلاقي رجال متلك؟

كنت على وشك أن أقول لها إنها لقيت رجلاً تعيش معه الآن، لكني اكتفيت من النزاهة. لا اريد أن أجازف بكلام يجرح صورتي. ماذا سأكون أمامها لو قلته. سكتت لحظة ثم تخلّصت من الجواب بعبارة تتصنّع الحكمة:

– ما كان في نصيب. الدنيا نصيب.

عبارة كهذه تنتظر فقط الموافقة عليها، لكن صبحية كانت شبعت من هذه الحكمة:

– شو نصيب، أيّا نصيب. أنا أهلي جبروني على شكيب. لو كان بإيدي ما كنت قبلت. قال نصيب قال. الناس نصيبها بإيدها، مرتك ولا مؤاخذة عملت اللي براسها. يعني هذا نصيبها. هي نقّتو وعملتو.

لم يكن لي مزاج لأتابع بهذه الوتيرة. لقد ألقيت مثلاً لأفضّ النقاش

لا لكي أفتحه. عبارة كهذه تأتي لتذهب الكلام ولتحسمه. صبحية لم يكن الأمر بالنسبة إليها هكذا. ما اعتبرته أنا اصطلاحاً أو تفنناً أو حتى ديباجة أخذ جزءاً من حياتها وكلّفها آلاماً حقيقية. كان "نصيبها" قسوة زوجها وبخله وبعد ذلك موته وترمّلها وهي شابة. كنت أريد أن أخرج من هذا النقاش. واتتني عبارة خلتها تكفي لذلك:

- لازم نقبل واقعنا. لازم نكون قدّ اللي بيصيرلنا.

لا أعرف إذا كانت صبحية فهمت لكنها استثيرت وما زالت مستثارة لذا لم تتركني أكمل. أمسكت بكلمة "نقبل" وتشبثت بها:

- نقبل ليش بدنا نقبل. التعتير ليش بدنا نقبلو. كان عمري تمانطعش لما جوّزوني شكيب. كنت أعرف كيف عايش وكيف أهلو عايشين. البلد كلها كانت تعرف. ما حدا فكّر إني رح إسعد، ومع هيك قبلت. ليش قبلت. كان فيي قول لأ. هلّق شوف كيف عايشي. عم بشتغل بالخرا والزبالي ودايري من بيت لبيت. شو نابني من هـ الجوازة؟ شو نابني؟

كانت عيناها قد تندتا وهي تتكلم. أخذت تحتقن بكلامها وفي لحظة بدأ صوتها يتلجلج قبل أن تغطس في البكاء. احترت في ماذا أفعل. إذا تقدّمت وحضنتها أو أمسكتها من كتفيها، قد يبدو هذا تحرّشاً. أي ملامسة وفي أي ظرف كان ستعدّ كذلك. كانت جالسة مقابلي على كرسي فيما كنت على السرير. لا أعرف ماذا انتظرت مني أن أفعل. انخرطت في البكاء وارتفع صوتها وشهيقها. بقيت الاحظها من مكاني ولم أجسر على أن أقترب منها لكني لم أفاجأ حين وجدتها تترك كرسيها وتتوجه إلى السرير وتجلس إلى جانبي.

مع ذلك لم المسها. ادارت ظهرها والقت راسها على صدري. هدأ شهيقها وصوتها وصارت دموعها تسيل من عينيها بصمت. كان شعرها الأسود مرخى على عنقي ويداعب وجهي... وجهها البيضوي ملقى على صدري وشعرها على عنقي وخديّ. حرصت عندئذ على أن لا أحرّك يدي. كان ذلك ليبدو استغلالاً. قلت لها كلمات متقطعة "إهدي" "روقي" "الإشيا بتتغير" وزادت مواساتي دموعها انسياباً لكن صوتها اختفى بالكامل، بدأت تعود إلى نفسها وتوقفت دموعها لكنها تركت رأسها على صدري. ثم رفعته وردت جذعها عن صدري واستوت إلى جانبي. كنت بالطبع حساساً لكل حركة منها، بل أصل حركاتها ببعضها وأشعر انها تتدرج وتتسلسل لتنقل شيئاً ما. بعد أن هدأت تماماً ضحكت من نفسها وقالت:

– شايف شو هبلة أنا. وجعلتك راسك. بس حقيقي إنك شهم.

أمالت رأسها نحوي. وطبعت شفتيها على خدي وقالت:

– بوسة من إخت. حقيقي إنك شهم.

٥

كان واضحاً ما تعنيه بشهامتي. لكني حرت في ما كانت تنتظره مني. لم أكن قد صادقتها من قبل فمن أين لها أن تعرف كاميليا. المرات القليلة التي صعدت فيها كاميليا معي إلى الصنوبرية كانت تقضيها مع جدتي. لم تكذب حين كانت تقول إنها تحبها. جدتي أيضاً كانت تحبها. الاثنتان كانتا تجدان دائماً ما تقولانه لبعضهما، طالما حيّرني ذلك. كاميليا التي لا تجد كلاماً لي فأنا بالنسبة إليها غير مثقف. صحيح أنني أعرف عناوين عريضة للماركسية أو علم النفس، لا أدري كيف وصلت إليّ، بالقراءة أم السماع، إلا أن كاميليا كانت تغوص في التفاصيل، تقرأ بثلاث لغات كتباً لا أعرف مؤلّفيها ولا أعرف ماذا تروي. مع جدتي كانت كاميليا تسمع ويتغير لونها حين تفاجئها جدتي بشيء جديد. حديث جدتي المفضّل عن الأرواح. تقول إنها تحسّ روح زوجها حين تمرّ. تقول إن أختها المتوفاة تزورها كل يوم وهي تشعر بها بل وتحادثها. لا تسمع صوتها لكنها تشعر به. جدّتي تقول إن الأرواح تأتي على صوتها وهي تتلو آيات معيّنة. كانت تقول ليس فقط أرواح الناس الراحلين تزور أماكنها الماضية

ولكن أيضاً أرواح الحيوانات. القطة التي ربّتها بدلال كبير وتوفيت منذ أعوام تزورها دائماً في فراشها حيث اعتادت في حياتها أن تفعل. روح البقرة التي كانت عند جيرانها وذبحوها منذ أعوام طويلة ما تزال تزور مكان مربطها تحت السقيفة. كانت كاميليا مفتونة بهذه الروايات. تستحثها على أن تزيد منها وجدتي حين تراها كذلك تروح تروي قصصاً سمعتها في صباها وأخباراً صارت من تراث الضيعة. موضوع آخر كان أثيراً لدى جدّتي إلا أن كاميليا لم تكن تصغي له كثيراً، لا تستزيدها منه هو الشياطين. كانت كاميليا تحس أن موضوع الشياطين خرافي أما حديث الأرواح ففيه ذرة من حقيقة، أو على الأقل يشبه أن يكون حقيقة. كانت تحب تأكيدات جدتي عليه. كانت جدتي تفاجئها أحياناً بالقول إن زوجها الراحل مريض أو إنه غير سعيد. قال ذلك لها، لم تسمعه من لسانه لكنها شعرت به.

سمعت أخباراً من الضيعة تفيد أن ليس صحيحاً أن السكيرين هم الذين حطموا البيت. أنهم متعصبون كانوا يظنون أن جدتي متعاهدة مع الشياطين وحطموا بيتها لطرد الشياطين من البيت، ولكي لا تعود روح جدتي إلى مكانها. فهمت أن هؤلاء أخذوا المفتاح بالتهديد من أم عبد الكريم. كانوا يعرفون أنها أودعته عندها ودخلوا وحطموا البيت. أما لماذا لم تقل لي أم عبد الكريم ذلك فالخوف منعها. لا شك أن هؤلاء متراصون متضامنون وأقوياء. لا بد أن تحطيم المنزل بهذه الطريقة أرعبها بالتأكيد. أتذكر أن هناك من كانوا يقولون عن جدتي إنها متعاهدة مع الشياطين. يقولون إن تديّنها الظاهر كذب وإنها في الحقيقة من أهل الجحيم، إنها تحفظ في بيتها إشارات الجحيم وإنها

تعرف لغة أهل جهنم. لا أعرف إذا كان حديث جدتي عن الشياطين جعلهم يتوجسون منها. أذكر الآن جدتي الحاجة هدية. نعم الحاجة مرّتين وربما ثلاثاً فقد أدت الفريضة أكثر من مرة وبالطبع رجمت الشيطان هناك بالحجارة كل مرة حجّت فيها. هي بالطبع كانت تؤدّي الفرائض كلها وتصوم رغم أن الطبيب نهاها عن الصوم. قالت: أفطر في نهاية حياتي. لكنها كانت مؤنسة وظريفة ولا تطيق اللحى ولا ترى أن الدين يمكن أن يكون باللحى. لم تكن بالطبع مجددة. لكن شعورها يقول لها إن الدين ليس باللحى ولا بالأثواب. شعورها يقول لها أيضاً إن اللحام السكير ليس سيئاً، بل هي عالجته عندما انجرحت خده. أقول عالجته لأن جدتي، وهذا بيت القصيد، كانت شافية. يقولون في الضيعة إنها تعرف الأعشاب الشافية وتحتفظ ببعضها في بيتها، وعندما كان يتنفخ بطن إحداهنّ أو أحدهم أو يصيبه مغص أو يشعر بالغثيان يذهب إليها فتسقيه من مغلي أعشابها، لكنها أيضاً ترقيه وتقول إن الرقية هي الأصل أما الأعشاب فتشفي إذا قرأت عليها آيات، إذا رقتها مع المريض. يقولون في الصنوبرية إنها كانت شافية، أظن أن هذه السمعة هي التي حرّضت المتعصبين عليها. كانوا يرون أن مقدرتها سحرية وأنه السحر. غير أن هذه الأخبار تصل إليها ولا تابه لها بل لا تأبه لأصحابها، وحين جاؤوا بواحد منهم مصاب بالمغص إليها سخرت منه و لم تمدّ إليه يداً.

لا أدري من اين كسبت جدتي هذه السمعة. أعرف من والدي أن أباها كان يشفي ويرقي ويخالط الأرواح. لكن أحداً لم يقل عنه إنه ساحر فهذه الملكات إذا كانت لرجل لا يسمّونه ساحراً. لا غرابة

في أن يشفي الرجل أو يطرد الشياطين أو يكلّم الأرواح فهذه من صفات الله الذي جعله خليفة له على الأرض. أما المرأة فلا تملك هذه القدرات إلا بطرق ملتوية. إن عليها أن تطلبها عند الشياطين وتعاهدهم لقاء ذلك على أن تخدمهم طوال حياتها. لم يكن الناس أقل إيماناً منها بالشياطين لكن إيمانها بهم كان يخيفهم. على المرأة أن ترضى بما قسم الله لها وأن لا تطلب أكثر منه عند غيره. الشفاء ومعرفة الغيب وحتى التبحر في علوم الدين ليست لها. الله يعطيها للرجل لقاء طاعته ويخص بها أتقى عباده أما المرأة فإنها لا تستحقها إلاّ بالتمرّد والمروق عن الطاعة. عليها أن تلزم حدها وكل خروج عنه، وإن في أمور مقبولة، مدعاة للريبة. ذكاؤها إذا فاق وتكهنها إذا أصاب وحتى حكمتها إذا تحققت مدعاة للريبة. ذكاء جدتي الذي فاق ذكاء ذكور عائلتها واشتهرت به منذ كانت في المدرسة ولهجت به معلماتها في الضيعة، وقدرتها الفريدة على التوقع، وولعها بمسائل الروح والملائكة والشياطين كانت في نظر البعض مروقاً عن طبيعتها كامرأة. إذا دحضت رجلاً وكسفته أمام الناس قال إن الشيطان يوحي إليها، وأنها تنطق بما يوسوس لها والشيطان بالطبع آية في التحايل والكيد. إذا توقعت شيئاً وصحّ توقعها كان ذلك دليلاً على أنها مسكونة وأن الشيطان يملي على عقلها. جدتي كانت تقول إن هذا الأمر لن ينجح فلا ينجح، وإن هذا الزواج لن يوفّق فيقع الطلاق قبل أن يكون خبرها برد وأنسي. تقول إن هذه السفرة ستكون غانمة فتعود غانمة، وإن هذا الرجل سينجح في أعماله فيثري، وإن هذا الطفل سيكون له مستقبل فيشبّ ويظهر صواب قولها فيه. يقولون إن كلامها لا يخيب وإن كل

ما توقعته أصابته في كبده وتحقق. ليس هذا صحيحاً دائماً فقد توقعت أن ينجح زواجي بكاميليا وخاب رأيها. أعرف هذا من تجربتي، لكن سار بين الناس أنها لا تخيب في راي، وأنها تصيب كبد الحقيقة كلما خمّنت أو رجّحت. كانت هذه إحدى أساطير الضيعة، أرادوها كذلك لضيعتهم وأصروا عليها واستبعدوا لذلك كل ما ينافيها. قالوا إن كلام الحاجة هدية قانون ووقفوا عنده، ونسوا بالطبع أنها توقعت لعبدالله الكردي أن يعود خائباً وعاد ثرياً وعمّر قصراً في الضيعة. إنها انتظرت أن يفرط زواج صباح ولن يستمر أكثر من شهور، و لم يفرط الزواج وأثمر أولاداً ناجحين. بل هي كما علمت فيما بعد من صبحية توقعت لزواجها من شكيب أن يعمر ويستمر وكان زواجها منه مصيبة حقيقية. هناك استثناءات كهذه فجدّتي كانت تغترّ أحياناً بالمظاهر، أو تأتيها معلومات مغلوطة، أو أنها ببساطة تخطئ. لكن الضيعة التي لم تكن فقيرة بالأساطير ارادت ان تكون لها أسطورة جديدة. كانت لها "الضيعة" أسطورة الشيخ عبد الرحمن الذي يشرف مقامه عليها. الشيخ عبد الرحمن كان يغيب مع المهدي وقد لحقته جدتي وتوفي وهي في أوائل صباها، لكنها كانت تقول عن غيبته مع المهدي إنها بحت اختراع. بالتأكيد أزعج قولها في حينه أشخاصاً اعتبروه كفراً وتطاولاً، وبالطبع أُنسي هذا الكلام حين صمّموا على رفع أسطورة لجدتي وهي بعد حية. أنسيت هذه الحادثة وأُنسيت فكاهات جدّتي التي كانت بحق فكهة. إذ لا يليق بأسطورة أن تكون ضاحكة ولا يليق بمقام أن تروى عنه النوادر. كان الاتجاه العام هو اعتبار جدتي ولية وتم لهذا الاتجاه أن يفرض رأيه. لكن نشوء "أهل السراط" جماعة

المتعصبين في القرية فرط ذلك. كانت جدتي جريئة في تصدّيها لهم، تقارعهم في مجالس القرية وتغلبهم أحياناً. عدتها من الأحاديث والأخبار غنية وموثّقة غالباً وتتجاوز في أحيان كثيرة علمهم. لكنهم تكاثروا وخاصةً بين الشبان. سمعتهم ولباسهم وأجوبتهم كانت غير معهودة وقد جذبت كثيرين ممن أرادوا تجديد حياتهم. لم يصدقوا أن بين النساء وليّة فلهم ارتيابهم بالنساء الذي يعدّونه من الدين، وبالطبع لم يوافقوا على تكريسها وهي بعد حية. لم تكن جدتي طالبة ولاية ولو عرضت عليها لأنكرتها بفكاهتها المعهودة، لكنها اغتاظت حين بدأ يتسرب إليها ما يُقال من أنها تعاهد الشياطين ومن أن مقدرتها على الشفاء سحر فحسب. لم تكن معتدة بهذه المقدرة وتعرف أكثر من غيرها أنه علم أخذته عن والدتها وبالأحرى عن جدّها الذي كان عشّاباً ولم تستغلّه للمال. اعتبرته منحة من الله وليس من حقها أن تبيعه بالمال، بل أرادت أن يذكر الله ويشكر ويردّ له معروفه في كل جلسة للشفاء، بحيث تستحيل كل جلسة محلاً للذكر والتسبيح. كيف يمكن للشياطين أن تحضر حين تقرأ الآيات على الماء المغلي وعلى الأعشاب قبل غليها. اغتاظت جدتي ولم تسكت. رشقتهم بما رموه عليها. ردّت عليهم أقوالهم. قالت إن الشيطان في عقولهم ولحاهم ولباسهم. قالت إنها حين تمرّ بأحدهم تشعر بالشيطان يتكلم من بطنه وتشعر به يقرقر بلغته الغريبة، لغة الجحيم. لكنهم كانوا كثيرين وهي وحيدة. لم يصدق الناس أن الشيطان يتلبس أشخاصاً يتولون المسجد ويداومون فيه، لكنه أقرب إلى أن يتلبس امرأة وحيدة تقضي وقتها في غلي الأعشاب والتمتمة عليها. حين قال واحد إنها بلا رائحة

وهذا من علائم الشيطان وجدوا أن هذا دامغ و لم يحاولوا حتى أن يتحققوا منه. حين زعم أحدهم أن نظرة قطتها ومواءها غريبان وجدوا أن الحجة كافية بذاتها ولا تحتاج حتى إلى تثبت. هكذا دارت الدائرة على جدتي وتحولت في مدى أشهر من مرشحة للولاية إلى حليفة للشيطان. بدأ الناس يتأبّونها فصار بيتها العامر بالزوار مهجوراً. كان يغلي بالناس وصار في مدى قصير أجرد منهم. امتنع عنها حتى جيرانها وتجرّأ الأولاد على رشق بيتها ونوافذها بالحجارة. وصارت تتوجس من أن تخرج إلى الشرفة التي أخذوا يرمون عليها حيوانات ميتة. صاروا يتركون قذارتهم أمام بابها ويلطخونه بالوحل والفاكهة المهترئة وأحياناً بالخراء. يمرّون من أمام بيتها ويصرخون "نار"، أما القليلون الذين استمروا يلمون بها فكانوا في الغالب مرضى ثقلت عليهم أمراضهم حتى ما عادوا يبالون، من أجل الشفاء، باللجوء إلى الشيطان، بل ربما خطر لهم أن الشيطان أطبّ وأدهى ولا بأس من أن يسلّموه روحهم لساعة أو أكثر، كانوا يتشاطرون عليه. لما شعرت جدّتي أنهم يأتون إليها لهذا الغرض طردتهم وهكذا خلا بيتها تقريباً. أم عبد الكريم استمرت وحدها في زيارتها، كما روت لي صبحية، رغم معارضة زوجها الدركي الذي لم يشأ أن يدخل في شقاق مع القرية أو لم يشأ أن يدخل في مشكل كهذا.

بقيت جدتي مغلقةً هكذا أبوابها. إلاّ أن القرية لم تجتمع عليها. روت لي صبحية. بقي كثيرون في القرية ممن انتفعوا غالباً بطبها أو وثقوا بدينها يسرون أنها امرأة صالحة، بل إنها تقية ولا غش في دينها، لكن مسألة الولاية صارت بعيدة. إذ لم يخطر لأحد أن ولية لا تستطيع

أن تحمي بيتها. كان هناك من يغضبون لها. لكن المتعصبين كانوا في أكثرهم شباناً عنيدين ولا يؤمن الجدل معهم. ثم إن الذين غضبوا لها لا يريدون أن يحدثوا شقاقاً في القرية. أيمان الشبان وتقواهم لصالح القرية التي صارت بفضل ذلك قرية مباركة، لا بأس في أن نسامحهم على خطأ صغير كهذا. لا بأس في أن تكون الحاجة هدية قرباناً وأن تتعذّب ما دام ذلك يخدم وحدة القرية وصلاحها. لعدة شهور انقطع الناس عن جدّتي وحتى أم عبد الكريم انصاعت لزوجها وامتنعت عن زيارتها. لعدة شهور كان بيتها يصفر وليست فيه رائحة إنسان لكن طرقت بابها في يوم أم فوجئت بطفلها يلهث ويصفر صدره ويتقلب من الوجع. حملته في هذا الليل إلى الحاجة التي استقبلته وأمّه دون كلمة وسقته من مغلي أعشابها وما هو إلا وقت قصير حتى راق الطفل وزالت عنه عوارضه وهدأ. تركت الصبي في حضن أمه وانسلّت إلى غرفة ثانية في البيت. لما استأخرتها الأمّ نهضت وولدها على صدرها وبحثت عنها في البيت. كانت تحسبها في جلسة مع الشيطان فوجدتها على سجادة الصلاة. لا يجلس الشيطان على سجادة الصلاة يتضرّع ويدعو. خرجت الأمّ بعد أن استسمحتها لكنها في اليوم التالي زارتها ومعها سرب من النساء. أكثرهنّ حملت معها طفلاً. عجّ البيت مجدداً بالناس. انكسر الحظر، زال التحريم.

لم يكن هذا سهلاً على المتعصبين من "أهل السراط". أن يزول حظر أياً كان مصدره، يهدد بأن يجرف معه بقية المحظورات. يهدد بأن يزول معه نظام كامل. لذا عادوا إلى معركتهم التي كانوا سكتوا برهةً عنها. عادوا من جديد إلى شيطنة جدتي. قالوا إن دينها تظاهر وإنه في الحقيقة

سخرية من الدين. هذه المرة لم تسكت جدتي و لم تساير. خاضتها الآن معركة سافرة. من قال إن دينها تظاهر قالت إن دينه من عقله وليس من الله وإنه تلاعب واحتيال. من اتهمها بالسحر اتهمته بالنفاق. جفل أكثر الناس من المعركة ونأوا بأنفسهم عن الطرفين. لكن بقية منهم استمرت في المعركة، مع الحاجة وضدّها. صار للحاجة أنصار معلنون لا يتورّعون عن القول إنها ولية ويرشقون خصومها بأقسى التهم. بل دارت شجارات بالأيدي بين خصومها والمؤمنين بها.

حين جرح أمين هادي أحد غلاة أنصار الحاجة بحجر وسال الدم من رأسه، فهم الجميع أن القصة جاوزت الحدّ ودعا عقلاء القرية إلى اجتماع تمّت فيه المصالحة، وتعاهد الجميع على لملمة النزاع ووقفه. دار شجار آخر كادت معه أن تقتلع عين أحد الخصوم شاكر يوسف فاقتضى الأمر اجتماعاً آخر، لكن الذي أوقف النزاع هو مرض الحاجة. حين علم الناس أن الحاجة مريضة وأن مرضها (سرطان الرئة) متفاقم وفتّاك عاد لهم إيمانهم بالحاجة وعادت الحاجة أمّاً للضيعة. هذه المرة لم يعترض أحد حين قيل إنها مؤمنة وإنها ولية. زارها الجميع وبينهم أولئك الذين شيطنوها. لم يمتنع سوى الحاج مهدي الذي حجّ ابن عشرين وهو تقريباً كبير "أهل السراط"، لكنه كما روت صبحية شارك في حمل نعشها وبكى طويلاً في تشييعها واستسمح منها أمام الجميع. صبحية لا تتهمه بأنه دبّر تحطيم بيت الحاجة، وشارك فيه. تقول إنه فعل مراهقين من المتعصبين وتتهم صهرها زوج أم عبد الكريم بأنه بسط حمايته عليهم. كونه دركياً جعلهم لا يتعرضون لسين وجيم فطويت المسألة بدون حساب.

لا أظن أن صبحية قالت الحقيقة أو أنها تعرفها على الأقل. ليس تحطيم البيت صنع مراهقين، قيل ذلك لتغطية الكبار. في جنازة الحاجة احتشدت الضيعة، الشعور بالذنب كان نفسه لدى الجميع. لقد تركوا الحاجة المحسنة للكلّ تتعرض لجحود لا تستحقه. هناك من اقترح بناء قبة على ضريحها كما فعلوا للشيخ محمد الذي ظهرت كراماته بعد موته. كان هذا يعني تكريسها والاعتراف بولايتها. التي ستصير ولية هي المرأة التي سخرت من لحى "أهل السراط" وجلابيبهم. هي التي قالت عنهم إنهم كالحمير التي تنقل أسفاراً وإن علمهم وكلامهم هراء. هذا يعني أنها بعد موتها ستربح عليهم. كانوا يعرفون أن الحرب مع الأموات ضارية أكثر وأن الأموات يصبحون بموتهم أقوى وأكثر عناداً. إذا صارت الحاجة ولية فلن يبقى هناك سبب لاستمرارهم. ما حاجة قرية فيها ولية إلى خدماتهم. ما حاجتها إلى خدمة الجامع أو المكوث فيه. سيتقاطر عليها الناس من الضيع وسيكون مقام الولية جامعها الجديد وستزيدها كراماتها المقبلة مكانة بين الضيع. ستغدو، ربما، كرسي الجبل. أما الحاجة فستعيش طويلاً بكراماتها المؤكدة، المؤكدة لأنها تقع لمجرد انتظارها. إنها تقع لأننا نريدها أن تقع ولأن بعضاً منها، أو ما يشبهها، قد وقع في حياة الحاجة فماذا يمنع أن يحصل بعد موتها.

كانت هذه محنة "أهل السراط"، سيكونون مسخرة الجميع إذا لم يتحركوا فوراً. إنها مسألة أيام، ما أن تظهر الكرامة الأولى للحاجة حتى تصير أقوى من أن يواجهوها. سيستهين بهم الناس بعد أن غلبتهم امرأة. سيرمقونهم بازدراء بعد أن ربحت عليهم مؤمنة ساذجة تغلي

الأعشاب وتوسوس بالشياطين. لن ينفع أن يقولوا إنها ساحرة فلدى الأولياء قوة كالسحر. كان عليهم أن يتحركوا فوراً فهي مسألة أيام. إذا صبروا أكثر فلن يستطيعوا شيئاً. موت الحاجة لن يقدروا عليه. أيام بعد موتها وتصير فعلاً وليّة. عندئذٍ لن يكون لهم سوى أن يصيروا خدم ضريحها. لكن المسألة لن تقف هنا. سيكونون هم القطّ الأسود حين تروى حياة الولية. ربما يصيرون الشياطين التي وسوست الولية الجديدة بها.

كان لا بد أن يواجهوا ليلة الوفاة، وبعد أن شاركوا في حمل نعش الولية دخلوا ليلاً إلى بيتها وحطّموه. أخذوا المفتاح من زوج أم عبد الكريم. حطموا البيت فلم يعد هناك سبب بعد لكرامات الحاجة التي لم تدافع عن بيتها. إذا لم تدافع عن بيتها فكيف ستدافع عن ضريحها. دخلوا إلى بيتها في أواسط الليل حين كانت الضيعة تغطّ في النوم. لم يتركوا شيئاً إلا وحطّموه. كل الآنية، كل الصور، الخزانة، الكراسي، الصور، تركوا فقط تماثيل سوداء لتشهد على كفرها. تركوا صورة الحاجة معلقة وكأنها كانت هناك تشهد عملية التحطيم دون أن تستطيع شيئاً. لو كانت ولية لرمتهم بلعنتها ولحوّلتهم إلى مساخيط. لو كانت ولية لما صبرت هكذا على تحطيم بيتها. لم يرَهم أحد فقالوا إنهم السكارى فعلوا ذلك، ثم قالوا إنهم المراهقون. كان السكارى حجّة أقوى فأن تترك الحاجة السكارى يفعلون ما فعلوا أدلّ أكثر على ضعفها. لكن صاحب الحانة شهد بأنه صاحبَ زبائنه في ساعة مبكرة من الليل إلى منازلهم وشهد جيرانهم بأنهم رأوهم في هذه الساعة يعودون إلى بيوتهم. لذلك جاءت قصة

المراهقين لكنها ضعيفة. ما الذي يدعوهم إلى عمل كهذا.

في الحقيقة ظلت الضيعة تهجس بالقصة وتتهم "أهل السراط" بالخفية. لكن ولاية جدتي لم تعد واردة، على الأقل الآن فمن يدري ماذا سيحدث غداً. لم تدافع عن بيتها هذا صحيح لكنها إذا شفت ولداً كسيحاً أو ساعدت عاقراً على الحمل أو شفت حتى بقرة فإن حديث ولايتها سيتجدّد. لم يمنع تحطيم البيت النساء من زيارة ضريحها. بعضهنّ نذرن لها. لم تحصل بعد الكرامة الأولى لكن من يدري، أمامنا وقت طويل، طويل جداً، ومن يدري ماذا سيحدث؟

٦

الناس أبناء أمّهاتهم وآبائهم، إلا أنا، فأنا ابن جدتي. كنت وحيد أبويّ حينما عزم والدي على السفر إلى كولومبيا. أخوه الذي سبقه إليها كتب له إنها بلاد خير، قال له: ما بقاؤك في هذه البلاد المجدبة؟ حين كان والدي يتردّد على السفارة الكولومبية ويتابع معاملة سفره كنت لا أزال في الثالثة. بيتنا كان في الحيّ قرب بيت جدّتي. بناه والدي على قطعة أرض لأهل أمّي كانت لصق منزله العائلي. ما أن ولدت حتى صرت تحت إشراف جدّتي. كان لدى جدتي العشابة طبّ لكل شيء. حين تعيا والدتي ولا ينفع طبها تحملني إلى جدّتي فتقلبني بين يديها دقيقة أو اثنتين ثم تحكم بكلمة واحدة أن معي مغصاً أو أنه مصران أو هو نموّ الأسنان وتذهب لتغلي عشبة أو تنقط من زجاجة سبق أن عبّأتها بمغلي عشبة نقطة أو اثنتين في فمي. كنت أهدأ فوراً على صدر جدّتي ثم تكرّ ضحكاتي، بل إني اعتدت على صدرها، ما أن تحضنني حتى أروق ويطير وجعي أو ضيقي. ما أن تحضنني حتى تعود إلي طبيعتي وأروح أبتسم في وجوه الناس. تلك الابتسامة التي كانت جدتي تقول عنها إنها تردّ الروح. عندما بدأت أمشي عرفت الطريق إلى

بيت جدتي وصرت إذا اختفيت من البيت يعرفون أني عندها. جدي فارس كان يجلس متربعاً على الصوفا يشرب شايه وحين يراني يفسح لي جنبه أو يجلسني على ركبته ويسقيني من كاسه.

كانت قصة زواج جدّتي من جدّي لا تزال دارجة، سأعرف بعد ذلك أن جدّي ليس من الصنوبرية. جاء إليها من ضيعة بعيدة. كان معلّم عمار واستقدمه والد جدّتي ليعمّر له بيته. جدّتي الصبية الجميلة راق لها، لا لأنه أشقر أزرق العينين فقط، راق لها لأنه كان يبقى في شغله حتى الغروب ولا يسمح للعاملَيْن اللذين جلبهما معه بأن يلهوا أو يضيّعا الوقت. كانت جدّتي جميلة وبنت رجل مقتدر وابتدأوا يحكون بها من وقت. في الضيعة توقعوا أن تكون لابن خالتها الذي يعمل في بيروت. ولم يكن لجدّتي مأخذ على ابن خالتها إلا أنها كانت تستمهل كلّما حكتها خالتها. تقول لها إن الوقت لم يحن، إن شيئاً في داخلها، لا تدري ما هو، يجفلها ويجعلها تتأنى. جدّتي تقول إنهم كانوا يرسلونها لتدعو المعلم وعامليه إلى الغداء. جدّي لم يكن يأتي بصحبتها إلى الغداء إلا بعد أن يجمع العدة ويتأكد أن كل شيء في مطرحه ثم يقول لها:

– يا ست هدية. ما في داعي يعتوك. إنت صبية. هـ الأشيا مش إلك. يعتولي خبر مع خيّك وأنا بجي.

كانت تنظر إليه بعينيها الواسعتين العسليتين وتبتسم له وتجيب:

– مش عم يعتوني. أنا بجي لحالي. انا بحب إجي.

كانا يسيران سوية إلى البيت. على الطريق، المعلم فارس يحدّثها عن الشغل. وهي أيضاً تحدّثه عن عملها في البيت. كانت فكهة وتروي

وهي تضحك كيف تتحايل هي وابنة خالها، التي تعيش معهم، على أمّها للخروج لتلاقي ابنة خالها خطيبها تحت شجرة وارفة في طرف الضيعة. سألها المعلم فارس:

– وإنت ما عندك حدا؟

– أنا كلهن مسافرين. بيبعتولي سلامات. ليش الضيعة فيها حدا، كلهن سافروا وتركوا البنات معلّقين.

لم يكن يجيب. لكن هدية تسأله باهتمام:

– وإنت ما عندك حدا؟

كان وجهه يتورّد ويتلعثم وهو يجيب بأن لا أحد في حياته. شغله يأخذ كل وقته. عليه أن يعمل ويعمل. والده توفي باكراً ونزل هو باكراً إلى سوق العمل. في البيت إخواته الصبايا وعليه أن يجهزهن قبل أن يفكر بنفسه. لحسن الحظ أن كبيرتهن تزوّجت والثانية مخطوبة. لم يبقَ إلا الصغيرة وهي لا تعدم من يحكي فيها. بدأت الأمور تتحلحل.

كانت تقدّر له إحساسه بالمسؤولية. ابن خالتها ليس له نفس الإحساس. تروح تنظر إليه بعينيها الواسعتين وهو يتحدث عن مشاغله:

– لازم تلاقي بنت واحد مقتدر، بيساعدك.

– المهم البنت. مش بيّها. خالي مرتاح وعندو بدل البنت أربعة. بس أنا مش على بالي إتجوز منهن. ما بيعجبوني.

حين أشرف العمل على الانتهاء ذهب المعلّم فارس إلى ضيعته البعيدة في الشمال. قال إنهم تلفنوا له بأن والدته قد وقعت عن الزيتونة وانشعرت رجلها. غاب ثلاثة أيام. أثناءها كانت هدية متفاجئة من

الاحساس بأن يومها يظل في غيابه ناقصاً ومن أنها تستمر تفكر فيه. عاد، كان البيت الذي يقيمان الآن فيه قد ارتفع واكتمل و لم يبقَ بحاجة إلا إلى إضافات قليلة. تحوّلت فيه هدية وشعرت بأنه فيه بنيان المعلّم فارس وحركته ورائحته. كان فيه قوته وطوله وحتى لعثمته. في الصباح ذهبت إليه وقالت له ببساطة:

– الليلة بتجي لعندنا وبتحكي فيي. ما تخاف، أنا قلت لأهلي وكل شي زابط. ما باقي إلا إنتِ تحكي. بتقعد يومين وبتجيب إمّك وبتخطبوني رسمي.

ببساطة أيضاً انتظر المعلّم فارس حتى المساء ولما خيّم الليل ذهب إلى بيتها ووجد أمّها وأباها في انتظاره، لم يكونا في ثياب البيت. كانا تهيئا للقائه بثياب الاستقبال. الأب بطقمه الكحلي الذي عقدت عليه ربطة عنق والأمّ بفستان ماكسي. حكى بهدية فقال الأب إنه شاب مناسب لكن العرف أن يحضر والدته للخطبة، أحضر فارس والدته وجرت الخطبة.

٧

لم تكن هدية قد لَمحت لموضوع الخطبة والأغلب انه لم يخطر لها إلا في غياب فارس. رجع فارس وليس في باله أيّ فكرة عن الخطبة. قالت له هدية تعال اخطبني وعيّنت الوقت وهو استجاب. قررت عن الاثنين وستظل تقرر عن الاثنين. يصبر فارس إلى أن تقرر وبعدها يعرف ماذا يفعل. منذ تزوّجا والأمر على هذا المنوال. تقرر هي ويوافق هو. أمام الناس تقول إن الكلمة له. تقول لهم: اسالوا أبو ياسر، لكن أهل الضيعة لم يفتهم أن "أبو ياسر" لا كلمة له. أمّه قالت له إن عليه ان يكون رجلاً أكثر، وبالفعل حين قالت له هدية إنها قررت أن تنقل ليلى أمّي إلى مدرسة في بيروت أجابها "اتركيني فكّر" و لم تجادله، تركته يفكر وبعد يومين سألها: لماذا لا تزال ليلى في البيت، متى تنتقل إلى بيروت. لم ينسَ أنه قال لها "اتركيني فكّر"، لكنه حين حاول أن يطبخ الفكرة في رأسه لم يجد شيئاً. لقد أنهت الابنة صفوف مدرسة الضيعة ولا بدّ من أن تنتقل إلى بيروت.

ظلّت جدّتي تقرر عن الجميع إلى أن كبرت ليلى. وقفت ليلى في وجهها كلما حاولت أن تلزمها بشيء لا تريده. كانت مطالب جدّتي

قد كثرت وصارت تريد من الجميع أن يسألوها في كل شيء. ليلى لم تكن تسأل، وكانت تعمل ما في رأسها. تعاشر من تريد وتخرج وتعود متى تريد وتلبس كما تريد. جدّتي لم تعد تطيق أن يخالفها أحد. لها رأي في صاحبات ليلى لا يحبّذ بعضهنّ. كانت أشد على من يتراءى لها أنها تنزع ليلى عن بيتها، بالأحرى عنها. أشد على صاحباتها البيروتيات اللواتي تراهنّ وقحات ومبتذلات في ملابسهن. تراهنّ في الحقيقة أكثر تأثيراً على ليلى وتخاف أن يجتذبنَ ليلى إلى عالمهنّ فلا تعود في عالمها. أمّي كما علمت منها لم تكن تجادل فالجدل مع جدتي مضنٍ وشاقّ. كانت تخرج بدون أن تسألها وتعود في الساعة التي تريدها.

في البداية سكتت جدّتي على ما تفعله لكنها في النهاية لم تعد تستطيع السكوت. صارت تحاسبها فتحتال والدتي للخروج من الحديث بالمزاح والتغاضي. لكن جدّتي تثقل عليها فلا تجد بداً من أن تردّ. بدأ الصوت يعلو في البيت وبدأ الأولاد الأصغر من أمّي يتصدون لوالدتهم. كانوا مثلها أصحاب رأي ومستقلين. عنيدين ويفعلون ما في رؤوسهم. لذا تعبت جدّتي معهم.

في النهاية لجأت إلى جدّي الذي نظر إليها بعينين فارغتين. ماذا تركت له جدّتي ليكون له دور. مع ذلك حاول أن يتدخل مع أولاده. وجدهم ألطف مما انتظر. لم يفاجئهم أنه أخيراً تكلّم. لم يسألوه لماذا سكت كل هذا الوقت. كانوا لطفاء لأنهم حسبوه واحداً منهم. سلطان الحاجة عليه أشد من سلطانها عليهم. طاعته لها أكثر من طاعتهم. أرادوه أن يتكلم ولمّا تكلّم حثّوه على أن يتمرّد. على أن

يلقي بكلمته في وجه الحاجة. لم يكن هذا شانه، كان سعيداً بأن تقرّر الحاجة عنه. لولا ذلك لما استطاع هو المتردد أن ينتهي إلى قرار. قال لهم صادقاً إن من حظهم أن الحاجة تنوب عنهم في كل شيء، إنهم في حضورها لا يشغلون بالهم ولا يتحملون عاقبة. هي التي تنوب عنهم في كل هذا وعليهم أن يكونوا سعداء لأنها تتحمل التبعة عن الجميع.

كانت كبراهم أمّي قد بلغت الثامنة عشرة أما ياسر ففي السادسة عشرة يليهما عصام وزينب في الخامسة عشرة والثانية عشرة. كانوا جميعاً شبّاناً ومراهقين. كانت زينب ابنة الثانية عشرة قد ألقت منذ ايام باول "لا" في وجه والدتها. لم يفاجئهم أن والدهم تكلّم، فاجاهم بهذا الحديث عن سعادته في طاعة والدتهم. عندها لم يعودوا يجدون جدوى من متابعته، قالت له ليلى إن من الأفضل له أن يعود إلى امرأته لينعم بطاعتها. أما هي ليلى فلا تظن أن الطاعة نعيم. حين بدأ ياسر يسخر من والده قائلاً إن له طبع الهررة أسكتته ليلى بحدّة، لم يكن ضرورياً أن يقسوا عليه، إنه والدهم و لم يسبق له أن قسا عليهم. ليسوا شرّيرين ليسخروا منه. ما يطلبونه من حقّهم.

كانت جدّتي، كما روت لي خالتي، تواجه تمرّداً عاماً. البيت كله بما فيه ابنة الثانية عشرة في حالة عصيان. لا تكلّم أبناءها ولا يكلّمونها. يبقون أربعتهم سوية في اجتماع دائم. يخرجون ويعودون بدون طلب إذنها. حتى صغيرتهم صارت ترافقهم وتعود معهم. ثم بدأوا يتشاغلون، أحضروا أوراقاً كبيرة جلسوا يخططون عليها كلمات: حرية. إضراب. استقلال. ثم حملوها وساروا بها داخل البيت في شبه تظاهرة، قادتها ليلى وهي تهتف: حرية... حرية، ولما انتهوا

أخذوها إلى صدر الصالة حيث ألصقوها. حين طلبت جدتي من ليلى أن تساعدها في أشغال البيت التفتت إليها وأشارت إلى اليافطة وبالضبط إلى كلمة "إضراب". جدّتي الفكهة ضحكت أول الأمر من هذا التقليد للإضراب والتظاهرات. ضحكت كثيراً وروت ذلك لزوّارها وأرتهم اليافطة التي أعادت بيدها إلصاقها. لكنها اكتشفت أن الأمر ليس تهريجاً وأن سلطانها يتسرّب تحت هذا التقليد. غضبت في البدء وانفجرت في وجوه أولادهم، ولمّا وجدتهم ساكتين ورأتهم ينصرفون من أمامها بدون صوت فهمت أن هذا الصمت قطيعة بينها وبينهم، عندئذٍ صمتت بدورها. لقد جمد غضبها وتحوّل إلى حزن فعلي. ظلّت يومين على هذا الحال لكنها في اليوم الثالث نهضت مستبشرة. كانت أفتى وأجمل حينما دعت الأربعة وقالت لهم: صرتم شبّاناً، تريدون حرّيتكم. خذوها.

٨

الناس أبناء آبائهم وامّهاتهم اما أنا فابن جديّ، حينما عزم والداي على السفر إلى كولومبيا كنت في الثالثة. تعلّمت الكلام في هذه السنّ وصار في قدرتي أن أقول أيّ شيء. كانوا يستفزونني بالكلام ليسمعوني. كنت ألثغ بعدة حروف وهذا يزيّن كلامي ويجعلهم أكثر يحاولون أن يستنطقوني. لكني كنت أصوغ جملاً كاملة وتشبه بدقة كلام الكبار. كانوا يريدون أن يسمعوا على لساني كلاماً منظوماً كالذي يقوله الكبار. كانوا أيضاً يأنسون بحركاتي إذ كنت أتكلم وأحرّك يديّ كثيراً أثناء ذلك وأرفق كل كلمة بحركة. كنت رجلاً صغيراً وهذا ما يجعلهم يستدرجونني إلى أن أعبّر. يتناقلون بعض عباراتي ويستفزونني لأعيدها. كنت أعرف أنني لعبتهم وأنهم يرونني فريداً ويعجبون بذكائي وأروح أجتهد لكي أسلّيهم ويزداد إعجابهم بي. لّما عزم والداي على السفر حملتني جدّتي وذهبت وأنا على صدرها إلى بيتنا. قالت لأبي:

– رايحين رايحين. لكن ما بدّكم تتركولي شي من ريحتكم؟

لم يفهم والدي في البدء ماذا تعني بأن يتركوا لها شيئاً من رائحتهم.

هذه في العادة تستعمل للأشياء. قد تعني قميصاً أو قلم حبر أو ما شابه، لكنها لا تعني إنساناً. سايرها قال لها "آامري" وهو ينتظر ان تفصح. شعرت هي أنه لم يفهم فزادت إفصاحاً:

- اتركولي جلال بتسلّى فيه.

لم يكن والدي ينتظر أن يسمع هذا منها لكنه ووالدتي كانا ذاهبين إلى ديار غريبة ولا يعرفان ماذا سيلقيان فيها. لم يكن وجود طفل يسهل عليهما ذلك، لذا بدا عرض جدّتي كريماً ومساعداً، لكنه مع ذلك استهول أن يترك وحيده بعيداً عنه. فكّر بأنها ستكون اشهراً قليلة المدة التي سيقضيها بعيداً عن ابنه. وعد بأنه سيستشير امّي، لكن جدّتي كانت قد كلّمت ابنتها وتفاهمتا على أن أبقى معها. قالت له إن ليلى موافقة. مع ذلك صعب على والدي أن يبتّ في اللحظة ذاتها. استمهلها ليفكر. قال لها "عطيني وقت" وتركته يفكّر. اوجس والدي، كما رُوي لي، من هذه الفكرة. لو تبع قلبه لما تركني، لو تبع قلبه لما كبرت بعيداً عنه. بدا له ولأمّي أن وجودي معهما سيربكهما بالتأكيد، وبقائي مع جدّتي فكرة سليمة. في كولومبيا نزلا في العاصمة بوغوتا حيث أخوه. عمل والدي مع أخيه لكن الشراكة كانت صعبة على الاثنين، والعمل لا يكفي لعائلتين. كانت عاقبة ذلك أن شكّ كل منهما بالآخر. كان قد مرّ عامان وهما يتربصان ببعضهما بعضاً. ثم انفجر الخلاف فصار لزاماً أن يفكا الشراكة. تركها أبي لأخيه وبحث عن دكان له. وجده وفي البداية كان مريحاً لكن والدتي كانت قد أنجبت علي، أي ألفونسو، وفريد، أي فريدي، وزينة وسالي.

كانت مضت ثمانية سنوات حينما قرّر والدي أن ينتقل إلى ميدلين.

ثماني سنوات لم تسنح لوالدي فرصة للتفكير في أمري. ثماني سنوات بقيا يراسلان جدّي ويرسلان إليهما مبالغ متفاوتة لنفقات تربيتي وتعليمي. مبالغ حفظتها جدّتي لي. لم تكن ميسورة وجدّي معلم العمار لم يعد عمله سهلاً خاصة وأن همّته ثقلت مع السنّ. لكن جدّتي المدبّرة كانت اقتصدت مبلغاً وورثت عن أهلها أرضاً وصارت بنفسها تزرع وترسل محصولها إلى الأسواق. لم تكن ميسورة لكنها، في ظني، لم ترد أن تنفق عليّ من مال أبي. أرادت أن تنفق هي عليّ لأغدو ابنها حقاً، ولأكون لها بكليتي. لكن الأمر لم يواتها دائماً. اراد والدي أن أتعلّم في مدرسة إنجيلية، وهذه تكلّف مالاً فمدّت يدها هذه المرة إلى مال أبي. ارادني والدي حينما نجحت أعماله في ميدلين أن أعيش كابن مهاجر، وهذه حياة فوق طاقة جدّي فاضطرت جدتي ايضاً إلى أن تمدّ يدها إلى مال أبي. لكن ابي صار يرسل مع نجاح أعماله مالاً كثيراً، مما جعل جدّتي تظل تحفظ لي مبلغاً ما. ولمّا صرت في مراهقتي أنفق كثيراً وجدتُ دائماً ما تعطيني إيّاه.

كنت في الثانية عشرة حين أرسل والدي يطلب أن ألتحق به في ميدلين. هذه المرة رفضت أنا وبعناد. لا أعرف دافعي لذلك. كنت آنذاك على عتبة المراهقة، بل كنت مراهقاً فقد بكّرت مراهقتي. الواحد في هذه السنّ ينتابه وسواس بكل شيء وفي كل شيء. يتساءل إذا كان أبوه حقّاً أباه، إذا كانت امّه حقّاً امّه. يقلق على مكانه في العائلة، يخشى أن لا يكون له مكان. يشك في حب ابويه وحب أخوته له. لا ينتبه إلى أنه يتغيّر، يظن أن العالم تغيّر حوله. يأكل كثيراً لكنه بالدرجة نفسها ينفق كثيراً من المشاعر والأفكار. يحلم ويفكر

بطاقة تسبقه دائماً وكأنما ركبت فيه آلة. يتشوش ويشعر بذنب أصلي، بخطأ أصلي فيه وفي العالم من حوله.

لم أكن في رعاية أبويّ. مرّت تسع سنوات وأنا لا أعرفهما. كان بيننا البريد وأشرطة التسجيل التي تملؤها أمّي وقلّما يتكلم أبي إلا في نهايتها. مع الوقت أصبحت متشابهة. أمّي لم تعد تبتكر. كان واضحاً أنها لم تعد تدري إلى من تتكلم، وأبي صار يحييني من بعيد كما يفعل جار يطل من شرفته. كنت خلال هذا الوقت استهلكت ذكرياتهما، استهلكت لومي الضمني لهما لأنهما تركاني خلفهما. استهلكت صورتيهما. أنا نفسي لم أعد أدري إلى من أتكلم. على كل حال صارت رسائلهما وأشرطتهما تتباعد، لقد قبلا وجودي بعيداً. لا أعرف إذا كان ما زالا يؤمنان بي. لا يعني هذا أنني صرت لغزاً، في الحقيقة لم أعد شيئاً. صارا بالنسبة إلي بحاجة إلى استدعاء. أنا نفسي لم أعد أؤمن بهما. ثم هؤلاء الأخوة الذين ولدوا هناك، أربعة لم أتنافس معهم. لم أتضارب، لم أشعر بغيرة اتجاههم. أين أضع نفسي بينهم. لا أعرف نفسي بالقياس لهم، ليس هناك أي مقياس. أنا البكر، أنا الأكبر. هل أنا حقاً الأكبر، وبالنسبة إلى من؟ بالنسبة إلى أشخاص غير موجودين إلا في الصورا يكبرون في الصور ويتحركون في الصور ويتكلمون في الصور. كنت وحدي ولا أحد بعدي.

في البداية كنت أنتظر الرسائل وأقرأها أكثر من مرة لتبقى كلها في رأسي. ثم صرت أمرّ عليها بعينيّ. أتصفّحها بسرعة والآن أقرأ منها سطوراً ولا أطيق أن أتمّها. تبقى الرسالة في الجارور أحياناً وقتاً وقد نسيتها هناك.

جدّتي تحبني لكني أعرف أنها ليست أمّي. لا أريدها ان تكون أمّي. لم ترضعني، لم يتصل جسدها بجسدي. جسدها لا يغذّيني، إنه بالنسبة إلي مثل أي جسد آخر. مثل جسد جدّي الذي يروق لي أكثر أن أدخل تحت عباءته أو جسد القطّة التي أحبّ ان اغلغل يدي في صوفها. تشدّني جدّتي إلى صدرها ويلتقط أنفي من جسدها روائح بعضها مزفر وأشعر أنها تطبق على انفاسي وأنها تشبه وجبة أسنانها التي أقرف من رؤيتها مركونة إلى جانب المغسلة، وأخشى أن ألمسها وكأنها عندئذٍ ستعضني. لم يكن جسدها ضرورياً لحياتي. لم ينفعني حتى في اللعب. جدّي كان يقذفني إلى الأعلى ويتلقاني بيديه، كان يقلب سحنته ويكشف أسنانه ويروح يهدر وينفخ في وجهي. خفت أوّل مرة لكني بعد ذلك صرت أضحك وأغرس أصابعي في أسنانه وأنفخ انا على سحنته. كان يمشي على أربع ويضعني فوق ظهره. جدّتي لم تكن رشيقة بحيث تقذفني إلى أعلى وتطالني بيديها. مؤخرتها الثقيلة والمرتفعة لا تسمح لها بذلك وبالطبع كانت أرصن من أن تمشي على أربع. اكتفت بأن تشدني إلى صدرها وتطبع وجهي فيه بحيث أغرق في رخاوته وأتنشق رائحة مزفرة. لو لم يكن جدّي مكرشاً وجسده متهدلاً لظننت أن التلافيف فقط في أجساد النساء. بقيت حتى بدء مراهقتي أكره الصدر وأحسبه مجوفاً من الداخل. إنه فقط لنعمى فيه ونفقد أنفاسنا.

٩

لا أذكر في أي سنّ بدأنا ألعاب التقليد. كنا حينذاك ممثلين صغاراً، نلعب حياة الكبار، بيوتهم، اعراسهم، أسواقهم، لم يكن لي بيت ولا عائلة لذا كنت أكره هذه الألعاب وأفضّل عليها لعبة الحرب. كانت الفتيات يخترنني عريساً، عيناي الزرقاوان تخدمانني لهذا الدور، لكني أتأبى وارفض أن أشاركهنّ المنصة والفراش. لم أكن عنيفاً ولا عدوانياً ولا أستغلّ لعبة الحرب لأمارس خشونتي لكنها حقيقية أكثر وأجمل من ألعاب العائلة. لم اكن عنيفاً ولا عدوانياً، ألعب فقط للّعب. أشفق على الحيوانات فلا أطاردها ولا أعذّبها وأدافع عنها ضدّ الأولاد الذين يتقصدون أذيّتها. جسمي الكبير يخدمني في المعارك لكني أتجنبها بقدر ما استطيع. أحامي فقط عن رفاقي الأضعف وغالباً ما يوفر وجودي إلى جانبهم معركة، جسمي الكبير يردع الخصوم عن أن يخوضوا معركة، ليس جسدي وحده، كانت سمعة جدتي "الساحرة" تردعهم أيضاً. يخافون أن يقاتلوا ولداً جدّته يمكن أن تحرقهم بنظرتها وحدها. أمّهاتهم تحذّرهم من أن يتصدوا لي. كنت محروساً من جدّتي، حتى الذين يعتبرونها ولية يقدرون أنها محمية من قوة فوق قدرتهم

وعلمهم. يعرفون أنها لا تؤذي، يرسلون أولادهم إليها لترقيهم أو تطببهم، لكنهم يعرفون أنها لن تسامح من يعتدي على ابنها، نعم ابنها، حتى الأولاد يظنونني ابنها. حتى أنا كنت أحياناً أناديها أمي، حينما أريد أن أتقرّب منها، أعرف أن هذا يسرّها. لا أريدها ان تكون امّي، لا أريد امّاً، اشعر أحياناً أن هذا امتياز لي، وحدي بين الأولاد لا أمّ لي. وحدي لي جدّة "ساحرة" أنا أدرى بسحرها. لقد سرقتني من أمّي وأبي، سرقتني منهما، لا أدري ماذا فعلت لهما، انا الآن اسيرها، أعيش في حبسها. سرقتني من أمّي وأمّي تبحث عني في البلدان، تستعين بالسحرة لكن سحر جدّتي يغلب. جدّتي اعظم ساحرة، أعتدّ بهذا ويخيفني في ذات الوقت. انا قوي. سحر جدّتي يحميني. لكن ماذا لو وقع سحرها عليّ. ماذا لو هربت منها ومن سحرها. ماذا لو وجدت امّي ساحراً أقوى منها. كنت أروي هذه الحكاية لي وأضعها لنفسي، أشرد بها لكني لا أصدّقها تماماً. اسمع صوتي جدّتي تطلب منّي أن أعود إلى البيت أول الغروب ولا اخاف وأبقى في الطريق بعد حلول الغروب. أراها نحيلة وقصيرة، صغيرة حتى بالنسبة إليّ، صغيرة جداً بالنسبة إلى جدّي فلا اخاف منها. لا أصدّق أنها ساحرة. أين خاتمها وفانوسها، أين تعويذتها. لا أقول لأحد أنها لا تملكها، الأولاد يخافون مني بسببها. ماذا لو ظنّوا أنني أنا ساحر ايضاً. ربما يظنونني كذلك، لو كنت اكبر لاعتبروني ساحراً وأنا لا قوّة لي. الناس تصدّق أي شيء. إنها ترقيني كل مساء. تضع راحتها على رأسي وترقيني. اسمع آيات من القرآن، لكن لها تمتمتها ايضاً. هل هذه تعويذتها السحرية. أنام ولا أشعر بشيء. هل أغدو شخصاً آخر في نومي، هل

أغدو في نومي غولاً أو حيواناً ضارياً. هل أرحل في نومي إلى جزر وجبال عجيبة. أنهض من نومي كما أنا، أستيقظ نفس الشخص، اين سحر جدّتي؟ لو كانت أمّي جنبي لسألتها، لكني لن اكتب لها أسألها عن هذا السحر. نحن نقول أشياء لا نكتبها. أشياء لا تكتب ولا كلام لها في الكتابة، وبمجرد كتابتها تختفي. "لكن جدّتي ربما سرقتني من امّي. ربما أنا معها الآن في جزيرة الواق واق. ربما أنا معها في الجبل العجيب. ربما أنا ابن الملك، ربما أنا الفارس، ربما أنا التمثال. ربما هذا هو سحر جدّتي، أن لا اعرف نفسي، أن أكون ابن الملك ولا أعرف نفسي، أن أكون التمثال وأحسب نفسي حيّاً متحرّكاً، أن تكون امّي الملكة المطرودة وأحسبها في كولومبيا، أن يكون إخوتي مسروقين ومشرّدين في البلدان ولا أعرف. ربما نحن جميعاً مسحورون ولا نعرف". استمرّ اروي الحكاية لي، أؤلّفها لنفسي. اشرد بها لكني لا أصدّقها تماماً.

١٠

ذهبت إلى المعلم يوسف الذي دلّتني عليه صبحية لإعادة تركيب الزجاج الذي تحطّم في البيت. كان محله في أول الساحة. أرض عارية ويضع ألواح زجاج مسندة إلى الحائط وقساطل مرفوعة على الحائط المقابل وطاولة من خشب سميك في المدخل وسلّم يؤدي إلى سدّة في الأعلى. كان المعلم نحيلاً قصيراً، رأسه الصغير يزيد في الشعور بضآلته لكنه يرتدي نظارات وقلّما نجد في البلدة من يضع نظارات على عينيه. ليس سوى الذين يضعونها منذ طفولتهم لأنهم لا يهتدون بدونها. المعلم يوسف الذي انتبه إلى أنني لاحظتها ثبّتها بيده وقال، ليس بدون اعتداد، إنها نظارات للقراءة. سألته ماذا يقرأ.

– أنت ما بتعرفني. أنا ما بقرا أيّا شي. عندي صندوقة كتب قديمة اشتريتها من واحد لقاها ببناية محروقة. قال كانت بهونيك شقة. غطست فيها. هي كتب قديمة، قديمة كتير، فيها أسرار وعلم روحاني. كتب بتدلّك عَ الكون. إنت ابن الحاجة هدية. كانت تعرف كل الأسرار. ما كان يخفاها شي. بتكون أكيد قرْيِتها. بتكون شافتها بالكتب.

- ما بعرف. ما كان عندنا كتب بالبيت. ما شفتها عم تقرا.

- بتكون إجتها ربّاني. إجاها وحي. أنا كمان بحسّ بأشيا غريبة. ما بدّي قولها. هيه أسرار ولازم تظل أسرار.

لم تكن لي رغبة بان أعرف أسرار المعلم يوسف، لم أسأل عنها. لكن المعلم استمرّ يقدح في غباوة الناس الذين يأتون إلى محله ليركّبوا زجاجاً ظانين أنه ليس سوى معلم زجاج، ولا يخطر لهم بالطبع أنه رجل انكشفت له الأسرار، ولا يعرفون أن علمه يتخطاهم جميعاً، وأن ما عنده كثير عليهم، وأنه مختلف، جد مختلف، عنهم. تركته يتكلم. كان يريدني أن أعلم أنه متفوق وأن الناس بالقياس إليه جهلة بل حمقى. كان الرجل القصير النحيل الصغير الرأس يجتهد ليريني، أنا ابن الحاجة هدية، كم هو متميّز، و لم أكن مهتماً. في هذا البلد لا يكفّ الناس عن الكلام عن شطارتهم وقدرتهم على اللعب بعقول الباقين. اللبنانيون بهوارون في العادة ويحبون أن يرووا كم هم قادرون على خداع الآخرين. وهذا الرجل يحاول أن يوحي لي أنه يكلّم الملائكة ويتصل بالأرواح. لذا لم أشأ أن أتركه يسترسل. قلت له:

- المهم تكون شاطر بتركيب القزاز. هيه بدها صنايعي مش ساحر.

ذكرت للمعلم يوسف أنني أقصده لإعادة تركيب زجاج النوافذ الذي وجدته محطماً. قال إنه سمع بذلك، يقولون إن العفاريت التي كانت مربوطة بفعل سحر جدتي الحاجة تحرّرت يوم وفاتها وانطلقت تحطم المكان. كانت هذه رواية أخرى.

١١

صبحية على الباب ومعها عبد الكريم. على شفتيها روج خفيف، مسحت قليلاً من البودرة على خديها، ومرّت بالكحل على رموشها. كان مكياجاً سريعاً لكن الفستان الأزرق الذي ارتدته كان مشدوداً على صدرها وخصرها بحيث بدا طولها مسحوباً وممشوقاً. وجهها البيضوي الطويل ظهر مرتفعاً ومشرقاً من فوق كتفيها. قالت إنها جاءت لترى إذا كان البيت بحاجة إلى ترتيب. صحيح لم يمرّ سوى يوم واحد على تنظيفه لكن البيوت تتسخ بسرعة والرجال غير حريصين. عبرت إلى الداخل وتركتني واقفاً. لحقها عبد الكريم لكنه ما لبث أن رجع. اعطيته الفي ليرة فوضعهما في جيبه بسرعة وحاول أن يقول شيئاً لكنه لم يجد كلمة فانطلق راكضاً إلى الخارج. اختفت صبحية في الداخل. لم أسمع صوتاً وحين كانت تحرّك الكنبات الضخمة وصل إليّ من هناك حسّ خافت همد بسرعة. بقيت أنا في غرفتي أتصفح ألبوماً وجدته متبقياً فيها: صورتي في الشهر السادس بوجه مستدير مرفوع عن الأرض التي رقدت فوقها على بطني، صورتي في الثانية إلى جانب قفص ببغاء

المصور، صورتي تحت الشجرة. كانت الصور صغيرة وكل ما فيها نحيل حتى الشجرة كأن هذا من فعل الكاميرا. كأن الزمن بكل ما فيه كان نحيلاً وصغيراً. أنظر إلى صورتي مستنداً إلى حائط، أشعر ان الرائحة تغيرت وأسمع من فوقي:

- هذا إنت أكيد!

وارفع رأسي فأرى صبحية تنظر إلى الصورة من أعلى. أفسح لها لتراها جيداً:

- هذا أنا بعمر الأربع سنين.

- يه شو كنت حلو (ترمقني بنظرة خاطفة تستردها بسرعة) وبعدك، اسم الله عليك، بعدك حلو.

- هلّق ختيرت يا صبحية. ما عاد زماننا يا صبحية. هيذا زمنكم إنتو، إنتو الحلوين والشباب.

- ما تقول هيك، ما بيسوا تقول هيك. اسم الله عليك، هلّق إنت بعزّك. رجّال بصحيح.

- نطيت فوق الخمسين وبتقولي شباب. خلص يا صبحية خلص.

- الشبّ هوي اللي جوّاتو شبّ، فيه ناس بيخلقوا ختيارية، في ناس بيظلوا شباب لآخر يوم. الشباب روح، الشباب أخلاق وإحساس. فيه ناس كلبانين عَ الدنيا ما بيعيشوا دقيقة شباب.

كانت صبحية مفاجئة. من أين جاءت بهذه اللغة، الشباب في داخل الإنسان، الشباب روح. جاءتها بالتأكيد من السينما والتلفزيون. الناس يتربون الآن على المسلسلات والأفلام. ماذا تعني في الحقيقة هذه الكلمات لها، لكن المفاجأة كانت:

– عمتقول منين جبت هـ الحكي. بتفكر إني جبتو من المسلسلات، بتقول هذا حكي تلفزيون. أكيد مش أنا أول واحدة قالتو، بس أنا عايشتو. شكيب كان شبّ من عمري. بس شو نفعني. الجسم بدو بس الروح بدها، بدها حنان واحترام وحب، إيه حب، فيه ناس ما بيقدروا يحبّوا، شو خصّ العمر. خصّ القلب.

أثناء كلامها كنت مطرقاً وكلماتها تصل وحدها إلى سمعي. في البداية سمعت تفصحاً وديباجة جاهزة. كنت كمن يسمع الراديو. لكن كلامها إلي بدا أنه يجاوب على أفكاري، سبقني كثيراً. لقد كشفني بسرعة، اشتبك كلامها بحياتها وتجربتها. صار جوانياً. صار كلامها هي. بقيت مطرقاً وأطراقي تحول إلى حيرة وإلى نوع من الخجل بنفسي. مدّت يدها ورفعت رأسي، قالت لي:

– اتطلع فيي. حاجي عم تقرا الأرض. أنا جنبك وعم بحكي معك. اتطلع فيي.

حين رفعت رأسي إليها وجدتها تنظر إليّ. كانت تحيطني بعينيها. نظرتها لا تتفرس بي ولكن تشملني. نظرة ببريق مكسور وفاتر لكنها تغمرني، وفي انعكاسها درجة من المواساة. أحببتني هذه النظرة. جعلتني تماماً أمام صبحية. كنت هكذا موجوداً داخلها. كانت تضفي عليّ من نفسها وتحملني في صوتها وفي عينيها. كنا الآن واقفين قبالة بعضنا البعض. تبادلنا نظرة طويلة لم يجسر أحدنا على قطعها لكنها تحولت مع استمرارها حرجاً. كانت نظرة تسبق الوقت والنوايا ولم نعرف ماذا نفعل بها وكيف نخرج منها. خفضت رأسها وتبعتها فخفضتُ رأسي. وحينها استعادت مبادرتها. قالت إنها خارجة. مددت يدي

إليها بعشرين ألف ليرة. جفلت أمامها وتراجعت ثم أطبقت بيدها على يدي لتغلقها عليها. وتردّها معها.

– ما اشتغلت شي، من فوق لفوق، جيت بس طلّ عليك. مش كل شي بالمال.

١٢

نزلنا إلى بيروت، إلى مرفأ بيروت لوداع أبي وأمّي، أنا وجدّي وجدّتي، طوال الطريق في السيارة. كنت أرى الأشياء تتقدّم بسرعة نحوي لتختفي ما أن أصير بمحاذاتها، كان الوداع بالنسبة إلي هو هذه اللعبة. رأيت جدّتي وأمّي تبكيان في الصباح الباكر. فهمت أنهم ألبسوني ثياباً جديدة هذا الصباح ليحبوني اكثر، كانت هذه مناسبة لنحبّ بعضنا اكثر. بدا لي أنهم يريدونني ان ابكي، وبالفعل بكيت وكلما شعرت أن بكائي يجعلهم يحتضنونني أكثر استرسلت في البكاء. كنت أجد أنهم هكذا يريدونني أن افعل وكنت أرضيهم ببكائي لكنني ما أن صعدت معهم إلى السيارة حتى شردت في المناظر التي تهجم عليّ وتختفي. لم أعد أسمع نهنهة أمّي وجدتي وانا اودّع الأشجار والروابي والقرى لكن اللحظة بقيت بالنسبة إليّ هي نفسها، لحظة متألقة ساطعة مثل الشمس التي كشحت الغيوم الخريفية فقد كنا في تشرين الثاني. في المرفأ كانت اللحظة الملكية لا تزال مستمرة. بدأت تمطر على البحر. كان المشط السماوي الشاسع ينزل ويصعد خفيفاً على الرقعة الزرقاء. كانت اللحظتان تحدثان في الوقت ذاته.

لقاء ووداع معاً. حتى الآن أمثل الوداع بمساحة زرقاء، يجعلني المطر على البحر لا افكر بسواه. كانت الباخرة، القصر العائم الذي رأيته للمرة الأولى في حياتي هي المكان العجائبي لهذه اللعبة. حين تعانقت أمّي وجدّتي وارتفع نشيجهما شعرت أنّ عليّ ان أصاحبهما بالبكاء. ما أن حدث ذلك حتى توقف بكاء أمي وجدّتي بعد أن احتدّ للحظة وجاءتا معاً إليّ وأحاطتاني. لم أعرف لماذا استمررت ابكي مع ان هذه كانت سعادتي الكبرى. حين صعدت أمّي وأبي إلى المركب، كنت أعرف أنني لن اصعد معهما، لم أحاول و لم أفهم لماذا بقيا يلوّحان من على سطح المركب للناس الذين اجتمعوا على الرصيف. لكني بدأت أحلم بالداخل العجائبي للباخرة. ما دام أبواي فيها فأنا فيها وبوسعي هكذا أن أغامر في داخلها. لم أكن حتى هذه اللحظة انفصلت عن أبويّ لكنني وأنا عائد مع جدّي في السيارة شعرت بهذا الانفصال. لقد انسلخت عن أبويّ وصرت خارجهما. لم تكن علاقتي بجدّي اقل من علاقتي بابويّ لكنني لا أشعر انني متصل بهما. حين عدت كنت صرت، بمعنى ما، مع نفسي وحدها. شعرت بهذا بشكل غامض بالطبع، كان شعوراً لست مستعداً له. كان لجدّي دور مكمل في حياتي، استاء من والديّ فاذهب إليهما، أحتاج لأن أكون محبوباً فاذهب إلى جدّتي، اريد أن ألعب بحرية فأذهب إليها ولا أبالي بصراخها قدر ما أبالي بصراخ أمّي. أفرقع عندها وأضحك إذ أجدها تصرخ. كنت في بيتي أعرف متى أخطئ ولا أعرف، أو أتجاهل، في بيت جدّتي. الآن صرت مسؤولاً مباشرة أمامها. كانت الأمور تبدو لي غير مفهومة أن أعيش وألعب وأتسلى في بيت واحد.

١٣

كانت رسائل والدي قليلة لكن أجوبة جدّي كانت أقل. جدتي تحمل كل رسالة إليّ وتريني اسمي مكتوباً في كعب الصفحة "جلال". ثم أحضرت لي كتاب رسائل وطلبت مني أن أنقل واحدة. "والديّ الحبيبين، أقبّل أيديكما...". لم يكن خبر ولادة ألفونسو بالأهمية التي استدعت إرسال برقية من بوغوتا. أنا لم أعرف شعوري لكن والديّ هكذا ابتعدا أكثر، قليلاً جداً لكن أكثر. في الحقيقة دخلا في الظل. لم تعد صورتهما وهما يلوّحان من على ظهر المركب ساطعة، انكسفت وصارت هي الأخرى في الظل. لم يعنِ لي شيئاً أنني صرت أخاً، أحسست في الحقيقة بشيء من الخيانة. لم يسافر والديّ ليجعلاني أخاً، كأنما كذبا عليّ. بعد قليل وصلتنا صورة ألفونسو. قالا في الرسالة إنه يشبهني كثيراً. أرادا أن لا أحس بأنه منافس لي. أنا لم أحسّ. لم أحسّ أيضاً أني ولدت ثانيةً في بوغوتا. ابن عمي علي يشبهني، الجميع يقولون ذلك، لكننا مع ذلك نتغالب، أغلبه ويغلبني. لا أشعر أنني ألعب مع نفسي ولا أعرف كيف يشبه واحد شخصاً آخر. لم أستطع بالخيال أن أتجوّل في بوغوتا، رغم أنني في سرحاني الطويل حاولت أن أتقصّد

ذلك. كنت دائماً أصل إلى الظل وأتوقف. رغم أن أسماء المدن كانت بالنسبة إليّ أساطير ويكفي أن أسمع اسم مدينة لأزورها. بوغوتا كانت اسماً مناسباً لكني بسرعة وصلت إلى الظل الذي كان اسمه ألفونسو وتوقفت. حين ولدت ليلى، كنت في السادسة. لاحظت أن جدّتي ليست سعيدة وهي تنقل الخبر إليّ. بعد ذلك سمعتها تقول لجارتنا أم أمين إن الطفلة ولدت بقلب مثقوب. وهذه المرة شعرت أنني فعلاً أخ وفكرت طويلاً بأختي ذات القلب المثقوب. كان هذا امتيازاً لي. لكني مع ذلك لم افهم حزن جدّتي حين جاء خبرها. قالت لي جدّتي إن عليّ ان اكتب رسالة مواساة إلى أمّي. كنت بدأت مراسلة والديّ، رسالة مواساة، هذا فوق تصوّري. زاد الظل ولم أعرف ماذا أكتب. فكّرت بكتاب الرسائل الذي كان بين أغراض جدّتي. جلبته وفتحت على رسائل التعزية. بدأت أنقل رسالة في تعزية صديق "سيّدي، أأسف أشدّ الأسف للخطب الذي ألّم بك...".

١٤

كان جدّي بالنسبة إليّ هو زوج جدّتي. لقد عاش طفولته كما أظن في رفقة الأحجار السوداء في عكار. كان يعود بحجر منها كلما سافر إلى قريته "الحاج طه" ويتركها وقتاً على الأريكة في غرفة نومه هو وجدّتي. كان الحجر يبقى وقتاً ولمّا أبدأ بالتعوّد عليه بل والتسلّل إلى الغرفة للمسه يختفي. في القرية عمر من هذه الحجارة مع أصحابه نصباً كبيراً رصّوه حجراً حجراً وكان بارزاً من حقل على الطريق وبقي هكذا سنيناً ثم عاد في يوم من "الحاج طه" متضايقاً وقال إن النصب الذي يشبه الفزاعة اختفى من الحقل، والحقل امتلأ بالطيور بعد اختفائه.

كنت سمعت وأنا بعيد أن جدّي في السنوات الأخيرة من حياته بدأ يحضر كثيراً من هذه الأحجار ويصنع منها رؤوساً وأشخاصاً وحتى حيوانات. عاد أحد أقاربه من أستراليا ولا يعرف أحد كيف صار فيها نحاتاً، إذ لم تكن هناك قبل سفره أيّ إمارات على أنه سيصير هكذا. طالب العكوم عاد يقولب الطين وينجر الخشب ويثقب الحجارة. لم يكن طالب بارعاً لكنه ينفق وقتاً كبيراً في هذه التسلية ويُري جدّي

ذلك. كنت دائماً أصل إلى الظل وأتوقف. رغم أن أسماء المدن كانت بالنسبة إليّ أساطير ويكفي أن أسمع اسم مدينة لأزورها. بوغوتا كانت اسماً مناسباً لكني بسرعة وصلت إلى الظل الذي كان اسمه ألفونسو وتوقفت. حين ولدت ليلى. كنت في السادسة. لاحظت أن جدّتي ليست سعيدة وهي تنقل الخبر إليّ. بعد ذلك سمعتها تقول لجارتنا أم أمين إن الطفلة ولدت بقلب مثقوب. وهذه المرة شعرت أنني فعلاً أخ وفكرت طويلاً بأختي ذات القلب المثقوب. كان هذا امتيازاً لي. لكني مع ذلك لم افهم حزن جدّتي حين جاء خبرها. قالت لي جدّتي إن عليّ أن أكتب رسالة مواساة إلى أمّي. كنت بدأت مراسلة والديّ، رسالة مواساة، هذا فوق تصوّري. زاد الظل و لم أعرف ماذا أكتب. فكّرت بكتاب الرسائل الذي كان بين أغراض جدّتي. جلبته وفتحت على رسائل التعزية. بدأت أنقل رسالة في تعزية صديق "سيّدي، آسف أشدّ الأسف للخطب الذي ألمّ بك...".

١٤

كان جدّي بالنسبة إليّ هو زوج جدّتي. لقد عاش طفولته كما أظن في رفقة الأحجار السوداء في عكار. كان يعود بحجر منها كلما سافر إلى قريته "الحاج طه" ويتركها وقتاً على الأريكة في غرفة نومه هو وجدّتي. كان الحجر يبقى وقتاً ولمّا أبدأ بالتعوّد عليه بل والتسلّل إلى الغرفة للمسه يختفي. في القرية عمر من هذه الحجارة مع أصحابه نصباً كبيراً رصّوه حجراً حجراً وكان بارزاً من حقل على الطريق وبقي هكذا سنيناً ثم عاد في يوم من "الحاج طه" متضايقاً وقال إن النصب الذي يشبه الفزاعة اختفى من الحقل، والحقل امتلأ بالطيور بعد اختفائه.

كنت سمعت وأنا بعيد أن جدّي في السنوات الأخيرة من حياته بدأ يحضر كثيراً من هذه الأحجار ويصنع منها رؤوساً وأشخاصاً وحتى حيوانات. عاد أحد أقاربه من أستراليا ولا يعرف أحد كيف صار فيها نحاتاً، إذ لم تكن هناك قبل سفره أيّ إمارات على انه سيصير هكذا. طالب العكوم عاد يقولب الطين وينجر الخشب ويثقب الحجارة. لم يكن طالب بارعاً لكنه ينفق وقتاً كبيراً في هذه التسلية ويُري جدّي

فارس كلّما زاره وهو صار ينزل إلى بيروت ليراه أكثر من مرة في الأسبوع. سمعت أن عمل طالب الذي لا يحتاج إلى كثير من البراعة شجّع جدّي على أن يقوم به بنفسه، فهو في طفولته كان يصنع من الحجارة شيئاً قريباً، و لم يكن عليه سوى أن يشتري عدة بسيطة "مثقب وإزميل ومطرقة..." ويبدأ العمل. ما كان يهمّه أولاً تلك الحجارة السوداء التي طالما قلبها بيديه في طفولته وطالما سحره سوادها الداكن الخشن. طالما فكّر أن شيئاً ما يمكن أن يخرج من هذه الحجارة وها هو يجده.

فتشت في البيت. وجدت صبحية صفّت على رفّ في المطبخ ما وجدته في البيت من منحوتات جدّي، رأيتها جميعها سليمة لم تتعرض لتحطيم. صلابة الحجر حمتها لكن الذي حماها أكثر، كما أظن، سوادها، فهؤلاء الذين حطّموا البيت قدّروا في الغالب أن سوادها يكفيها عقاباً لها. أظن أيضاً أنهم خافوا منها، لقد جاؤوا إلى البيت ليطردوا لعنة لم يكونوا شديدي الاقتناع بوجودها، لكن المنحوتات السوداء كانت بالنسبة إليهم اللعنة ذاتها، لذا تركوها كما هي لئلاّ تطاردهم حتى بيوتهم وتنتقم منهم في أيّ مكان.

رأيت على الرف بضعة أجسام مديدة رفيعة. كانت، حين تمعّنت فيها، ديداناً عملاقة. كان هناك أيضاً حدّ رقيق حينما تأمّلته بدا هيكلاً طويلاً لفأر. كتلة مسننة تشبه خلداً، لم افهم لماذا خطر لجدّي أن ينحت مخلوقات تعيش في باطن الأرض. تخيّلت أن جدّي الصموت كان يحمل أشياء مثلها في داخله، لربما أخرجها من نفسه. على الرف أيضاً رؤوس مثلثة في معظمها. هكذا كانت قادرة على أن تستقر فوق

الرف. رؤوس لرجال ونساء، السواد الذي غشي ملامحهم جعلها غامضة. لكنني تمعّنت فيها لأجد أنها جميعها بلا أفواه. كانت لها عيون كبيرة مفتوحة وأنوف ضخمة لكنها بلا أفواه. فكرت بجدّي الصامت. قلت في نفسي لقد تكلّم أخيراً، كان عليه أن يشق لوجوهه فماً ولو في صدورها.

على الرف أيضاً مخلوقات مديدة خيطية مليئة بكتل صغيرة على طولها. كان في هذه المخلوقات ما يذكّر من بعيد بجياكوميتي الذي لا أظن أن جدّي عرفه.

كل المنحوتات لم تكن كاملة. بقي جزء منها خاماً خشناً. تذكرت أن هنري مور قال عن عذراء روندانيني لميكال أنج ان المنحوتات ينبغي ان تشتمل على أجزاء غير ناجزة. منحوتات جدّي كانت بكاملها غير ناجزة. ما فعله هو ان اعاد الحجارة السوداء إلى أشكال. إننا نرى فقط أحجاراً سوداء. عدت لأرى المنحوتات على الرف فلم اجد إلا أحجاراً سوداء. كان ينبغي التمعّن لنرى الديدان والرؤوس والأجساد، في الحقيقة نحن نخترعها. إنه تقريباً خداع أعيننا. ما فعله جدّي هو أنه سوّى الحجر. كلّمه، وأزال ما رآه زوائد فيه. صار هكذا حجراً حقيقياً.

قرّرت أن أزور طالب العكوم فهو ما زال على قيد الحياة، كان رقم تلفونه بارزاً على واحدة من أوراق جدّي. حينما تلفنت له سمعت صوتاً مشروخاً يسأل من المتكلم. قلت له إنني حفيد فارس العكوم وعلمت بصداقتهما واريد أن أراه. لم يبدُ لي أنه رحّب بل خيّل لي أنه وافق على مضض. لم أهتدِ بسهولة إلى البناية رغم أنها كانت

طوال الوقت تحت عيني. كانت بناية قديمة ظننتها مهجورة، نوافذها مغلقة بإحكام ودرابزين شرفاتها مطعّج ومخلّع، في حين يوحي العراء والصمت فيها بأن أحداً لم يخطُ فيها منذ زمن. كانت بلا مصعد وعليّ أن أصعد على قدميّ إلى الطابق الرابع. على الباب عجوز نحيل وقصير يلفّ عنقه بشال صوفي ويعتمر "قلبكاً" أسود ويرتدي تحت سترته الرمادية كنزة صوفية. هذا من رهاب البرد فقد كنا في أواسط الخريف، في تشرين الثاني، و لم يبرد الطقس بعد. احترت طويلاً قبل أن أقرّر أن ألبس سترة صيفية ووصلت إلى الطابق الرابع وسترتي على يدي فقد حمي جسمي من الصعود واضطررت إلى خلعها. كان الصالون مليئاً بمنحوتات خشبية تمثل نساء متشابهات إلى حد بعيد كما لو أنها فروض مدرسية. شعرت أنها تغتصب الخشب وتعتدي عليه. كان أجمل لو بقي الخشب على حاله. هذا الحفر يحصل ضد المادة وغصباً عنها. شعرت أن الخشب مفغور مثقوب. لكنني لم أشعر كما شعرت أمام حجارة جدّي بأن الحجر يعود هكذا إلى نفسه وتتأكد حقيقته.

لم أجد نفسي أمام موهبة مغمورة وطارت الأسئلة التي خامرتني قبل أن آتي. لم تكن تلك هي الموهبة المغمورة التي وعدت نفسي بها، بل هواية متقاعدين لا أكثر. مع ذلك سألته عن جدّي و لم يجب بل حدّثني طويلاً عن نفسه. كان مستاءً من أن جدّي زاول النحت. لم يكن هذا من حقه كأنما سرق هذه المهنة منه، ليس النحت له، لقد سرقه منه. لم يعنِ سوى هذا وهو يقول أن جدّي كان يزوره ليتعلم منه. قال إنه في البداية رحّب بزيارة قريبه لكنه في النهاية فهم أنه لا يزوره حباً له بل لغاية في نفسه. لقد استقبله في بيته لكنه جاء إليه ليختلس فنه.

لم يكن جدّي بالنسبة إليه سوى لصّ سرقه أمام عينيه.

سألته إذا رأى منحوتات جدّي فقال وهو ينفض يديه إنه لم يرَها. لكنهم اخبروه انه ينحت، عندئذٍ فهم مقاصد جدّي من زيارته. مع ذلك ظلّ بابه مفتوحاً له. لم يغلقه في وجهه رغم أنه لم يحترم ضيافته. لم يقل إنه خانه. لم تكن هذه كلمته، لكنه ظلّ يقول إن جدّي الذي احسن هو إليه جازاه جزاءً سيئاً. كان يتوجّس من أنني ربما جئت للغرض نفسه وأنه قد يتعرّض للسرقة مرة أخرى، ظلّ مرتاباً رغم أني أكّدت له انني لا أنحت ولا أنوي أن أنحت. احسست أنه يراقبني ويسرع إلى جنبي كلما رآني تناولت تمثالاً لأمعّن فيه.

حاولت عبثاً أن افهمه أن جدّي ليس لصاً وان التعلّم ليس سرقة. ظلّ يسمعني بدون أن يعير اهتماماً لكلامي وبدون أن يتكلّف حتى مناقشته. إنها مسؤوليتي تجاه جدّي لذا لم أسكت حتى انهيت دفاعي، أنهيته بسرعة لأني لاحظت أنه لا يكترث.

قاطعني فجأةً، أشار إليّ ان أتبعه واتّجه إلى باب في البيت قرعه فسمعنا من الداخل صوتاً نسائياً يقول "استنّى". انتظرنا دقائق وانفتح الباب. كانت تقف امرأة ضخمة ارتدت عباءة منزلية زرقاء مطرّزة في أعلاها، وما زالت تعقد بيديها منديلاً على رأسها. رحّبت بي "اهلا وسهلا" وأخلت الباب متوجهةً صوب ما بدا لي أنه المطبخ. دخلنا إلى غرفة فيها سرير واضح أنه وضب بسرعة وتبعت طالب إلى أسكملة عليها لامبادير وجنبه حجر أسود حفر فيه وجه نسائي، تراءى أنه يشبه جدّتي. لم يكن متقناً إذ الحفر فيه يشبه الرسم بالازميل. لكن فيه هذا الشغف الكبير بالحجر الذي شاهدته في تماثيل جدّي. تركني أتناول

التمثال وأتحسسه بيدي. كان الوجه رقيقاً يضفي شيئاً من اللطف على الحجر الكامد الخشن. استطاع النحات بذلك أن يمنحه بعض الشفافية فالوجه بدا وكأنه منحوت تحت نقاب غير مرئي. تطلعت إلى المنحوتة واعدتها إلى مكانها على الأسكملة. لم يقل طالب شيئاً وأنا ابتلعت السؤال الذي غلى على قلبي.

عدنا إلى الصالون وما أن جلسنا حتى بدأ طالب حديثاً آخر عن جدّي. قال هذه المرة إنه كان يأنس به كلما زاره وينتظره من زيارة إلى زيارة، ثم قال الكلمة التي لم يكن إلى الآن قد لفظها، قال عنه إنه موهوب. موهوب حقاً، لكنه للأسف لم يتعلّم.

خرجت المرأة من المطبخ وعلى يديها صينية فوقها فنجانا قهوة وسكرية جنبهما. قدّمت لنا القهوة وتركتني أضع المقدار الذي اريده من السكر في الفنجان. طالب لم يضف سكراً إلى فنجانه وجلسنا نرشف قهوتنا. فجأة سألني إذا أعجبني التمثال وسألته أيّها فهي كثيرة. قال لي: التمثال الأسود. داهمني مجدداً السؤال نفسه عن التمثال، هل هو لجدّي لكني عدت وابتلعته. وهو لم يقل شيئاً. وجاءت المرأة من المطبخ حاملةً فنجانها وجلست معنا. بدت أكثر ضخامةً وهي على الكنبة، وتراءى لي أن النور نقص في الغرفة. وضعت الفنجان على منضدة جنبها وتوجهت فوراً إلى زوجها:

– أخذتو تفرجيه التمثال. مش أحسن تشيلو من الأوضة وتحطو بالصالون؟

مرة أخرى عاودني السؤال. هذه المرة قلته، سألت طالب:

– حجر اسود متل تماثيل جدّي. إنت عاملو؟

طالب، كأنما لم يسمع السؤال، بقي صامتاً، زوجته التي سمعتني اذكر جدّي سألتني من يكون ولما قلت لها إنه فارس العكوم قالت:

- فارس. الله يرحمو شو كان لطيف.

١٥

كنت وجدّي مخلصين لجدّتي. مطيعين بالأحرى لها، ننتظر كلمتها لنعرف ما علينا أن نفعله. في الحقيقة لم تكن لنا كلمة. كنا الاثنين نحتار كثيراً ونريد أن تكون كلمتنا حاسمة وكاملة ولا تقبل خطأ. في أي موضوع، حتى في لائحة الطعام، كان علينا أن نقدح فكرنا لكي لا نخطئ. كانت الخيارات تبدو متوازنة ومتساوية لنا إلى درجة تعمينا عنها وتصدع رؤوسنا. كنا الاثنين متشابهين من هذه الناحية، نتعب كثيراً لنصل إلى قرار نهائي وأكيد. لا نملك القدرة على أن نخلص الأمور من بعضها ووزنها بدقة والمفاضلة بينها بدون أي انحياز. كنا نخلط بعد وقت ونضيع ونحتاج إلى من يملي علينا. نحتاج إلى قرار من أعلى، إلى شخص لا يعتبر بالخيارات، يراها بسرعة في أحجامها الحقيقية ويزنها فوراً ويفاضل بينها بمجرد أن تخطر له. تلك موهبة ليس لها وجود إلا عند الأشخاص الذين لا طاقة لهم على التفكير الطويل. يريدون أن يصلوا بسرعة إلى قرار. إنهم أشخاص لا يغرّهم التفكير ولا يغدو لهم هدفاً بحدّ ذاته، أشخاص لا ينبشون جذور الأشياء ولا يحاولون الوصول إلى أصلها. أشخاص لا يخرسون أمام

الحرية ولا يفرطون في تمجيدها إلى درجة عدم ممارستها. أشخاص لا يخافون من الخيارات إلى درجة العجز عن المفاضلة بينها. جدّتي لم تكن تملي علينا كلمتها، كانت تطلب منا أن نفكر أولاً وتتضايق حين نستعجل قرارها. تتضايق حين لا نرى الفرق الواضح بين أمرين. في البداية كانت تقول لنا: حكّا دماغيكما قليلاً، الأمر واضح حتى للولد الصغير. تشرح لنا الفروق كما تراها، ونحن نسمع، لكننا سرعان ما نخلط الأمور. نكتشف فروقاً أخرى ونجد مشابهات لم تلحظها. كان هذا يجعلها تضيع بيننا وتختلط عليها الأمور. لما تكن غير معتادة على ذلك تظن أنه الجنون وتخشى من أن تكون فقدت عقلها، فتغضب وتطردنا من أمامها قائلةً مرة واحدة: افعلوا هكذا.

لا تخشى جدّتي من مخالفتها. تغضب حين ترانا لا نصل إلى رأي. تغضب وتوبّخنا لكنها تقول لنا أخيراً ماذا نفعل. تمشي أمامنا وتسخر من ذكرين اثنين لا يساويان امرأة وتقول افعلا كذا. بالطبع نكون نحن قد قلّبنا الأمر مراراً وقلّبنا الخيار نفسه الذي اقترحته علينا رأساً إلى عقب وعقباً إلى رأس ولفرط ما تدارسناه لم نعد نراه جيداً. لم يتحمل أحد مسؤولية اعتماده أو اعتماد غيره، فثمة أمام كل خيار كومة من الأخطاء لا يريد أيّ منا أن يأخذها على عاتقه. ثمة ثغرات في كل شيء مما يجعلنا لا نقدم على شيء.

كنا دائماً معاً أنا وجدّي لأن جدّتي أرادتنا دائماً معاً. أرادت أن أتربّى بين الكبار لأنشأ من البداية كبيراً. بالطبع لم يعترض جدّي وهكذا صرنا دائماً مترافقين. أذهب إلى جدّي من الصباح وأسأله إلى أين نذهب، الساحة أم النهر أم البساتين أم النبع أم النبطية حيث

نحضر فيلماً أم نبقى في البيت نلعب بالورق مع جدّتي أم نزور في القلاع، الأرض الوعرة الملأى بالصخور، عاطف النعيم الذي عاد إلى البلدة واستأجر فيها بستان تفاح زرع جانباً منه خضاراً وأقام في غرفتين استأجرهما أيضاً على مقربة من أرضه، أم نتمشى إلى الصعبية المجاورة فنزور أبو علي أيوب شاعر القرية وزجّالها. خيارات القرية قليلة وغالباً ما تكون متقاربة. لكن جدّتي تختار مع ذلك وتجد فروقاً، وإذا أصررت أنا على الذهاب إلى عند عاطف النعيم وآثرته على زيارة أبو علي أيوب فإن جدّتي لا تمانع لكننا لا نجد عاطف النعيم في بيته ولا بستانه. وإذا أصررت على النزول إلى النهر وجدناه صار بعد مرور القطيع عليه وسخاً وعكراً وضفّته ملأى بالروث. كانت جدّتي قادرة على أن تجد بسرعة الفرق الذي يبدو لنا من بعيد ضعيفاً وباهتاً لكنه في لحظتها الفرق الأساسي، إن لم يكن الوحيد. لم يكن راسها مثل رأسي ورأس جدّي مشوشاً بحسابات سرعان ما تختلط ونعجز عن التمييز بينها. كانت تجد دائماً شيئاً لا يضيع في الحسابات ويمكن فرزه ورؤيته على حدة وتمييزه وحده. لم تكن جدّتي مصيبة في هذا فقط. كنت أتردد بين قميص وقميص، بين بنطلون وبنطلون، فاسألها فتجد جواباً. لم تكن تقول إنها حائرة ولا تميّز. جدّتي تعتبر ان عليها أن تختار، بين شيئين، أيّاً كانا. الاختيار ممكن وأكثر إمكاناً بين ثلاثة أشياء أو اربعة. هكذا كانت تختار عني وعن زوجها. أحياناً تبدو لنا اختياراتها عشوائية ومرتجلة لكننا قلّما نجادل. نريد شخصاً يختار بدون أن يخشى أن يجرح الحقيقة، وأن يرتكب خطأ لا يعرف مداه. نريد شخصاً لا يخاف أن يختار. كانت جدّتي تختار لنفسها وتختار

لنا وتختار ونختار إلى أن تتعب من ذلك، وتتعب إلى درجة أن تسألنا أن نختار نحن لها. عندئذ يسقط في أيدينا ونروح نضرب أخماساً بأسداس فتضجر منّا وتروح تستشير مسبحتها، إذا انتهت بحبة مفردة فهذا يعني نعم وبحبتين فهذا يعني لا. كنا نسألها أحياناً أن تستشير مسبحتها لنا وأن تضرب لنا "خيرة"، ففي لحظة تحتاج الحرية إلى إله نخترعه أحياناً بين حبات المسبحة.

لكننا، إذ نفعل ما تختاره لنا، لم نكن نحوز رضاها. كانت تسألنا عما فعلنا وإذ نقول لها إننا أحسنّا صنعاً وإن خيارنا كان صائباً، كانت تبتهج وتسكت ولا تعلق كأنها تشكر نفسها أو كأنها قامت بذلك عنا. لم يكن جدّي غبياً و لم تكن جدّتي أذكى منه، بل هو في الغالب أذكى منها. لكنه من هؤلاء الذين يتقنون التفكير الطويل الذي لا يفضي إلى أيّ فائدة. لو كان كاتباً لخدمه ذلك ولصارت له قيمة. لكنه لم يكن كاتباً وقلّما يقرأ رغم أنني شاهدته مرات يعكف على كتابة سطور لا أعرف أين أخفاها ووعدت نفسي أن أفتّش عنها في خزائن البيت ومخابئه فلعلّها بقيت ولعل جدّتي حفظتها. لم يكن جدّي كاتباً بل لا أظن أن الكلام كان وسيلته إلى التعبير. كان بنّاءً وبالتأكيد يجد نفسه أكثر في رصف الأحجار ورفعها. كان يحسن الكلام لكنني لم أسمعه يتكلم عن شيء في داخله. لا بد أن الطاعة كانت وسيلته للتعبير عن حبه لجدّتي ولا أعرف إذا كانت جدّتي قد فهمتها هكذا، فهي في أحيان كثيرة أبدت ضيقها من كونه يريد رأيها حتى في الدواء الذي عليه أن يبتلعه. لا بدّ أن جدّي كان يفرج عن روحه في الغناء. كان صوته جميلاً ومليئاً بالعاطفة وحين يرفع صوته بالغناء تشعر أن

روحه تتقطر فيه. لكن جدّتي لا تطلب منه كثيراً أن يغني فالأوقات التي يروق لها فيها أن تسمع الغناء ليست كثيرة. في الأماسي حين يزورنا جيران أو أقارب كانوا يطلبون منه أن يغني فينتظر إشارتها ويرفع صوته. هي لم تكن تريده أن يغني امام أيٍّ كان فهناك أشخاص ترى مهيناً أن يغنّي أمامهم، لا يستحقون أن يغني لهم. عند ذلك لم يكن يتلقى إشارتها ويمتنع عن الغناء لسبب يخترعه في حينه. وهي مع الوقت راحت تختصر الناس الذين تأذن له بالغناء أمامهم، إلى أن لم يبقَ أحد. فكّرت أن عمره لم يعد يسمح له بأن يسلّي أيّاً كان، وحتى حين يخطر له أن يغني عندما نكون وحدنا، كانت تقطّب في وجهه وتسأله أن يخفض صوته لئلاً يسمعه المارّة في الشوارع.

كان جدّي كلما ذهب إلى قريته عاد ومعه حجر أسود لكن جدّتي تتشاءم منه وتتعجّب من أنه يحمل إلى بيته هذا الحجر القبيح وتطلب منه أن يرميه أو ترميه هي عنه. كنت ذلك الحين غالباً من راي جدّتي اظن مثلها أن الحجر الداكن الخشن المعتم ليس جميلاً. كنت أتعجّب من أن جدّي، الذي لا يستطيع الدفاع عن حجره، يكتئب حين تهزأ جدّتي منه وتقول إنه لو كان هناك بعد مواقد لنفع في أن يكون حجراً للموقدة. أظن أنّ مع العمر تراخت كراهية جدّتي لهذا الحجر، وتعبت من أن تزجر جدّي كلما حمل واحداً إلى البيت، أو ان جدّي جمع نفسه وتجرّأ على أن يقول لها إنه لن يضحّي بعد بحجره، بل واتخذ ركناً في البيت مكاناً ليشتغل فيه ويصنع منه المنحوتات التي شاهدتها. اريد أن افكّر ان جدّتي غيّرت رأيها حين رات ماذا صنع من الحجر، وأن ما صنعه أعجبها فسمحت له أن يستمر في شغله. على الأغلب

أن جدتي مع العمر قد تفرّغت لأعشابها وسمحت لجدّي بأن يتفرّغ لحجارته. لا أعرف إذا بقي جدّي يغني أم أنه، وقد وجد شيئاً يطلق به نفسه، لم يعد بحاجة إلى الغناء، أم أن جدّتي اعتبرت أن من غير اللائق أن يغني عجوز مواويل الحب فطلبت منه أن يكفّ عنها.

أحسب أن جدّي، وأقلّ منه أنا، من هؤلاء الأشخاص الذين لا يعرفون ماذا يفعلون بإرادتهم ويشعرون أنهم لا يطيقون حريتهم، بل يجدونها عقاباً أو شرطاً جهنمياً. إنهم أسعد حينما يتحمّل عنهم آخر عبء الاختيار. الحرية تحتاج إلى خفة لا يملكونها، بل تحتاج إلى درجة من عدم الاكتراث وعدم السؤال عن النتائج. إن بوسع عود ثقاب أن يشعل غابة أو مدينة، هذا وحده كافٍ لكي لا نتجاسر على إشعال عود ثقاب، وعلى أن نكون أفضل حين يشعله واحد محلنا. إننا هكذا نملك بحرص بل نتمسك بتلك الإرادة السلبية، إرادة أن لا نشارك البتة في صناعة عالم نرى أنه مصنوع من أخطاء وان أيّ خطأ، مهما كان صغيراً، يجد في هذا العالم مدى يمكن أن يتحوّل فيه إلى كارثة.

نحن هكذا نتمسك بحرية أن لا نفعل شيئاً. حرية قد توصلنا إلى أن لا نقول شيئاً وأن لا نريد شيئاً. المشكلة أننا هكذا نرتب على الآخرين أن يريدوا مرّتين بدل الواحدة، أن يفعلوا مرّتين بدل الواحدة. أي أننا ننجو على حساب غيرنا. هذا أناني بالطبع، وإذا فهمنا ذلك علمنا أننا في سبيل أن لا نخطئ ارتكبنا خطأ أكبر، عندئذ هناك خطر أن نعوّض بأن نريد أي شيء ونختار بعشوائية كاملة. هذا ما لا أظن أن جدّي وقع فيه، ففي منحوتاته نجد أنه لا يزال قادراً على أن يمسك لسانه، ولا يزال قادراً على أن يزن ما يقوم به، ويفعل أقل ما يمكن ليخطئ أقل ما يستطيع.

كنت أشعر أن جدّتي يسرّها أن تختار لنا. صحيح أنها تزجرنا وتتظاهر بالانزعاج من قلة جدوانا، لكنها في قلبها، في قلبها فقط، مسرورة لكونها لا تزال نافعة لنا. أذكر جدّتي وهي تسير منتصبةً وممشوقةً بمعطفها ذي ياقة الفرو وفستانها الماكسي. حتى منديلها تعقده حول شعرها بأناقة، تلفه حوله بطريقة تناسب وجهها المربّع. كان لها أسلوبها في الثياب وأسلوبها في المشي وأسلوبها في الكلام. أذكرها وهي تمرّ جنبي وفستانها الطويل الحريري يخفق على جسمها. أذكرها تتكلم وتأكل أواخر الكلمات بحيث تبدو وكأنها ترنّم. يفوتنا أن نسمع بعض ما تقوله لكن إيقاعه يصل إلينا بل يصلنا الكلام إيقاعاً. أذكر صوتها وهو ينساب على رؤوس الكلمات خفيضاً وعميقاً وحميماً ومنوراً بابتسامة غامضة وعينين مسحوبتين. كانت جميلة وهي تخطو إلى الخمسين وجميلة وهي تتخطى الخمسين. ليست جميلة في سنّها فحسب بل كان جمالها وأنوثتها ينتقلان معها عبر الفصول حتى إننا لم نصدّق تجاعيدها وشيخوختها، التي انتظرت حتى أواسط السبعين لتغدو أمراً واقعاً.

كنت أتماهى مع جدّي في طاعته. كان تقريباً رفيقي في طفولتي وحتى مراهقتي. يسليني أن أقول مثله "لا أعرف" "لا رأي لي". لطالما كتمت رأيي لأكون مثله. كان لي بالطبع مزاجي ورأيي، على الأقل رغبتي، لكني أحببت هذه اللعبة، أحببت بالضبط أن اسمع جدّتي وهي تتظاهر بأننا أفقدناها صوابها قبل أن تتريث وتسعفنا برأيها. أحببت دائماً هذه اللعبة المثلثة التي أكون فيها مع جدّي أمام جدّتي، أما جدّتي، التي تشعر دائماً بالتأنيب لأنها سرقتني من أبي وأبعدتني

عن أمّي، فكان يكفي أن أكون طرفاً لتستسلم وتختار لنا. فيما يتعلق بي وحدي لم أكن أستشيرها إلا لماماً. أقرّر لنفسي وأتبع رغبتي. أمّا جدّتي، التي طالما طلبت منّي ومن جدّي أن لا نلحّ في سؤالها وأن يكون لنا رأي، فكانت تنتبه فوراً إذا قرّرت من رأسي. اعتادت أن تُستشار في كل شيء وأن تقرر عن الآخرين فكان هذا بالنسبة إليها هو الواقع. جدّي لم يكن يضطرها إلى هذا الحرج بالطبع. كان يسمع ويطيع في كل شيء. لم تكن له إرادة ليبرزها وقد انتظر طويلاً لتكون له إرادة. ليست المنحوتات السوداء إلا صوت إرادته. أمّا أنا الذي أطيع مع جدّي ولا اطلب رأيها في ما يخصني وحدي فكنت بالطبع أتحداها هكذا، أتحدّاها فهذه هي الكلمة. كانت جدّتي السلطة الحانية والمتذمرة من نفسها شرط أن تكون السلطة، أي كانت السلطة مرّتين مرة حين تؤنب ومرة حين تقرّر. كانت السلطة التي تشكر نفسها وتتمدح بنفسها وتتنكر لمسؤوليتها. لقد أدمنت السلطة بحيث لم تعد تتذكر ما هي، وبحيث صارت تمارسها على أنها تنازل وعلى أنها مجرد رحمة للآخرين. لذا كانت جدّتي تفاجأ بي أقرّر دون استشارتها، أو اهمل رأيها وأقرّر وحدي. تفاجأ وتنزعج وهي تراني أتحرّر منها. لكنها كعادتها تتنكر لإحساسها وتزعم لنفسها أن ما يزعجها هو خوفها عليّ، هو خوفها من أن أخطئ وأن تكون عاقبتي وخيمة. كان يكفي أن لا استشيرها لأخطئ بالتأكيد، وكل مرة قررت لنفسي أخطأت في نظرها. وكان عليها أن تتدخل لتثنيني عن خطأي. كان عليها أن تتدخّل وبسرعة لكي لا يتفاقم الخطأ.

١٦

كان عدنان عليّان يستحق نفور جدّتي منه لكن جدّتي تنفر من كل شخص ترى أن علاقتي به تبتلعني وتخرجني من بيتي. عدنان عليّان كذوب يختلق قصصاً عنه وعن غيره، وعدنان عليّان الشطارة مبدأه الأول والشطارة تبيح كل شيء شرط أن ينجح، بل تبيح خصوصاً الغش والتضليل فهما ركنا الشطارة، ومن يستطيع غشّ إنسان فقد غلبه وربح عليه. صحيح أن عدنان كان يقرأ ويكتب قصصاً قصيرة لكن ما يكتبه كان غالبه تظاهراً. التقيت به أول مرة حينما جاءني إلى البيت ليريني ما يكتبه. ما يكتبه كان تقليداً متقناً لكاتب معروف، لغة مارون عبود وحتى نكاته. لا نطلب من عدنان عليّان شيئاً شخصياً إذ إن ذاته المطاطة الملتوية ليست موجودة بالنسبة إليه. إنها صندوق من ألاعيب وحيل وأكاذيب وليست سوى عدة للاستعمال. كان سيقلّد بالطبع لأن هذا مضمون ومؤكّد الربح فقد جرى اختباره من قبل في كتابة الأديب المعروف. دخل عدنان عليّان إلى بيتنا، كان على الباب طويلاً غامق السمرة وفي وجهه ندبة. لم يكن أنيقاً إذ لم تكن الأناقة بعد قد صارت في ذلك الحيّ صالحة للتظاهر. أراني الأقصوصة

وقرأها عليّ وسمع رأيي الذي لم يخلُ من مراعاة، واقترح فجأةً عليّ أن نخرج لنتمشى وخرجنا، سلكنا معاً الطريق أمام البيت ثم انعطفنا صعوداً. كان هو الذي صعد وتبعته لنجد أنفسنا أمام المقبرة. دخلنا معاً وتبعته حين خرج من ردهة المقبرة المبلطة إلى ما بين القبور. قصد قبراً أمام حجرة بسقف وثلاثة جدران وجلس عليه. تبعته وجلست قربه، أمضينا وقتاً في الكلام. حكى لي قصصاً عن عبثه بالآخرين ولعبه بهم. اختلق قصة عن غرام بينه وبين معلّمة. حرّضني على أن أشاركه العبث بقس الضيعة الذي أوهمه أنه يعتنق دينه. وقف وخرجنا من المقبرة. توجّه، وأنا وراءه، إلى صخرة في مدخل القرية، جلسنا عليها وقضينا وقتاً في الحديث. في الصباح جاءني ودعاني أمام جدّتي إلى الخروج. هذه المرة توجهت معه إلى دغل في برية القرية، ثم ذهبنا إلى مكان قرب الينبوع. صار كل صباح يأتي إلى بيتي لنخرج معاً، وقد يكون البيت أول محطة في مسيرتنا، نجلس قليلاً فيه ثم نخرج لنعاود تشردنا بين المقبرة والصخرة والبرية.

كان عدنان عليّان يستحق نفور جدّتي منه، رغم أن ما أزعجها هو أنني صرت لصيقاً به ولا أمكث لحظة في البيت إلا ويأتي ليخرجني منه. خافت عليّ من هذه العلاقة، لم تكن تستريح وهي تراها تأخذني بالكامل. كانت ترتاب بالعلاقات كلها وترى أنّ تلازم اثنين غير قريبين ليس مفهوماً ولا مطمئناً، إذ ماذا يدعو اثنين ليسا من الدم نفسه إلى أن يتواجدا معاً في كل وقت. ذلك بالنسبة إليها غير طبيعي ولا بد من أن يؤدي إلى مشكلة. لا بد من أن يعرض لهما عمل شيء، لا بد من أن يفكرا بشيء غير مقبول. أما أنا فرغم علمي بأخلاق عدنان

ورغم أنني لست من صنفه إلا أنني، في عمري، أطلب الرفقة عند الآخرين ولا أقيم نفسي حكماً على أخلاقهم. لم أكن اجاري عدنان في قصص عبثه بالناس، وليس عندي مثلها، ولا أتبجح مثله بقدرتي على اللعب بالآخرين، و لم أقبل دعوته إلى أن أشاركه الضحك على القس، هذه أمور أحترس منها لكن عدنان يسلّيني ولا أضجر معه.

كانت جدّتي، إذا خرجتُ معه وتأخرت في الرجوع إلى البيت، أراها مساءً تنتظرني على الشرفة، تريدني أن أراها وحيدةً على الشرفة تنتظر في الليل. كان الانتظار في العراء وفي الليل مهيناً فالناس في هذه الساعة يحتمون ببيوتهم. الناس المحترمون لا يتشردون في الشوارع ولا ينتظرون في العراء. كانت تريدني أن أراها وهي تهين نفسها من اجلي. تريدني أن أندم على أنني اضطررتها إلى أن تفعل هذا بنفسها. في هذه المنطقة إذا توفي الزوج أو الابن، وحلّت كارثة بالبيت، خرجت المرأة سافرة معبّرةً بذلك عن عظم مصابها الذي أفقدها الحشمة وجعلها تخلع حجابها، كأنها بذلك تمشي عاريةً بين الناس. لم تنجح جدّتي في تحذيري من عدنان لكن علاقتي به لم تكن إلا هذا التشرد بين المقبرة والبرية. ما أن ذهبت إلى النبطية، إلى المدرسة الإنجيلية، حتى وصلت علاقتي بعدنان إلى نهايتها رغم أننا بقينا، حين أعود إلى الضيعة، نتجوّل معاً، لكن جدّتي لم تعد تنتظرني على الشرفة في صميم الليل.

لا أعرف إلى الآن ممّ خافت عليّ جدّتي من علاقتي بعدنان. لا أظن أنها خافت عليّ من اكاذيبه أو الاعيبه. هذه أمور لا تهمها إن عرفتها، وهي على كل حال لم تكن تعرفها. عمر عدنان من عمري تقريباً.

كان في السادسة عشرة ولا أظن أن له سمعة وهو في هذه السنّ. لربما حذرت من أبيه وأمّه اللذين تعرفهما ولا تحب أخلاقهما، لكن المسألة ليست هنا. أظن أن جدّتي كانت ترهب العلاقات وتخشى أن تتجاوز الحد الذي لا يزيد عن التزاور البيتي، حيث يرى الواحد الآخر بين أهله ويكون هكذا منيعاً حياله. أظن أن جدّتي كانت تقلق من كل علاقة تراها مبالغة وغالباً ما ترتاب إذا تلازم رجل ورجل، تفهم أن تلازم المرأة زوجها لكنها لا تفهم كيف لا يفترق رجلان. لا اعرف إلى اين كان يذهب ظنها لكني أظن أن الخوف من الجنس كان موجوداً بالنسبة إليها، وأظن أن كانت تعرف عن الجنس أكثر مما أحسب. لا بد من أنها في صباها سمعت الكثير عن العلاقات المثلية بل ولا بد أن هذه العلاقات لم تكن أبداً مجهولة يومها. كان خوفها من الجنس هو غالباً خوفها من هذه العلاقات. أذكر أنها في طفولتي لم تسمح لي أن أخالط البالغين بل ومنعتني من رفقة ولد عرفت فيما بعد أن أخاه الأكبر مثليّ. كانت ترتاب في كل علاقة زائدة بين امرأة وامرأة وبين رجل ورجل بل وترتاب حتى في علاقات الأخوة، فالأغلب أن صباها لم يخلُ من قصص انتهاك المحارم. أظن أنها كانت في الأساس مرتابة، مرتابة في كل شيء. الناس بالنسبة إليها مريبون مهما كانوا وأيّاً كانوا. هم جميعاً لصوص وأفاع ومنتهكون، ولو كان في يدها أن تمنعني عن أيّ علاقة لفعلت. كانت مضيافة وحفيّة بالناس لكنها لا تثق بأحد. أظن أنها تسايرهم لكي تبطل شرّهم.

١٧

تزوّجت سلمى بنت خالي عصام باكراً. كانت في السابعة عشرة واعتقد الجميع أنه زواج هنيء. زوجها عبد الله ميسور وهادئ. باله طويل ويتصرف بروية وقلّما يغضب، وهي تضجّ مرحاً وضحكتها تسبقها وعندها خزان نكات تؤديها بوجهها ويديها وجسمها. لم تكن كثيرة التردد على جدّتي التي لا تطيق المرح الزائد وتظنه من الخفة وقلة الاحترام، وطالما زجرتها، في وسط ضحكتها، وأمرتها أن تنصرف بدل الضحك الفارغ إلى شيء أهم. ليس واضحاً ما هو هذا الشيء فسلمى تعتني ببيتها وزوجها وأولادها الثلاثة وما من قول عليها من هذه الناحية. سلمى عند ذاك تسترسل في مرحها إلى أن تجبر جدّتي على أن تداري ضحكتها بيدها، ترفعها إلى فمها وكأنها تتلقاها بها. تصل سلمى فتقف في صحن الدار وتصرخ "يا الله يا كسلانين" فتخرج جدّتي إليها ويخرج جدّي الذي قلّما يجالس الزائرات لكنه يأنس بسلمى ويحب مجالستها. أما أنا فأبقى غالباً في غرفتي أقرأ أو أكتب.

وجدتها مرّة تدخل عليّ. كنت جالساً إلى طاولتي أقرأ آنّا كارنينا.

سألتني عن الكتاب فشرحت لها مأساة آنّا كارنينا. وعندما وصلت إلى انتحارها فوجئت بسلمى تنفجر بالبكاء ولا تستطيع أن تحبس دموعها. لا أعرف ما الذي أبكاها لكنها شرقت بدمعها و لم تتوقف نهنهتها إلا بعد وقت. كانت سلمى عند ذاك في الثلاثين وأنا في الواحدة والعشرين. هذا يعني أنها شاركت في تربيتي، كانت في العشرين عندما كنت في الحادية عشرة، ولا شك أنها في طفولتي حملتني على خصرها. لكنها الآن تراني شاباً قادراً على أن يبكيها. تحدثنا عن الحب، كان بالنسبة إليها هراءً. قالت لي إنه كذب على النفس. كنت أمام هذه المرأة الطويلة التي انحسرَ فستانها على صدرها العارم وتساقط شعرها الأسود على كتفيها وبدت سمرتها القمحية دافئة وسخية. انتبهت، ربما للمرة الأولى، إلى جمال شفتيها وعنقها. كانت أمامي الآن امرأة بينما لم تكن من قبل سوى صخّابة تملأ البيت ضجيجاً وتضطرني إلى فتح كتابي لأبعد نفسي عن عجقتها. كانت تقول إن الحب هراء وترفع يدها إلى فمها وتملس بإصبعها على شفتها السفلى كأنها بذلك تستدعيه وتحمي نفسها منه. تقول إنه أكذوبة وتزيح شعرها عن وجهها. تقول إنه خداع للنفس وعيناها في عيني ونظري معلق بشفتيها، وهي تميل عليّ بجسمها وتدفرني بطرف يدها. قلت لها إن الحب حاجة والحاجة لا تكون أكذوبة، يكفي أن النفس تطلبها لتكون موجودة. كانت تستمع رانيةً إليّ وكأنها تشرب كلماتي.

لم تصدّق جدّتي أنّ سلمى تأتي إلى زيارتنا في اليوم التالي، كانت تقيم مع زوجها في النبطية ولا بد أنها تحجّجت بشيء لتُعلم زوجها

بأنها ذاهبة إلى بيت أهلها. هذه المرة دارت قليلاً في البيت ووقفت مع جدتها في المطبخ وحدثت جدّها وهي واقفة في باب الغرفة. انتهت بسرعة من دورتها ثم فتحت الغرفة عليّ. كنت حينها متمدداً على سريري، ولمّا حاولت أن أنهض أشارت بيدها إليّ أن أبقى:

- والله تظل مطرحك.

ثم بدون أن أقدر على ملاحقتها بعينيّ خلعت حذاءها وتقدّمت على أطراف أصابعها وصعدت إلى السرير وتمدّدت على جنبها قربي. كان وجهها إليّ، ومنذ صعدت روت لي أن جدّتي كانت تكلّفها برعايتي فتمدّدني جنبها، وحين تضجر تقرصني ليرتفع بكائي وتأتي جدّتي على صوتي لتأخذني عنها. سألتني عن رأيي بانتحار آنّا كارنينا. كانت مهتمة فعلاً بأن تعرف إذا كان الحب يساوي الحياة. قلت لها إن الحب ليس أكذوبة وليس أيضاً انتحاراً، لكن آنّا كارنينا وحدها تعرف إذا كان الأمر يستحق انتحارها. خيّل إليّ هذه المرّة أن عينيها تندّتا وأنها توشك على البكاء فأحطتها بذراعي لأهدّئها. ما أن لامستها يدي حتى حملت جسدها واندسّت بي ودفنت رأسها في عنقي وانفرش شعرها على وجهي وبكت بصوت مسموع، لكنها سرعان ما استردّت شهيقها وقالت لي إنها من البارحة، منذ رويت لها قصة آنّا كارنينا، وهي تتخيل نفسها آنّا كارنينا وتبكي، تبكي على نفسها طوال الوقت. قالت لي بخجل وهي تعضّ شفتها إنها تخيلتني أحياناً الضابط عشيق آنّا كارنينا ودفرتني بطرف يدها قائلةً:

- هيك عملتْ فيي؟ خاين!

حين شدّدت عليها بذراعي انكمشت فجأةً وانتزعت نفسها مني

بشيءٍ من النتر. نزلت عن السرير ودسّت قدميها بعصبية في حذائها وفتحت الباب، وخرجت مسرعةً بعد أن أغلقته بقوة فانطبق بصوت حمل احتجاجاً غامضاً. تجمّعت في سريري. كانت هذه مشكلتها مع نفسها، أما أنا فكنت الخائن قبل أن يحدث شيء.

كانت جدّتي متديّنة بالتأكيد لكنها لا تمانع في أن تنتصر الطبيعة على الخالق أحياناً. أن يلتقي شاب وفتاة وأن يتلامسا شيء لا تستنكره وتغضّ عنه ما دامت الفتيات لا يتزوجنَ إلا بهذه الخطايا. كانت إذا زارتني فتاة واستقبلتها في غرفتي تحتذي قبقاباً خشبياً وتروح تجول به ليصل صوت قبقابها إلى كل مكان، ولأسمعه إذا كنت والفتاة في غمرة عناق أو في وضع أكثر حرجاً، فنأخذ أهبّتنا ونفترق حين يؤذن صوت قبقابها بأنها تقترب وقد تقع عينها علينا. هكذا نعود إلى سويتنا ونكون لائقين لحضورها. تفعل ذلك لكي لا تجازف باحترامها وسلطانها، فأن نتعانق في وجودها وتحت عينيها لا يعني فقط قلّة احتشام بقدر ما يعني استخفافاً بها. جدّتي لم تكن لتبالي بما نفعل ما دام ذلك بعيداً عنها أما أمامها فينبغي أن نحترز وأن نراعي شيبتها كما كانت تقول. أمامها علينا أن نحتشم وإلا ما كنّا نقيم وزناً لوجودها. تريدنا جميعاً أن نقيم وزناً لوجودها وأن لا يكون حضورها نافلاً ومثل عدمه. تريدنا أن نداريه وأن نقيم له وزناً. ليس أنا فحسب بل جدّي وأبناؤهم وأولادهم. تريدهم جميعاً أن يقدّموا لها الاحترام اللازم لأمّ الجميع. ما كانت تهتم إذا جرى ذلك بالتحايل أو التلاعب فالمهم أن احترامها لم يجرح والمهم أن أحداً لم يستخفّ به. أما أن تكون المرأة متزوجة وتكون فوق ذلك حفيدتها، وأن يكون الرجل

أيضاً حفيدها، فهذا ما لا تستطيع أن تتركه للطبيعة وأن تغضّ عنه. ليس بالنسبة إليها شائناً فحسب بل هو تدنيس لا يمّحي لاحترامها.

بالطبع لم يفت سلوك سلمى جدّتي. كانت في سرّها تقول إن هذه الفتاة، التي لا تكفّ عن الضحك، ستورّطهم في مصيبة. لن تكون علاقة مع ابن عمتها سوى تلك المصيبة التي تقع على الجميع.

صفقت سلمى الباب وراءها. سمعتها تصفق باب الخروج أيضاً، كانت تريد أن أسمعها. لا أعرف ما هي الرسالة التي تريدها أن تصل إليّ بهذه الطريقة: غضبها منّي او من نفسها. قصدت فقط أن أتودّد إليها حين شددت عليها بذراعي التي كانت في الأصل تحيط بها، أردت فقط أن أربت عليها. هي أعطت لهذه الحركة معنىً آخر، ارادت لها معنى آخر، ومنذ تلك اللحظة سيكون هذا معناها وساكون بدون أن أقصد قد تقدمت خطوة في طريق آخر.

في اليوم التالي لم تأتِ سلمى وكذلك اليوم الذي بعده، لكنها بعد ثلاثة أيام، باكراً وأبكر مما يجوز لامرأة ذات عائلة، فتحت بابي. كان صدرها مصروراً ومتوفزاً في بلوزتها الزهرية وساقاها مصبوبتين تحت التنورة القصيرة الكحلية. دخلت جامحةً هذه المرة. وجدتني على كرسيّ وأمامي كتابٌ مفتوح على الطاولة، فضربتني بقوة على ظهري ووقفت أمامي بعينين متنمّرتين. قالت لي:

– روح من وشّي. خربت بيتي، مبارح ما قدرت اشتغل شي. كنت ضايعة وعم فكر فيك.

وفجأةً أخذت تشدّ شعري وتخمش وجهي وتضربني بقبضتيها في صدري وتعيد قولها:

– روح من وشّي. شو بدّك منّي؟

كان عليّ هذه اللحظة أن امسك يديها وان أقبّلها لكني لم أجسر. سمعت شيئاً يشبه قبقاب جدّتي يقترب. زاد هذا الجمود من هياج سلمى التي صارت ضرباتها أكثر عشوائيةً وبدأ صوتها يحشرج، وفجأةً رفعت يديها عني وسكت صوتها وسكنت تماماً، وظلّت تنظر إليّ بعينين شرستين، ثم فجأةً رمت نفسها عليّ وعانقتني.

عندئذ، ورغم أن صوت قبقاب جدّتي استمرّ يجوب المكان، امسكتها من ذقنها بإصبعيّ، رفعت رأسها وصار قبالة وجهي. ملّست على خدّها براحتي وقرّبت وجهي منها وطبعت شفتيّ على شفتيها. ظلّ صوت قبقاب جدّتي يصلني من مكان أقرب كأنها تخطو في غرفتي. غمرتني سلمى بيديها وأخذت تمضغ فمي. اعتصرته في فمها وسربت لسانها إلى داخله واستمرت تعتصره. كان شيء كهياجها قبل هنيهة يجعلها تصبّ نفسها في فمي. ظلّت هكذا، صدرها مغروس في صدري وفمها على فمي، إلى أن شعرت بانتصاب كامل. بدأ امتصاص فمها لفمي يصل إلى حوضي وفجأةً شعرت برعشة شملتني وقذفت داخل بنطلوني.

استمرت تمضغ فمي في حين أنني صرت أقلّ إحساساً بذلك. كان جسدي يبتعد فيما بقي فمي معلّقاً بفمها وشعرت أن هذه الحركة تغدو أكثر فأكثر مطاطية وبعيدة عن جسمي وعن إحساسي، فقد حلّ محلّ الرغبة المنقضية شيءٌ أجوف. وتسرّب الشوق من لعبة الفم التي غدت هي أيضاً جوفاء وبلا معنى. ظلّت سلمى تمتصّ فمي حتى حين ابتعد صدرها عن صدري و لم يعد هناك أي ردّ من جانبي. لا بدّ

أنها أحست، لكنها ظلت ماضيةً في حركتها مصرّةً على ان تنقل كل شحنتها وتُفرغ كل داخلها.

أخيراً، وبعد ان أصابني العياء وشعرت سلمى بذلك، كشفت صدرها لي. لم أكن بعد مستعداً. أرادتني أن المس صدرها وبالفعل دسست كفي بين ثدييها. يدي الثانية أطاحت بالكتاب المفتوح فسقط ارضاً. ما أن سمعت صوت سقوطه حتى جفلت يدي في صدر سلمى، بدا ذلك كتعليق ساخر على ارتباك لم يعد ممكناً إخفاؤه. كان جسدي كعقبة أمامي، كذلك كان جسد سلمى. شعوري بجسدها لا يرتفع عن أصابعي التي أديرها بدون حس في سوتيانها. هذه الحركة، ككل حركة بعد، صارت تزيد من بُعدي. لم تكن سلمى غير شاعرة بذلك. كنت أخمد بالتدريج أكثر فأكثر. في النهاية جمعت نفسها وخرجت بقهر من الغرفة.

هذه المرة لم أسمع صفق الباب. أغلقته على مهل و لم أسمعها تغلق الباب الخارجي. جدّتي بعد قليل فتحت الباب عليّ، لا أعرف كيف وجدتني. لا بدّ أن العياء كان ظاهراً في وجهي. لم تقل شيئاً، أرادتني فقط أن أعلم أنها موجودة، أغلقت الباب عليّ وابتعدت. في الصباح لم أجدها. كانت في بيت سلمى. لم أعلم ماذا حدث هناك في حينه. لكني خمّنت ان جدتي حذرتها وأمرتها أن لا تدوس بعد عتبة بيتها. لا بد أنها طردتها من بيتها، إذ لم أعد أراها فيه. تمّ ذلك بصمت ودون صوت، المهم أن احترام جدتي بقي قائماً.

١٨

التاسعة صباحاً، الشمس انتشرت في الغرفة. نفذت من الستارة التي على النافذة. أزحت الطاولة إلى حيث لا تصل الشمس وفرشت أوراقي وأخذت أنقلها إلى الكومبيوتر. كانت مجموعة حسابات ضيّعتني. الجرس يرنّ مرّتين متتاليتين. أفتح الباب فأجد صبحية تحمل في يدها كيساً عليه لطخة زيت. على الباب تقول:

– فكّرت فيك. قلت يمكن ما عم تاكل. ما حدا بيهتم فيك. جبتلك ترويقة.

دخلت وتوجهت بسرعة إلى المطبخ. عادت بعد قليل وأمامها صينية عليها إبريق شاي وكؤوس وجاط فيه أنصاف مناقيش. وضعت الصينية على الطاولة التي جمعت عنها أوراقي وحملتها مع الكومبيوتر ووضعتها على السرير. سألتني:

– بشو بتبلّش؟ فيه مناقيش زعتر، جبنة، كشك. بتبلّش بالزعتر؟

مدّت يدها إليّ بنصف منقوشة زعتر ومعه كأس شاي تركت لي أن أضع فيه المقدار الذي أريد من السكر، فيما وضعت ملعقتين كبيرتين في كاسها وأخذت تحرك الملعقة في الكاس. شالت من الجاط النصف

الثاني من منقوشة الزعتر وهي تنظر إليّ. رفعت الكأس إلى فمها وهي تنظر إليّ. لم أكن تكلّمت تقريباً حتى الآن. لم أزد على كلمة "أهلاً" على الباب وبعدها لم أحرّك لساني. لم تفاجئني زيارة صبحية. في داخلي شعرت أن ما بيننا سيأخذ وقتاً، ان امامه مدىً قد يطول. مع ذلك حيّرتني زيارتها، اخرجتني من أوراقي وكومبيوتري وجعلتني فقط إزاءها، لم اكن مستعداً لذلك. لا أعرف ماذا عليّ أن أفعل لكنه سيكلفني جهداً وطاقة شعرت من الآن بعبئهما. لم أكن أعتمد على مبادرتي وافضّل أن أترك كل شيء للصدفة. مبادرتي وحدها طالما انتهت إلى الفشل. انجح فقط حين يكون الجو مهيئاً وتأتي مبادرتي في محلها. أخشى الفشل واظنه يهينني كثيراً. لم اكن قد تكلمت منذ جاءت صبحية و لم يكن بيننا اي جوّ. إن انا أحطتها بذراعي أو قبّلتها قد اكون بذلك كمن يغتصبها. ماذا لو نفضت نفسها من بين ذراعي وتصلّب وجهها ازائي؟ ألن ابدو عندئذ سخيفاً ومنبوذاً؟ ماذا لو روت القصّة؟ ماذا سأصير بين الناس؟ ستلتصق هذه الحكاية بي، سأكون بالنسبة إلى الجميع الرجل الذي اعتدى عليها. كان هناك ايضاً بطئي، أفضّل ان أمنح الأشياء وقتاً كافياً. اظن ان الوقت يعمل لصالحي. أنتظر بمتعة، انتظر أن تبدي المرأة دلائلَ كافية، عندئذٍ تكون مجازفتي أكيدة ومضمونة. لم يعمل الوقت بيني وبين صبحية. ماذا افعل حين تزورني امرأة أكبرها بعشرين عاماً على الأقل، قد أكبرها بأكثر من ذلك، امرأة جميلة وارملة وأنا وحدي. كنت أفضّل ان يكون معها عبد الكريم فهذا يحصر المسألة في مغازلة عابرة. لم أكن قد تكلمت، لا اعرف كيف فهمت صبحية صمتي لكنها ايضاً لم تتكلم كثيراً. كنا معاً نمضغ

ونشرب وأنا أحترس من أن احدث صوتاً عندما أرشف الشاي. فجأةً وضعت صبحية كأسها والتفتت إليّ:

– مبيّن ساكت! فيه شي مش عاجبك؟

لم اجاوب فوراً، تعثّرت بالكلمات، نطقت بأول كلمة خطرت لي:

– لا. ما فيه شي مش عاجبني.

– أكيد عم تفكّر شو جابي هـ المرة تعمل عندي.

لم اجاوب البتة هذه المرة.

– أكيد عم تقول شو جاب هـ المرة الـ ما عندها جوز لبيتي من الصبح. أكيد عم تقول أنا رجال وحداني شو جابها لعندي.

لم أجاوب و لم أجد كلاماً أجاوب به:

– عمتقول إنو هي أرملة وأنا مطلّق. يمكن خايف إنو حدا يكون شافني طالعة لعندك. يمكن خايف على سمعتك شو بدن يقول عنك الناس بالضيعة. أكيد عمتقول هـ المرة رح تنزع لي سمعتي.

أخيراً وجدت كلاماً. لم يكن الكلام الذي أريد أن أقوله لكنه الكلام الوحيد الذي وجدته في رأسي:

– مش عمقول شي. أهلاً فيك. منيح إنك فكّرت فيي.

– بذمتك مش عمتقول إنو هـ المرة عمتتحرش فيي. ما تكون خايف اعتدي عليك. خايف إني أغتصبك. اسمع أستاذ جلال. أنا مش عم بتحرّش فيك. عارفه إنو إنت أكبر مني بكتير. عارفه إنو بعدك معلّق بمرتك. صحيح إنها طلقتك لكن بعدك مأمّل ترجعلك. أنا شفتك وحداني وأنا حنوني. شفقت عليك.

لا تقول امرأة "أشفقت عليك" إلا وهي تنوي الإهانة. أشفقت

عليك تعادل الشتيمة. احسست ان صبحية هكذا تثار لنفسها مما تصورت أنه دار في ذهني. الآن وجدت فرصة لأقول لها إنني أحترم كثيراً اهتمامها بي ولا أتصوره ممالقةً أو تحرّشاً. قلت لها إنها صبية جميلة وأنا كبير عليها وهي بالتأكيد تجد رجالاً أصغر مني يتمنونها لأنفسهم، ولا يخطر لي أنها تفكر برجل في سنّي. لكني مع ذلك لا أحب أن أكون موضع شفقة من أحد. اطفأ كلامي سورة غضبها الذي لا أزال أظن أنه أقرب إلى الافتعال. ضحكت لي وقالت إنها لم تقصد لا قدّر الله أن تقلّل من قيمتي. إنها بالنسبة إلي اخت وتراعيني مراعاتها لأخوتها ثم، بدون اي تمهيد، سألتني عن بنات كولومبيا. قلت لها إنهنّ يَنْمَوْن كالأشجار، إنهنّ بنات الطبيعة، غريزتهنّ وانوثتهنّ يتفتحان معهنّ ولا يحاولنّ كبحهما. سمعتني وهي تقول لي "يا ملعون. انبسطت هونيك". دفرتني بقبضتها. الآن تكلم القدر. امسكتُ بيدها في يدي وتركتها في يدي وقتاً قبل أن تسحبها وهي تقول "شو بدّك بايدي" لكني هذه المرة لم أجب، دفرتها بيدي في خصرها فقالت وهي تضحك "زكزكتني" وضحكت أنا معها فدفرتني هي أيضاً في خاصرتي، ولما لم تجدني اضحك قالت لي "ما بتتزكزك. أنا قلت إنك شقفة واحدة"، وقلت لها إنها أيضاً قطعة واحدة، لكن قطعة جميلة، وسألتني إذا كنت حقاً أجدها جميلة. قلت لها إنها تعرف أنها جميلة. لن أكون أول من يقول لها ذلك. لكني اجدها فعلاً جميلة. لي عينان وأنا أراها جميلة. عندئذٍ قالت إن جمالها لم ينفعها، بل أساء إليها. ابتلاها بشكيب رغم أن ابن خالتها هلال ذاب في حبها إنما ذلك الوقت لم يكن في يده عمل. كان طوع أبيه الذي

أراده أن يتزوج ابنة عمّه. الآن قالت وعيناها تبرقان إن هلال يلاحقها من مكان إلى آخر. طلّق ابنة عمه من زمن ويقول إنه طلّقها لأن قلبه بقي معلقاً بها هي صبحية. سألتها لمَ لا تتزوجه ما دامت أحبته في يوم، قالت إن ذلك كان في أول صباها. تغيّرت منذ ذلك الحين. تراه الآن صغيراً وسخيفاً. أكثر ما يغيظها منه هو أنه يُشعرها بأنه يتكرّم عليها حين يطلبها للزواج وهي أرملة. كونها أرملة يعني أنها صارت بنصف قيمتها ومن حظها أن يتقدم لها شاب مثله. قالت إنها لا تعرف إذا كانت تحبه لكنها تخاف أن تتزوج للمرة الثانية رجلاً لا تحبه. يكفيها شكيب. هذا شيء لا يخفى. لا بد أن يعرفه الرجل وعندئذ سيهينها ويسيء معاملتها. سألتني إذا ما كنت قد أحببت كاميليا، قلت لها نعم. هي التي ما أحبتني. سألتني: وماذا فعلت حين علمت أنها لم تحبّك؟ خطرت لي في هذه اللحظة صورتي وأنا أهجم عليها بكل قوتي، لكنني أجبت بأني لم أفعل شيئاً، تركتها لحريتها. قالت إنها متأكدة أني لم أسئ معاملتها فأنا رجل محترم. لم أجب بقيت في رأسي صورتي وأنا أهجم على كاميليا. لا أعرف ماذا انتظرت صبحية مني لكنها بعد قليل جمعت نفسها وقالت إن عليها شغلاً ومدّت يدها تودّعني. أحطت كتفها بذراعي فسكنت قليلاً ثم انسلّت من تحت ذراعي واتّجهت إلى الباب وفتحته وخرجت.

١٩

كانت جدّتي تعتقد أن المديح يطمع الممدوح، وقد يدعوه إلى التكاسل وأن اللوم هو الذي يحفز إلى العمل، وهو الذي يبقي الملوم نشطاً أو يترك في نفسه استعداداً وبقية من النشاط. لذا كانت تلومني وتلوم جدّي على السواء. تلومنا لا على أخطائنا فحسب بل على ما نحسن فعله. تجد دائماً سبباً للوم ولو على عمل متقن. كانت أسبابها أحياناً مضحكة. حين جمع جدّي أزهاراً من البرية وحملها إلى البيت سعيداً بهذه التقدمة الربيعية، لم تجد جدّتي شيئاً تقوله سوى إنها غداً ستذبل. كانت تلومني على أصحابي الذين تعتبرهم أقل منّا. تلومني على الكتب التي أشتريها وأصرف وقتاً في قراءتها بدلاً من أن انشغل بدروسي كما كانت تقول. كانت حتى تلومني على حبي للرياضة وعلى لعبة الفوتبول التي ازاولها أمام البيت مع أصحابي لأنها في تقديرها تؤذي صحتي، وحين زلّت قدمي أثناء اللعب وتمزّقت عضلة ساقي وتوجب عليّ أن أعرج أسابيع لم تكفّ عن لومي. كنت ذلك الوقت أظن أن اللوم هو عمل الأهل والحقيقة أن أهل أصحابي كانوا أيضاً يلومون أبناءهم لكنهم مثل جدّتي يمتدحونهم أمام الناس. جدّتي

كانت أمام الناس تمتدح اجتهادي وطاعتي ونظافتي لكنها في البيت تجعل همّها في أن تنتقدني. كان ينبغي أن أظل تحت وابل انتقادها فهكذا تربيني وهكذا تزرع في نفسي حذراً من الزلل. الحقيقة أنها كانت تزرع الخوف، لو استجبت لها لنشأت خائفاً من كل شيء، لكنني لم أكن أركن إلى كل ما تقوله، معظمه لا أقيم وزناً له، معظمه لا أظن أنها تعنيه، إنه فحسب تمرين وترويض، إنه فحسب للوقاية، وهو فقط طريقتها وعادتها. لذا كنت أتملّص من كل ما تقوله. مع ذلك أعرف الآن أنه ترك شيئاً في نفسي، أن يبقى المرء تحت وابل اللوم لا بد أن يتأثر بطريقة ما. لا أعرف الآن كيف أثّر هذا بي، لكنني لم أكن بالتأكيد لامبالياً تماماً حياله. كنت بالتأكيد أحسب له حساباً، لكنه يتجاوز أي حساب.

جدّتي كانت لا توبّخني فقط على شيء فعلته بل في الغالب على استعداد محتمل لأن أخطئ. كانت تزرع في نفسي فكرة هذا الخطأ الذي لا يزول. كان الخطأ مزروعاً فيّ وكنت دائماً مستعداً له. لم تحاسبني على أخطاء فعلتها فحسب بل كانت تستبق أخطاء أنا قابل لأن أرتكبها. أخطاء موجودة دائماً طي نفسي وحين أقوم بعمل جيد فينبغي أن لا أغتر واطمئن. إذ ليس مثل هذا الاطمئنان سبب لكي أعقب عملي الجيد بأفعال رديئة، بل في غاية الرداءة، فكلما كان عملي الأول جيداً سيعقبه عمل يوازيه بل يتفوق عليه في رداءته. تفوقت في دراستي وكنت بعد كل امتحان أعود إلى البيت وفي ورقة علاماتي أنني الأول في الصف. كان هذا يفرح جدّي ويعطي جدّتي موضوعاً للفخر بي أمام جاراتها لكنها تقول لي "غداً تتدهور وتصبح الأخير

في الصف". لا أعرف إذا كانت هذه نبوءة، لم أصبح الأخير في الصف لكنني لم اعد الاول. لم اعتقد في يوم أن السبب جدّتي، لو كانت أمّي هي التي تلومني لألقيت عليها المسؤولية، لكن أمّي بعيدة ولا مجال لاتهامها.

كان الصباح الذي أستيقظ فيه باكراً هو وقت العظة اليومية وأياً كان اليوم، أياً كانت المناسبة. كان الصباح مناسبة لتبدأ جدّتي في تحذيري وتوبيخي على ما يمكن أن أفعله. المشكلة هي في لغتها. لغة جدّتي كانت دائماً هي الأقصى. كانت عدتها مجموعة من المأثورات التي تبالغ إلى الحد الأخير. لم تكن جدّتي تقول عن واحد إنه نحيل، بل وجهه عرض إصبعين، ولا تقول عن واحد إنه شاحب، بل وجهه ينفت أي يكاد يتفتت. هذه الكنايات التي كنت أصدقها كانت مروعة بالنسبة إليّ. على هذا كنت في عظتها الصباحية شاذاً مجنوناً وغير طبيعي، كان هذا كلامها عن شرودي وعن لعبي وعن سلوكي في البيت. لا بد أن هذا اخافني حقاً. لا يمكن لكلمة مجنون أو شاذ أن تمرّ بدون أن تترك أثراً. جدّي الذي لم يكن هذا طبعه كان ينجر إلى جدّتي ويروح هو، وببلاغة أكبر، يعيد كلامها. كانت كلمة مجنون وشاذ وغير طبيعي تأخذ على لسانه معانيها الأخيرة حين تقال بجمل فصيحة كتلك التي في الكتب. الجمل الفصيحة التي بالنسبة إلي أصحّ من العامية إذ يخطر أن الحقيقة لا بد أن تقال بالفصحى. كلمة مجنون التي قد تعني في العامية مجرد الطيش تغدو في الفصحى أخطر وأروح أنا أفكر في "مصباح" مجنون البلدة الذي يقضي وقته محدقاً في الشمس ليضبطها، أو في المجذوب الذي كان الصبيان يطاردونه في الأزقة

بلقب "إحِمْ" وهو يهجم عليهم ويرميهم بالحجارة.

لو كانت أمّي هي التي تقول عني إنني مجنون لبقيت هذه الكلمة في نفسي، لاستمرت تعمل بطرق خفية طيلة حياتي. لكنها جدّتي هي التي تقولها. لن تكون صائبة تماماً، سأنجح في تفاديها، سأسهو عنها مع الأيام لكنها ستبقى غائرة ولن أعرف كيف ستعمل لكني سأجتهد. سأفعل المستحيل لكي لا تقال لي مرة أخرى. لو قبلت ستجدد هذا العار الذي، أحسست به أو لم أحس، حملته من طفولتي.

٢٠

حضر المعلم يوسف. كان هذا عند العصر. الشمس تتراجع وتترك ألقها الخامد على أطراف الأشجار التي بدأت تلمع بلون زهري منطفئ. كان مع صبيّه الذي لا يتناسب طوله مع وجهه الطفولي. تعجبت ثانيةً من صغر رأسه ونحوله. كان يرتدي فوق ملابسه روباً أبيض فيما صبيّه يرتدي بنطلوناً قصيراً كحلياً وقميصاً بنياً. أخذت المعلم يوسف إلى الشرفة العريضة التي تحطمت واجهتها ودللته على النوافذ التي تشظى زجاجها وتركته يقيسها. عرضت عليه كأس ماء فرفضه و لم يتركني أدخل المطبخ لأضع له فنجان قهوة. أحسب أنه اعتبر المطبخ غير لائق بالرجال وعزّ عليه أن أمتهن رجولتي من أجله. دخلت إلى غرفتي وفتحت كتاباً وجلست إلى الطاولة أقرأ فيه. لم أنتبه إلى أن المعلم قد دخل إلى غرفتي إلا حين سمعت صوته يسألني:

– بتشوف أرواح؟

كان السؤال غريباً لكني لم أستغربه من المعلم يوسف، قدّرت أنه يريد أن يريني، أنا حفيد الحاجة هدية التي تربط الشياطين والأرواح، تميّزه، إذ إنه هذه المرة أيضاً قدح في هؤلاء الأغبياء الذين لا يعرفون

أنهم يعيشون وسط الأرواح. قلت له:

– لأ يا معلم يوسف. مش عارف شو كانت ستي تشوف. بس أنا ما بشوف أرواح.

المعلم كان ينتظر هذا الجواب ليباهيني بقدراته ويضمّني إلى زمرة الحمقى. رفع يده ضاماً أصابعه في قبضته:

– أنا بشوف يا أستاذ. ما بشوف بعيني. بشوف بإحساسي. لمّن بتمرق روح من جنبي بحسّ فيها. إحساسي بيتبعها. لمّن بتفوت بمطرح بيفوت معها، ما بشوفها بس بسمع صوتها. ما بفهم شو بتحكي. يمكن الأرواح عندهن لغة لإلهن. يمكن الهوا ما بيساعد. ناقصو شي مش عارف شو هوّي. بيجي وقت بنعرفو. ساعتها بيصير فينا نحكي مع الأرواح ونفهم عليها متل ما نحنا هلق عمنحكي.

لم أبدِ تعجباً من كلامه. احترزت من أن أبديه. كان هذا قصده من حديثه الذي واكبه بقبضته يفتح أصابعها ويغلقها كلما خطا في حديثه. أرادني أن اندهش، أنا بالذات، حفيد الحاجة هدية، أن أعترف به وان أقرّ بامتيازه. أنا بقيت، عن قصد، غارقاً في كتابي، كأني لم اسمعه ولم أعطه اعتباراً. لم أنتظر مع ذلك منه أن يعضّ على كلامه. أن يسكت فجأةً وكأنه ابتلع صوته. أن يكزّ على أسنانه ويحمرّ وجهه وتنتفخ عروق رقبته ويندفع الكلام من فمه أولاً متأتئاً محشرجاً وكأنه يزيل شيئاً من أمامه، ثم ليقذف بعد ذلك عبارة كاملة وكأنه يرميها على وجهي.

– أي.. اي.. مش.. مش.. إنت.. أأ.. بتـ.. بتـ.. بتقرا بكتابك. شيلو هـ الكتاب. شو بينفعك. هذا علم باطل، ما بعلمك شي.. عا.. عا.. مل حالك مش سامع.. اسمع.. هـ.. هـ.. يذا بيفيدك أكتر..

عا.. عا.. مل.. حا.. حا.. للك مش مهتم.. عمتقرا.. إيه اقرا.. شو بيقولولك اللي كتبوه. بيقولولك شي كل الناس بتعرفوا. أنا عمقلك شي ما حدا بيعرفوا. شي ما بتشوفو بكتاب.

تحشرج بعد ذلك واحتبس الكلام في حنجرته و لم يعد قادراً عليه. أسرعت فحملت إليه كأس ماء لكنه رفضه بإباء وبحركة من رأسه ومن يده. أسرعت إلى القول له إنني لم أقصد الاستهانة بحديثه، إنها فكرة معقدة في الكتاب هي التي شغلتني، إن ما سمعته هو اكتشاف مهم. أكيد هو اكتشاف مهم. سيأتي يوم تستفيد منه البشرية كلها. معه حق. ينبغي أن يهتم العلماء بما قاله، أن يكتشفوا ما ينقص لكي نفهم الأرواح ونتكلم معها. بقي جالساً في الغرفة مطبقاً فمه وكأنه يكز على كلامه. ظلّ مقيماً على هذه الحركة وأنا أتكلم وأفاجأ بالكلام يأتيني سهلاً ومتّصلاً. لكني لم أنجح في تغيير إمارات وجهه التي بقيت متصلّبة أو استلال كلمة من فمه المطبق بشكل شبه آلي. لما أنهيت كلامي قام هو بهيئته المتشنجة تلك. وقف هنيهةً ثم عاد إلى كرسيه. قام بعدها مرّتين وفي كل منهما يعود ثانيةً إلى كرسيه ثم نهض أخيراً ووقف أمامي كالتمثال. مددت له يدي لأودّعه ولدهشتي أخذ يدي بين يديه ورفعها ببطء إلى فمه وطبع فوقها شفتيه.

٢١

كان المقهى شبه خالٍ. طاولة بعيدة عليها اثنان يلعبان الورق بصمت غير مألوف في اللعبة التي يتجمع عليها جمهور مشاهدين عادةً وتدور باللسان كما تدور بالأيدي. كان لعبهما أشبه بالسأم تجاه الطاولات الفارغة والصمت المخيم. جلست واقترب بعد وقت شاب يرتدي الكاكي ويسحب في قدميه مشّاية وعندما وصل تبينت أن عمره أكبر مما يلوح من بعيد. سلّم عليّ باليد وسألني ماذا أطلب ولما طلبت شاياً قال إن المياه مقطوعة من الصبح وأفضل أن أطلب قنينة بيبسي. وافقت تفادياً للنقاش لكن الشاب بقي واقفاً، لم يتحرّك من أمامي. بقي ينظر إليّ وكأنه ينتظر مني أن أعرفه ثم قال لي إنه يعرفني، أنا جلال مزهر، وهو سمير عليّان ابن أخ عدنان عليّان الذي حدّثهم عنّي كثيراً. قال إن عدنان عاد من بيروت مريضاً، إنهم وجدوا شيئاً في معدته. سألته أين يسكن عدنان عليّان فقال إنه عمّر في الرويس في أرض له هناك.

لم أكن قد التقيت عدنان عليّان منذ انتقلنا الاثنين إلى بيروت. أنا انتقلت قبله ما أن ذهبت إلى الجامعة الأميركية. استأجرت بيتاً ومنذ ذلك الوقت استقررت هناك. لكني كنت أسمع أخباره وغالبها كما

توقعتها: ضروب شطارة واحتيال. متاجرة بالانتخابات في أثنائها يصعد إلى البلدة ويختار مرشحاً يقنعه بأنه مفتاح انتخابي وأن له سطوة على كذا ناخب لكنه يحتاج ليرضيهم إلى قدر من المال. لا يهم ماذا تفصح عنه الصناديق صبيحة الانتخابات فهو يكون قد قبض المبلغ واختفى. سمعت أنه انتمى إلى أحزاب نافذة في الحرب وكان داخل الحزب يصارع على الرتبة ويحشد حوله ويثير مشاكل إلى أن تتعب منه قيادة الحزب فتطرده، لكنه يتوجه إلى حزب آخر يعبث فيه إلى أن يضجر منه. وفي الحرب ساعده طوله وسحنته على أن ينخرط في القتال وبسرعة صار من نجوم الحرب، أمضى ثلاثة أشهر في دورة عسكرية وعاد منها ركناً في كتيبة "رواد الثورة". كعسكري كان له أن يفعل ما يشاء، أن يرفض الأوامر ويستفز من يشاء ويحشد حوله ويستقوي على رفاقه. كان له أيضاً أن ينظم عمليات كبرى: سرقة سيارات خرج منها بأسطول من كل الأنواع، دأب الرفاق على تحطيمها وقيادتها بوحشية، فيما كانت تباع القطع الممتازة بأسعار منخفضة، تجارة بمفروشات البيوت التي توضع اليد عليها، خُوّات لقاء حماية أثرياء ونافذين. الحرب خربطت الأحزاب والتنظيمات. سادت فيها الأجنحة العسكرية كما ساد فيها منطق الحرب. ما أن يبدأ القتل، ما أن ترخص الحياة البشرية حتى يغدو كل شيء مباحاً. ما أن يغدو من حق الإنسان أن يزهق الحياة البشرية حتى يصبح إلهاً قميئاً يقدّم كل ما يوجد وما يملكه الناس قرابين لنفسه. يصبح أحمقَ وأمامه كل حياته ليستولي على ما يصل إلى يده، أمامه كل حياته ليوسع سلطته التي تحتاج إلى قدر غير معلوم من التعديات. بعد العملية الثانية أو الثالثة

يتحرر من الأفكار كلها ويبدأ في تصديق نفسه، وبالطبع لن تعود لأفكار الآخرين قيمة أكبر من الوقت الذي يُهدر في قولها. إنها لا تصمد ومنذ أن يبدأ التعدي ستبدو ضعيفة جداً ولا تقوى على الدفاع عن نفسها. على كل واحد أن يبني سلطته بيديه وهذا يستلزم عدداً متزايداً من الانتهاكات. عدنان عليّان كما سمعت عنه فعل ذلك، سمعت أنه جريء جداً وتفوّق على غيره بأنه يقتل بيديه. لقد ذهب إلى موظف الجمارك وأمام الجميع أفرغ رصاصه في رأسه، منذ تلك الساعة لم يعد يخالفه أحد، حتى رفاقه صاروا يخافون منه. لقد قتل بيديه، أمام الجميع فعل ذلك. لا يستطيع إله أن يفعل أكثر، ومن تلك الساعة صار الكل يخافونه كإله. أعوانه ينصاعون له، الرعب يحملهم على ذلك. في البداية جمعتهم الأفكار، الآن الأفكار تنفع كذريعة، كذريعة فارغة وما يجمع هو الرعب. المرعب هو السيد، رؤساؤه خافوا منه، مرؤوسوه أيضاً. إنهم الآن متساوون لكن المساواة مرعبة، إذ من يعرف من سيكون المبادر أولاً، من يتخطى أولاً. عدنان عليّان صار الأول، كلّفه ذلك عملية قتل واحدة. منذ ذلك الحين وهو يربح من كل شيء. كل العمليات يصل إليه منها ربح معلوم، نسبة ما، إنها خوّة على المتعدّين، على أصحاب الخوّات. ذات يوم حمل الرعب واحداً على أن يرفع مسدّسه ويفرغه في جسده. اختفى الرجل بعد ذلك، قيل إنّه هرب إلى البرازيل لكن عدنان عليّان ظل أشهر طريح الفراش وحين تعافى لم يعد الرجل نفسه. صار يمشي مترنحاً، جسده يميد وأطرافه ترتجف. مع ذلك لم يظهر الذي أطلق عليه، لعله خاف منه حتى وهو في هذه الحال، لم يشكّ في أنه بأطرافه المرتجفة يمكن أن

يقتله. رعب المعتدي جعل من عدنان عليّان مشوّهاً مخيفاً، تشوّهه زاده رهبةً فبهذه الأطراف المرتجفة يمكنه ان يخنق إنساناً، أن يأكل نخاعه، أن يعصر قلبه. ظلّ هكذا مرعباً لكنه لم يحرّك ساكناً بعد ذلك، ينتظر الناس أن يفعل شيئاً لكنه لا يحرّك ساكناً. بقي هكذا كصنم للرعب، كرعب مجسّم في جسد مترنّح وأصابع مرتجفة وعينين جاحظتين.

سمير عليّان قال لي إنهم وجدوا شيئاً في معدته وأنه انتقل إلى الصنوبرية ليرتاح هنا. لم أعرف إذا كان عليّ أن أزوره، صحيح أننا كنا، لا أعرف كيف أقولها، صاحبين. ظللت التقي به من حين لآخر، إلى أن ترك كلانا الصنوبرية. كنّا صاحبين في مطلع شبابنا، رفيقين لا أكثر، نقطع البلدة طولاً وعرضاً كل يوم. كان كذوباً و لم اكن، متشاطراً وأنا خجول. لكن هذا زمن براءتنا. عدنان مع كذبه وتشاطره كان بريئاً. من يظن أن كذباً هوائياً يمكن أن يتحول إلى جريمة، من يحسب أن خجلاً وتردداً يمكن أن يتحولا إلى دسيسة. البراءة يمكن أن تتظاهر في الكذب، يمكن أن تتظاهر في الخجل، يمكن أن تكون ثرثارة، أن تكون متفاخرة، يمكنها أن تهذي وأن تدخل في غيبوبة. لا أحد يدري ماذا سيرتسم عليها.

لا أعرف إذا كان عليّ أن أزور عدنان عليّان. إذا كان علينا أن نلتقي ايضاً. سيكون هذا، بعد كل الوقت الذي مرّ، أشبه بالتآمر، لقاء المهرّب والمجرم. ماذا عندهما ليقولاه لبعضهما البعض. ماذا لدى أولاد الحرب ليقولوا لبعضهم البعض. من سيتهمون إذا الأيام انقلبت عليهم، إذا انتهوا مجرمين تعساء ومهرّبين تعساء ولصوصاً تعساء؟ لن يتهموا الله أو القدر فهم يعرفون أنهم قد تصرّفوا بدونهما. لن يتهموا

أحداً بخيانتهم فهذا ما عليهم أن يتوقعوه. ما فعلوه خيانة استرسلوا فيها إلى حدّ أنهم نسوا أنها كذلك.

مع ذلك فكرت أنه أفضل لي أن أزور عدنان عليّان. فكرت كأنّ عند عدنان عليّان ما يردّه لي. فكرت أن لي عليه شيئاً ما، لم أعرف ما هو، لكنّ ذلك الوقت الذي أمضيناه معاً كان ديناً لي عليه. كان يكتب، بالأحرى كان يقلّد عندما تعرفت عليه، بتلك اليد نفسها أفرغ رصاصه في رأس موظف الجمرك. كانت عندي رغبة وقحة بأن أسمعه يروي ذلك. رغبة وقحة انتبهت لها وخجلت من نفسي. أردت من رفيق التجوال أن يحكيها لي كما لو كانت كذبة، لن أصدّقها كما لو كنا جالسين على بلاط ضريح، كما لو أنه رواها مثلما كان يخترع قصته مع بنت القسّ. هل يسعنا أن نعود لنكذب فوق بلاط الضريح؟ هل نستطيع أن نروي حياتنا كما لو أنها لم تقع؟ لقد وقعت لكن ماذا بقي منها في نفوسنا أكثر من كذبة. فكرت بأن أذهب إلى زيارة عدنان عليّان.

لم يكن الرويس بعيداً. إنه جرف صخري في طرف البلدة. وصلت ولم أحتج إلى السؤال عن بيت عدنان. كان ثلاثة طوابق محاطة بالشرفات والزجاج الدخاني اللون متوج بقرميد، داخل حديقة أزهار مسوّرة وأمام السور أرضية عليها ثلاث سيارات كاديلاك وشفروليه وبيجو. رننت الجرس فأطلت من على الشرفة خادمة سريلانكية قلت لها قولي للسيد عدنان إنني جلال مزهر. بعدها انفتحت البوابة فدخلت وسرت في ممشى مرصوف بالحصى إلى البيت. كان الباب مفتوحاً وعليه خادمة فتحته لي وسارت أمامي إلى صالون شاسع ذي

واجهة زجاجية تحيطه من جانبيه، خمنت أن الطابق الأول عبارة عن صالونات. كانت الكنبات والمناضد والحيطان مذهبة. هبطت بعد قليل امرأة ممشوقة طويلة أكثر من المعتاد ممتلئة وفستانها الأخضر مصرور على جسدها، وشعرها الأسود متهدّل على كتفيها. قالت وهي تزوي حاجبيها إنها زوجة عدنان، ولما لم يبد لها أني عرفتها قالت إنها من البلدة وقد سمعت بي من عدنان. تزوّجت صغيرة ومنذ ذلك الحين كانت تعود إلى البلدة لماماً. لم تلتقِ بي لكنها تعرفني. جلست أمامي على الكنبة المذهّبة ولفّت ساقها على ساقها الأخرى وقدّمت لي سيجارة من علبتها الكِنت ولما رفضت سحبت سيجارة لنفسها وأشعلتها. قالت لي إن عدنان في غرفته في الطابق الثاني وهو يكمل حلاقة ذقنه وسيهبط بعد قليل. هممت بسؤال مرتبك عن صحته لكنها فهمت بسرعة وقالت إن الطبيب يطمئنهم، لا بدّ من علاج طويل، لكن المرض اكتشف مبكراً وهو قابل للعلاج.

طافت بي روزيت بطلب مني في الطوابق. كان الطابق الأول صالوناً شاسعاً تناثرت في وسطه طواقم كنبات وفي طرفه بار. الطابق الثاني للعائلة، غرف نوم ومائدة وصالون داخلي. في الطابق الثالث مطبخ واسع وقاعة للطعام وغرفة للجلوس وغرف للضيوف. صعدنا وهبطنا في أسانسور زجاجي. كان هذا بيتاً للعطلات كما أصرّت روزيت على القول، يمكننا بالمقابل أن نتخيل في أيّ قصر تقيم العائلة بقية السنة. لم نصادف عدنان في جولتنا، كان قد أكمل حلاقته ودخل إلى الحمام. عدنا إلى الطابق الأول لكننا غيّرنا مجلسنا. صرنا هكذا أقرب إلى حديقة الزهور التي رأينا في جانب منها رجلاً قالت روزيت

إنه الجنايني. كان من المناسب أن أبدي رغبة في التجوال في الحديقة. سارعت روزيت إلى مرافقتي. شاهدت الزهور التي أعرفها والتي لا أعرفها والتي تطوّع الجنايني ليذكر لي أسماءها. لاحظت أن بعضاً منها يشبه العصافير وهو على غصنه يوشك أن يطير. عدنا واتخذنا لنا مجلساً آخر في الصالون. بعد قليل سمعنا الأسانسور يهبط ويفتح بابه. وقفت أنا وروزيت وأعيننا على الأسانسور، خرج منه رجل طويل لم أتعرّف عليه، قدّرت أنه عدنان عليّان. كان له طوله وسمرته الحادقة، لم يبقَ منه سوى هذين. كان قد صلع ويتحايل على الصلع برد شعرات متفرقة إلى صفحة رأسه، اكتسى وجهه بتجاعيد بل وأحافير جعلت سحنته مقطبة على الدوام. كان يمشي بتمهل شديد وخطوة خطوة ويرفع جذعه بقدر من الجهد لكن هذا لا يخفي أن في ظهره بداية تقوّس. هرعت روزيت إليه لكنه تأبى عليها بحركة نافرة حين حاولت أن تمسك بيده. حاذرتُ عندئذ أن أتقدّم إليه وتركتُه يكمل صوبي. حين وصل إليّ وقف هنيهةً ليثبّت وقفته وبالتأني نفسه مدّ إليّ يده. عندئذٍ لاحظت كم يبدو مهزولاً. قال أهلاً ولم يزد ففي هذه اللحظة كان يتجه إلى كنبة مستديرة ويبدأ بطيّ جسمه ببطء أيضاً ليستقر بهدوء بالغ عليها. لم يكن يترنّح لكن كمن يقاوم استعداداً دائماً للترنّح. لم تكن عيناه جاحظتين، بالعكس كانتا غائرتين وتتحرّكان في محجريهما بالبطء الذي لجسده. حين تكلم أخيراً تكلم بتأنٍّ شديد وكأنّه يعدّ كلماته:

– أخذتنا.. الحرب.. شباب.. و.. وردتنا.. بعد.. ما غربتنا.. كتير.. على.. مطارحنا.. الأولا.. نية.. إنت.. فجّرولك.. المركب..

أنا.. أنا.. متل.. ما شايف.. كنت.. صرت.. عطيلة.

حاول عدنان أن يبدو أمامي مالكاً جسمه ونفسه. نجح في المحاولة وربما هنّأ نفسه على ذلك. جلس على الكنبة بعد أن وصل بالمشقة إليها. استراح وحرّر نفسه من الضغط الذي فرضه عليها، أطلق إرادته. لا أعرف ماذا أعدّ لهذا اللقاء فهو بالتأكيد على علم به، سمير ابن أخيه أخبره بدون شك. لا بد أنه تحامل على نفسه ليبدو جديراً بقصره لكن لسانه كان أسرع منه. لقد بدأ بالكلمات التي بسرعة أوصلته إلى الحسرة، لذا كان جالساً أمامي وعيناه نديتان بدمع لم يتقطر. بسرعة تدارك نفسه وسألني:

– بعدك بتقرا؟ أنا بعدني بكتب. روزيت جيبيلي الملف.

صعدت روزيت على قدميها إلى الطابق الثاني. كانت مسرورة من طلب عدنان، بعد أن وقفت جامدةً أمامه وهو على وشك البكاء. عادت بعد قليل بالملف. أخرج عدنان منه كتابين مجلدين تجليداً فخماً وكتب على الأول بخط مذهب "نجاوى التراب" بالخط نفسه رسم عنوان الكتاب الثاني "الطابق العاشر". ناولني الكتابين وتركني أقلب الكتاب الأول هنيهةً أخرج بعدها دفتراً سميكاً ألصق على صفحاته المقالات التي كتبت عن كتابيه. تصفّحتها ومرّت عيناي على عبارات من نوع "الروائي الكبير" "الخلاق" "المبدع" "يغوص حتى أعماق النفس البشرية" "المحلق" "الخيال الرائع" "الحكمة النفاذة" "الفلسفة المحكمة" "الحداثة وما بعد الحداثة" "التجديد" "الأدب الطليعي" "الروح الثورية" "الهدم والتدمير" "البناء الراسخ"... كانت الأوراق التي بين يدي حافلة بكل ما يخطر من الثناء والترحيب، ورغم أسماء

معروفة أو واردة فإنها جميعها تبدو تغييباً ركيكاً لنص بلا مؤلف. تركني عدنان أتصفحها ثم أخرج من الملف بتأنٍّ وبطء مقصودين كنزه، مجموعة ترجمات بالفرنسية والإنكليزية والإيطالية والإسبانية والألمانية، لم تكن الدور التي صدرت عنها معروفة لكن ماذا يهم. لقد استطاع عدنان عليّان أن يصنع من لا شيء كاتباً بكل المقاييس. كلّفه ذلك أقل مما تكلفه حديقته. اشترى كتّاباً وناشرين بأثمان لا تزيد عن تلك التي يدفعها لأسطول خدمه. فكرت أن من الممكن تشويش كل شيء وتضييع كل العلامات إذا خطر لكثيرين مثل عدنان عليّان أن يلعبوا لعبته. في النهاية أخرج لي عدنان كتابين عنه أحدهما "الحداثة في أدب عدنان عليّان" والثاني "فكر عدنان عليّان"، الكتابان لدكتورين لم أسمع باسميهما. لا بدّ أنه سخا عليهما بقليل من المال. أتصوّر أنه دسّه في جيب كل منهما كما يحدث عند التظاهر بأن المال ليس هو المسألة والأفضل إغماض الأعين حين تداوله. لا أتابع النقد الأدبي ولا أعرف إذا صار لعدنان عليّان مكانة في الأدب، أم أن كل هؤلاء الذين استكتبهم لم يحدثوا فرقاً. سيكون غريباً أن كل هذا المديح اختفى في ملفه ومرّ بدون أن يلتفت له احد. سيكون اغرب أن ينجح عدنان في استثمار كتابته كما نجح في استثماراته الأخرى. ماذا يبقى للأدب إذا صار استثماراً مالياً، ستكون كلفة صنع أديب كعدنان أقل من كلفة دكان، وسيكون الأدب أقلّ الاستثمارات كلفةً ولن يلتفت إليه سوى صغار المستثمرين. لم يقل عدنان إنه دفع للكتّاب لكني لم أنتظر منه أن يقول، فهذا هو الاستثمار الوحيد الذي لا يذكر أي حسابات. كان الآن مشدوداً على الكنبة المستديرة يكاد جسده،

رأسه وجذعه وقدماه، يشكل قوساً فوقها. كان يرتدي سترة خفيفة سوداء وبنطلوناً رمادياً وقميصه مرخى على جسمه لم يدخله تحت البنطلون كما هي الموضة اليوم. قدّم لي المقالات المكتوبة عنه ورقة ورقة، منتظراً أن أعيدها إليه ليوضبها في الملف، وراح ينظر إليّ وأنا أقرأ عنه بعينين ثابتتين. أعدت إليه الأوراق بدون تعليق، مع أنني أثناء القراءة، لدى كل مديح مبالغ، يفلت صوت من بين أسناني يتلقاه بابتسامة مغتبطة. حين انتهيت من تصفّح الأوراق قلت له إنني لا أفهم النقد لكنهم مدحوه كثيراً. اكتفى مسروراً بهذا الكلام. أظنّه أرادني أن أعلم أنهم مدحوه، تراءى لي أن جسده استرخى قليلاً. أرادني أن أعلم أنه ليس فقط الشخص الذي لا يملك جسده والذي يكاد يترنّح أمامي. بعد أن أعاد الأوراق والكتب إلى الملف بدأ يتذاكر معي أيام صحبتنا، أوائل شبابنا. كان لديه من الذكريات أكثر مما لديّ، حتى إني شككت في أن بعضها لم يحدث وأنه يخترعه ليضيف إلى نفسه فقد كان في روايته بطل القصة فيما كنت أنا مجرد رفيق له. روى لي، بالأحرى لزوجته، قصة حارس المقبرة الذي أراد أن يخرجنا منها لولا أنه تصدّى له. لم يكن لي علم بهذه القصة ولا بتلك القصة التي واجهنا فيها أربعة أشخاص لدى نزولنا إلى النهر، هذه المرة تحايل هو عليهم وتملص منهم. كنت ما أزال محتاراً تجاه هذه القصص، حتى بدأ برواية مغامرته الوهمية مع بنت القس، فتبددت حيرتي وعلمت أن عدنان عليّان ما يزال هو الكذوب الذي عرفته.

أخيراً وصل إلى القصة التي ما زال فخوراً بها، ويريد أن تسمعها زوجته. إنها قصّة مقلب دبّره لي. كنا جالسين على النبع وهذا مكان

يشبه أن يكون داخلاً في الأرض، مظلل باستمرار كأن الشمس لا تصل إليه. وصلنا إليه في نهاية نزهة تغدينا أثناءها في البرية. كنا نحمل معنا صحوناً وملاعق أخرج منها صحنين أعطاني واحداً منهما وطلب مني أن أقلّده في حركته. لا أذكر السبب الذي ذكره لذلك لكنني قبلت لأرضيه. غرف في صحنه ماءً من الساقية التي يجري فيها ماء النبع ففعلت مثله. أخذ يغمس إصبعه في الصحن ويمرره تحت الصحن ويحركه على وجهه. فعلت مثله. ظل يعيد ذلك وأقلّده فيه إلى أن انتهينا. لم أسأله، بعد ذلك خرجنا ومررنا معاً في الساحة وافترقنا كل إلى بيته. لم أكن حتى هذا الوقت أعلم أن وجهي مغطى بالسواد فتحت الصحن الذي معي كان هناك شحتار أسود يغطي إصبعي المبلل بالماء ويستقر على وجهي. كان عدنان حتى هذه اللحظة وبعد أربعين سنة تقريباً لا يزال فخوراً بأنه رافقني وأنا بوجهي الأسود إلى ساحة البلدة وأضحك عليّ الناس. هذه حادثته التاريخية التي سيعود إليها كلما التقينا. لم يكن حتى الآن يملك استعداداً أخلاقياً للخجل من نفسه لأنه ورّط صاحباً في قصة كهذه تعدّت اللعب وغدت مؤذية. سعادته بشطارته ونجاح مقلبه لا تزال هي ذاتها منذ كان في الخامسة عشرة إلى أن تجاوز الخمسين. في ذلك شيء طفولي نما معه ولا يزال فيه. لا بد أن هذا الشيء الطفولي كان أيضاً في الرصاصة التي أفرغها في رأس الجمركي، لا بد أن هذا الشيء الطفولي رافقه في كل احتيالاته وخبثناته. كان فيها كلها ذلك الطفل الذي يدبّر مقالب وينجح في شد انتباه الناس، في إضحاكهم أو إرهابهم بدون فرق. بعد الآن لن ألتقي عدنان عليّان إلا ويعود أمام زوجته خصوصاً إلى هذه الحادثة،

كأنه كان بذلك يعيدها في الواقع ويُضحك عليّ، هذه المرة، روزيت زوجته وابنته لين التي كانت أحياناً تجالسنا. ظل يعود إليها ويكررها حتى شعرت أنا بأنه يهينني ثانيةً وانني ضحية مقلبه مجدداً فقلت له إنه لم يكبر، وإنه لا يزال الولد الذي دبّر المقلب، وإن عليه أن يجد لنفسه حياة حقيقية بدلاً من اجترار قصص كهذه. انكمش هو قليلاً من حديثي لكن هذا لم يمنعه من العودة إلى ذات الحادثة في أول لقاء بعده. أما الذي فاجأني فهو أنّ روزيت لم تخفِ سرورها بما قلته بل كانت نظراتها أثناءه تشجّعني على أن أمضي فيه، كذلك ابنتها لين. الاثنتان أصغتا إليّ ملياً وأنا أتكلم. أرادتاني ان أستمر ومنذ ذلك الحين أخذتا تستقبلانني بألفة فقد صرت من العائلة.

٢٢

صبحية على الباب. كانت العاشرة صباحاً وأنا أستعدّ للخروج لشراء منقوشة زعتر. وضعت الإبريق على النار وكنت لا أزال أزرر قميصي حينما دقّ الباب. صبحية تحمل في يد كيساً بقّعه الزيت. إنه كيس مناقيش بالتأكيد، بينما تحمل في يدها الأخرى باقة من شقائق النعمان. كانت الأزهار يانعة حمراء مضمومة بدون ترتيب، سيقانها تتفاوت طولاً وأزرارها غير متساوية. على الباب هبّت في وجهي وقبل أن أتلفّظ حتى بكلمة "أهلا":

– إيه صبحية، مين غيرها بيسأل عنك. رجال كبير وعايش لوحدو. بقول لحالي خليني أعمل حسنة وأتفقده. الله بيوفق اللي بيعمل خير. صار لي يومين تاركتك. أكيد البيت عايم. زيح لنشوف.

أخيراً تسنّى لي أن أقول "أهلاً بالست". كانت واقفة وقد رفعت شعرها وعقدته ذيل حصان وارتدت بلوزة بيضاء منقّطة بالأحمر وبنطلوناً كحلياً بدت فيه أكثر شباباً. كانت عيناها اللوزيتان أكثر طولاً بخط الكحل الذي مرّ بين رموشها واستطال حتى مآقيها فيما كانت شفتاها تلمعان بحمرة خفيفة. أزاحتني ودلفت إلى الداخل. لحقتها إلى

الصالون. كانت قد ألقت الأزهار على منضدة وأخذت ترتبها بحيث تتساوى أزرارها. احضرت مقصاً وقصت الزائد في سيقانها ثم أدخلت الباقة في زهرية من زجاج فتفرقت الأزهار وتباعدت قبل أن تنحني على جوانب الزهرية وفي وسطها. جرّت منضدةً ووضعت الزهرية عليها وسط مجموعتي الكنبات الثقيلة المخرّمة التي تملأ الصالون. أضافت الباقة شباباً ولوناً إلى هذا الصالون المسنّ. دخلت صبحية إلى المطبخ فيما ابتعدت أنا إلى غرفتي. اجتهدت في أن أغرق نفسي بالعمل وبالفعل نجحت في أن أسجن انتباهي في صفحات من رواية حسن داوود غناء البطريق. أمضيت أكثر من ساعة وأنا في كتابي. لم أشعر إلا وصبحية فوق راسي، سألتني ماذا أقرأ. قلت لها إنها رواية. قالت:

– كنت حبّ القراية. آكل الروايات أكل، بسّ الله يلعن الأيام، بتنسّي، مِنْ لَمّن تجوزت ما شفت كتاب.

سألتني إذا كان في الرواية التي اقرأها حبّ. قلت لها إنه ليس حباً حقيقياً، إنه لقاء مرتبك بين معاق وامرأة ناضجة. قالت:

– ليش وين فيه حب حقيقي؟ إنت أكبر مني وأعرف مني. قل لي وين في حب حقيقي؟

قلت لها إن الحب حاجة ونحن لا نحتاج لشيء غير موجود. إنه موجود هكذا.

– أيّ حاجة؟ مرّات بنحس بجوع وما بنكون جوعانين، مبلى فيه حاجات كذابة. ناس بتحب وما بتسامح بعضها على شي، قال بتحب وبتختلف عَ الزغير والكبير. من أول دقيقة بتبلش تختلف. وينو الحب، وين صار؟

قالت وكأنها تذكّرت:

– شو نظيف. نسيت قولّك شو نظيف. صارلو البيت تلات أيام وما انحطت فيه مكنسة. لقيتو نظيف متل التلج. في رجال وسخين. بساعتين بيعجقوا قصر. إنت مش هيك. يا سعادة البتعيش معها!

قلت لها، مازحاً، إن هذا لم يكن رأي كاميليا التي سرعان ما هربت من هذه السعادة، فقالت:

– ايّ كاميليا. بتظل على لسانك. اللي تركك اتركو. هيدي مرة ما عرفت شو عندها. كان لازم تشكر ربها. بعدين حاج تظل تذكرها. رح تخليني غار. انتبه، أنا كتير بغار.

مع كلمتها الأخيرة انفتلت وتركتني. عادت بعد قليل وفي يدها صينية عليها المناقيش وإبريق الشاي.

– تارك الابريق عَ النار. لقيتو نشّف. لقيتلك غلطة. انبسط. الرجال بيظلّ رجّال، إلاّ ما يغلط.

وضعتْ الصينية على الطاولة بعد أن شلت عنها الكتب. جلسنا نأكل. بعد قليل وجدتها تأخذ يدي التي وجدتها على الطاولة بين يديها وتقول "شو حلوين ديك، متل دين الأطفال" وتضغط على يدي التي نامت مسترخيةً تحت يدها. كان مسّها ليدي هادئاً وهانئاً ومن ضغط إصبعها الصغير امتلأ جسدي شيئاً فشيئاً وفي وقت قصير امتلأت كلي منها. ارتفعت يدي الثانية من تلقائها إلى شعرها المرخي على كتفيها، طويت راحتي على مفرقها ورحت أنزل بها على جانب رأسها، مرّت على شحمة أذنها المدفونة تحت تشابك الشعر ونفذت منه إليها فتناولتها بإصبعين وأحسست لدى طراوتها بأني

أصل إلى منابع الجسد. وأن إصبعي تتغلغل في بؤرته. انتصب جسدي فغلغلت إصبعي في الشعر وفي جلدة الرأس. أزاحت صبحية راسها من أصابعي وسوّت شعرها براحتها ونهضت قائلةً "صار لازم روح" وبدون أن تنتظر كلمتي اتجهت إلى الباب وفتحته وانسلّت منه. غير أن شيئاً خطر لها وهي تهبط الدرج فوقفت في وسطه وقالت من هناك: "بخاطرك".

٢٣

وصل المعلم يوسف باكراً. كان معه صبيّه وصعد الإثنان إلى البيت ومعهما قطع زجاج وألمينيوم. كان المعلم يوسف متحفظاً وتحيته بالكاد خطفها من فمه. خيّل إليّ أنه أشد هزالاً من قبل وحين قلت له "مبيّن ضعفان" قال لي إنه أمضى أسبوعاً مريضاً في فراشه. أفاض في الحديث عن مرضه كما لو أن سؤالي سرّه. صبيّه كان بالشورت وبقميص بلا كمّين رغم برودة الخريف. لم يفت المعلم يوسف أن ينظر بشيء من الاحتقار إلى الكتب التي رآها منثورة على كنبات الصالون قبل أن ينفذ منه إلى الشرفة حيث باشر من هناك تركيب الزجاج. تركته يعمل وعدت إلى غرفتي. ظلّ المعلم وصبيّه مختفيين عني وقتاً طويلاً كنت خلاله أسمع طحشتهما وهما يعملان. جاء الصبي إليّ ليسألني إذا كنت افضّل أن يكون زجاج الحمام محجّراً أم عادياً. قلت له إني أريده محجّراً ورجع الصبي من توّه إلى عمله. كان النهار لطيفاً، أمطرت في الليل وصعدت رائحة التراب وبدت البلدة مغسولة ناصعة، تركت نافذتي مفتوحة ومن هناك راحت نسمة تتسلّل وتلعب بياقتي وعنقي. ظلّت طحشة المعلم يوسف تصل إليّ ثم انتبهت إلى أن وقتاً مضى

دون أن أسمعها. انتظرت أن أرى المعلم وصبيّه. لم يطل انتظاري، سرعان ما وجدت المعلم في باب غرفتي. قال لي، وعيناه أيضاً على الكتب التي رآها على الطاولة، نظرة الاحتقار ذاتها التي خيّل إليّ أنها تشملني، إنه أنهى عمله ويريدني أن أرى. ذهبت برفقته فوجدت الواجهة والنوافذ. لست خبيراً لكن بدا لي أنه عمل متقن. عدنا معاً إلى الصالون حيث تركته جالساً بينما دلفت إلى المطبخ لأصنع لنا قهوة. في الأثناء خرج الصبي من الحمام وشارك المعلم في جلسته. صنعت القهوة رغم إصرار المعلم على عدم تكبيدي بهذا العمل وعدت إلى الصالون حاملاً الصينية. قدّمت القهوة إلى المعلم وصبيّه وفاجأني أن الصبي قبل، وعهدي أن من في عمره لا يطيقونها. سألني المعلم عمّ تتكلم هذه الكتب، وقلت له إنها روايات، وسألني ما هي الرواية فقلت إنها تقصّ حكايات. أما ماذا تقصّ الروايات فقلت له: كل شيء. قصص العمل والزواج والحب والسفر، كل شيء. قال متعجباً: لكن ماذا ينفع هذا؟ أجبته أنه يسلّي مثلما تسلّي أخبار البلدة وتسلّي مسلسلات التليفزيون. لم تكن التسلية عند المعلم يوسف هدفاً يستحق. الناس يتسلّون بالنكات وبلعب الورق وحتى بقصقصة البزر، فما هو الفرق؟ هكذا قال لي، إذا كانت الروايات تتكلم عن الزواج والحب والسفر فماذا فيها لا نعرفه؟ إننا نعيشه ولا نحتاج إلى من يقوله لنا. إننا نحب ونتزوج ونسافر فما الجدوى من أن يأتي إنسان ويجعل كل همه في أن يخبرنا ما علّمتنا إياه الحياة وعجنتنا به التجارب؟ ثم أن هذه الكتب تقول لكل إنسان الشيء نفسه فهل يتشابه الناس بحيث يحتاجون إلى الدرس نفسه؟ هذه ليست كتباً ولا تستحق أن تكون

كتباً. إنها ما ترميه المطابع من أجل كسب تجاري رخيص. الكتاب الحقيقي هو ما لديه، نادر وفريد وأعمى الناس أعينهم من أجل رسمه بل وضعوا نورها فيه. الكتاب يتكلم بالأسرار وعن الأسرار وهو بحدّ ذاته سرّ كبير. ليس همّه أن يقول لنا تلك التوافه المبتذلة التي يعرفها الكبير والصغير. إنه يتكلم بالألغاز والأحاجي وهو بحد ذاته أحجية. الكتاب ينشغل بسر التكوين، بطلسم الوجود، بلغز الخلق وأكثر من ذلك بهذا السر اللامتناهي الذي هو الله. إنه أحرف مرقومة وتربيعات سحرية وأرقام هي بحدّ ذاتها حدود ومن يفتحه يطرق السرّ دماغه ويتوغل في المسالك الخطرة ويقترب من الكشف. الكتاب، كما هو كتابه، لا يوجد بمئات النسخ ولا يتفرق على مئات الأشخاص. إنه واحد لقارئ واحد. الكتاب، كما هو كتابه، يستمر في التفكير وحده، وينمو مع الوقت ويلفظ كلمة السرّ حين يكون هو موجوداً لسماعها. لا بد أن هناك من فكّها لكنه حملها معه إلى قبره إذ لا يقوى على نطقها. إذ لا لغة قادرة على حملها. قد توجد في دائرة أو مربّع لكن ليس أيّ دائرة وأي مربّع، إنها طلاسم وما هو محبوس فيها قادر على زلزلة العالم إذا وجد.

كان المعلم يوسف الذي انتهى لتوّه من قصّ قضبان الألمينيوم وتركيب الزجاج يتكلم وهو ينظر بحقد إلى الكتب التي رآها على طاولتي. كان واضحاً أنه يكرهها، ربما لأنها في اعتقاده أبطلت العلم الروحي الذي وحده يستحق، لا بد أن الأسرار قد هربت من هذا العالم منذ أن صارت الكتب مبتذلة ميسورة بهذا القدر. لما سألته إذا كان لا يزال يشعر بالأرواح امتعض، ربما شعر أن في سؤالي بعض السخرية.

قال لي إنني أيضاً أشعر بالأرواح لكني لا أنتبه. كل الناس يشعرون لكنهم لا ينتبهون. هو متأكد من أن العلم، إذا أخلص العلماء له، سينتهي إلى اختراع رادار للأرواح. نعم رادار يرصد الأرواح ويسجّل مرورها ما أن تقترب. لو كان العلماء مخلصين لكانوا اخترعوا هذا الرادار من زمن لكنهم ضائعون كمؤلفي الكتب، مثلهم يسعون إلى الكسب الرخيص. التجارة أهلكت الجميع. إنهم يخترعون مكنسة كهربائية كأن لا تكفي المكانس اليدوية. يخترعون، وهنا فرقعت ضحكته، آلة للجلي كأن لا تكفي أيادي البشر. مثلهم مثل الكتّاب الذين يقولون لنا كيف نحب ونتزوج ونسافر، كأن هذه الأشياء جديدة علينا، كأننا نحتاج إلى أن نقرأها في الكتب. إنهم يكررون ما نعرفه أو يقلدونه بدلاً من أن يسعوا وراء الأسرار، بدلاً من أن يهتموا بعلم الكون. كان غاضباً حقاً وحاقداً فعلاً. مبلغ حقده أخافني إذ أن إصبعه التي يشير بها إلى الكتب كادت تفقأ عيني. كان يكفي أن أقرأ كتباً لأكون ضالعاً في هذه المؤامرة على الله.

٢٤

لم يقل اسمه هذا الولد السمين الذي حين فتحتُ له سلّمني ورقة من سلمى واستدار عائداً. كانت في الورقة "أنا ببيت اهلي. بدي شوفك. ناطرتك اليوم، الساعة خمسة. رقم أهلي ٣١١٠٧٤٠..." لم يكن تلفون البيت يعمل. بعد وفاة جدّتي تراكمت عليه مبالغ لم يدفعها أحد فقطعوه. كان عندي تليفوني النقّال. طلبتها على رقم أهلها. جاءني صوتها شاباً مزقزقاً كما أعهده "إيه أنا ببيت أهلي. عايم. صارلو زمان ما حدا فتحو. إيه الساعة خمسي بكون فضيت. هلق مهموكة فيه" ولما كان من اللياقة أن أسألها عن زوجها عبدالله أجابت بنفس الصوت المزقزق "تطلقنا. عبدالله طلّقني" ولما سألتها كيف يحدث ذلك في هذا العمر قالت إن عبدالله منذ قام بعملية البروستات أصبح غيوراً جداً، ولما وجدها جالسة مع ابن الجيران الشاب ثارت غيرته "شاب قد ابني" وتشاجرا وفي حدّة غضبه تلفّظ بالطلاق، وكررت هي تقلده "طالق، طالق، طالق"، ولما غادر البيت أسرعت هي إلى خزانتها وارتدت ثيابها وملأت حقيبة صغيرة بلوازمها وجاءت إلى البلدة. قالت إنها عجّلت بالخروج قبل أن يعود هو أو تصادف أحد ولديها

الذي، لا بدّ، سيحاول أن يثنيها عن الخروج. قالت إنها تعبت وتريد أن ترتاح قليلاً في بيت أهلها وبعد ذلك "اللي بدو يصير يصير". قالت إننا هكذا نلتقي بعد كل هذا الوقت وكلانا طالق، وزقزقت "الحاجة هدية مش هون لتفرقنا". ذكرتني كيف طردتها الحاجة هدية حين شعرت أنها تحوم حولي "إيه حسّت إني عم برم حواليك، شو كانت زكيي وقادرة!". منذ ذلك الحين لم أصادف سلمى سوى بضع مرات ودائماً في حضور آخرين. والآن بعد أن تخطت الستين وكبر ولداها تعود مطلّقة إلى بيت أهلها، لكنها لم تكن مهتمة "هيذي مش أول مرة بيلفظ الطلاق، بس أنا تعبت. خلص تعبت. كنت ظل بالبيت، هلّق جيتو عَ كلامو، طلعت من حالي، استحقها، هـ المرّة استحقها". قلت لها إنني ساكون الساعة الخامسة أمام الباب، لكن ليس قبل أن أتهندم واكون لائقاً برؤيتها. زقزقت وقالت "بعدك مهضوم. بس نحنا خلص كبرنا". عندئذ تجرأت وسألتها إذا كانت قد تغيّرت مع العمر، ردّت وهي تضحك "بشو عم تفكّر. إيه بعدني متل ما أنا. بعدني حلوة. فيه ناس بيقولو إني هلّق أحلى".

في الخامسة، كنت فعلاً أمام بابها. تحممت من قبل وحلقت ذقني ورششت كولونيا على وجهي. فتحت لي. لم أصدّق ما رأيت. كانت المرأة الستينية قد نحلت بعد أن كانت من قبل ممتلئة. بطنها ضامر وخصرها دقيق. فستانها الأسود الضيق منحدر تحت صدرها ويربو قليلاً فوق البطن بانحدار سريع، فمها مرسوم خمري وحاجباها مخططان عريضان. ردفها الذي كان عريضاً استقام وهزل ووركاها استويا. كانت فعلاً أرقّ مما كانت من قبل. مكان النضارة والصبا حلّ

جسد مرسوم من رأسها إلى قدميها بتوازٍ واستواء كأنه مانيكان. حتى سمرتها صارت أغمق لكنها منثورة بانبساط على وجهها وجسدها. أزاحت لي حتى دخلت وما أن صرت في الداخل حتى وثبت عليّ وأحاطتني بذراعيها وتسرّب عطرها إلى أنفي. غمرتها بيدي ودسست وجهي في عنقها ورحت أقبّلها. ثم ثملاً بعطرها وملمسها رفعت فمي إلى خدها وقبلتها تحت حلمتها وسمعتها تصدر صوتاً محبوساً. أخذني هذا الصوت إلى عينيها اللتين أغلقتهما بينما رحت أمسهما بشفتي وأطبعهما عليهما. لا أعرف ماذا واتاني لألتقم فمها الذي ما أن أخذته بين شفتي حتى عصرتهما بين شفتيها. انتصب جسدي كله لكنها ابتعدت وقالت:

– شو بيك. خلينا قبل نحكي. صار لي سنين مش شايفتك.

جلسنا على مقعد خشبي فرش بالطراريح. كنا ملتصقين. تكلمنا عن أولادنا، عن زوجها، عن جيرانها في حارة حريك حيث كانت تقيم بعد أن غادرت البلدة إلى بيروت. كان زوجها عبدالله ميسوراً وأنفقت كثيراً حتى تخلصت من زوائد جسدها. هكذا أخبرتني بصراحة. ما زالت شفافة كما كانت من قبل. توقفت عند ردفيها وساقيها. كانت سعيدة أنها تخلصت من زوائدهما. هذا الحديث باعد بيننا. خمدت رغبتي قليلاً، كانت المرأة التي تحدثني مصنوعة كلياً، كانت قريبة من دمية. تراجعت رغبتي. مع ذلك مددت يدي إلى شعرها المتهدّل على كتفيها. انتظرت هذه الحركة حتى تميل إليّ وتلقي رأسها على صدري. غمرتها بيدي التي وقعت على صدرها. على عنقها ثم وجدتها في فتحة صدرها، دسستها تحت سوتيانها وبدأت أملس على جلد نهدها

الذي وجدته صلباً رابياً. وما أن رفعت يدي إلى حلمتها حتى وجدتها منتصبة، امسكتها بين اصبعي وفركتها. كانت حلمة طويلة وواقفة. انتصب جسدي من جديد. انحنيت على وجهها وعصرت شفتيها. سربت لسانها إلى فمي وامتصت شفتي السفلى وحزت أسنانها فيها. انقلبت إلى جنبي فنقلت يدي إلى ظهرها ورحت أتحسّس فقرة ففقرة عمودها الفقري، نزلت يدي إلى ردفها ورحت باسفل كفي احز بين ردفيها. أدخلت إصبعي فيها ورحت أضعه بين فخذيها. انقلبت مرة ثانية وصارت في مواجهتي. حين دخلتها لعلع صوتها واشتعلت ثم نامت حركتها. لحظات وعاد صوتها يلعلع وعادت تعصرني، خمود بسيط وسريع ثم اندلاع من جديد. كانت زقزقتها تصعد من جلدها وفرجها وعمودها الفقري فيما كنت أقذف داخلها.

٢٥

امرأة لم أعرفها من صوتها تقول لي على التلفون إنّ السيد عدنان عليّان يريد أن يتكلم معي. لم تكن هذه زوجته روزيت ولا ابنته لين، لعلها سكرتيرة، لا أدري، لكن عدنان عليّان في الصنوبرية، كما فهمت، ليرتاح فما الداعي ليجلب سكرتيرته معه. لعلها هنا لهذه الغاية، أن تتلقّى عنه تلفوناته وتقدمه لمن يريد أن يتصل بهم. كان صوت عدنان عليّان متحشرجاً في البداية لكنه سرعان ما تمالكه فعاد إلى طبيعته. قال لي إنه وجد بين أوراقه صوراً لنا نحن الاثنين ويريد أن يريها لي. قال إنه اليوم غير مشغول، أعطى لنفسه يوم عطلة، ما رأيي في أن نلتقي العصر عنده، كان هنا ليشتغل أيضاً. إذاً لم تكن السكرتيرة فقط لترتب اتصالاته التليفونية. هذا الشخص الذي كان في فتوته يجرني وراءه على مدى البلدة، طولها وعرضها. يتنقّل، غالباً ضجره، من مكان إلى آخر، صار يشتغل حتى وهو يحمل هذا الشيء في معدته، بينما أنا الشغيل الذي لم يكن يهدأ، مرمي في البيت، لا أجد ما أعمله. لم أكن أتحسّر و لم أشعر بالغيرة من عدنان، فهذا ليس من طبعي، ثم أن الشيء الذي في معدة عدنان لا يترك لي مجالاً لأحسّ بالغيرة. أظنني وأنا أفكر

هكذا ابتسمت. ابتسمت لنفسي وأظن أني رسمت بطرف فمي حركة هي بين الابتسامة والاستغراب. كانت هذه تعليقاً أكثر منها تهكماً.

كانت النهارات قد بدأت تقصر فنحن في تشرين الثاني. أمطرت في الصباح، بجرد زخة خفيفة وحين توجهت إلى فيللا عدنان كانت الأرض لا تزال رطبة. حين رننت على الجرس فتحت لي الخادمة نفسها وقادتني بذات الحركة إلى الصالون. انتبهت الآن إلى أن للاستقبال هنا ترتيباً خاصاً. جلست على ذات الكنبة التي جلست عليها المرة الفائتة. هكذا دخلت بسهولة في الترتيب. فهمت ان عليّ أن أنتظر قليلاً حتى توافيني روزيت لتقول لي إن عدنان يستحمّ أو يحلق ذقنه، بعد ذلك يكون الجوّ قد صار متاحاً لنزول عدنان. بالفعل نزلت روزيت على قدميها. منحتني هذه المرة ابتسامة كبيرة وتقدّمت وعانقتني. قالت إن عدنان يرتدي ثيابه. جلست قربي على كنبة مقابلة. قالت لي إن عدنان سرّ من زيارتي الماضية وهي تتمنى لو أزورهم دائماً فهذا يريح عدنان الذي يكابر ويصبر كثيراً على ذلك الشيء في معدته. دخلت لين، كانت تحمل جاكيتتها بيدها وكأنها لم تُتم لبس ثيابها. نزلت بالأسانسور ومدّت يديها عن بعد ما أن رأتني وكأنها تعانقني في الهواء. اقتربت مني وأعطتني خدها لأقبله. كانت سعيدة بحضوري. انتبهت إلى أنها جاءت قبل عدنان، ليست هكذا جزءاً من الترتيب. تأتي وتذهب على مزاجها. جلست جنب أمها على ذات الكنبة. سألتني وابتساماتها تسبق كلامها إذا كان صحيحاً ما رواه لها أبوها من أنني كنت وإيّاه مشردين نجلس على الصخور وعلى القبور ونهرب من المدارس لنذهب إلى الحرش. كانت الضحكات تبتلع كلماتها وتفرقع

رنانةً فيما النهار ينحسر ويخيّم الظل على المكان ما دعا روزيت إلى أن تنادي الخادمة لتشغّل موتور الكهرباء، وفجأةً نوّرت الفيللا كلها خارجها وداخلها. رجعت لين إلى قصة والدها المزعومة مع بنت القس. كان هذا بالنسبة إليها ماضياً غابراً، غابراً كأنها وجدته في رواية. تشرد ولدين وحكاية حب مع ابنة القس، كان هذا بالنسبة إليها من زمن صار رواية ولم نكن بالنسبة إليها حقيقيين إلا بهذا المقدار، كنا نستختين من كوبرفيلد. نزل عدنان في الأسانسور ومعه خادمة. تقدمته الخادمة في الخروج لكنه بقي بعيداً عنها. من الواضح أنها لم توجد هنا بالصدفة، لكن عدنان لم يرد أن أراه متكئاً إليها. رفع رأسه وعنقه لكن تقوّس ظهره الخفيف لم يختفِ. كان يرتدي روباً رمادياً على بيجاما حريرية لها تقريباً لون فستان زوجته الزيتي الذي انسكب على جسدها وأبرز طول قامتها ودقة خصرها اللذين انسجما مع طول عنقها ووجهها البيضوي فيما كانت لين ترتدي بلوزة زهرية فوق جنزها الكحلي. مشى عدنان بخطوات محسوبة، خطوة خطوة، كان يتوقف لحظة بعد كل خطوة ليعاود المشي. كان قد صار على بعد أمتار من الكنبة، حسبت له المسافة بشيء من الترقّب، وجدته يقطعها بجهد أكبر. كانت أنظارنا عليه وجعله هذا أقوى على المشي، حين قطع آخر متر يفصل عن الكنبة وقف أمامها قليلاً. تحركت الخادمة لتساعده. لكن نظرته إليها ردّتها. وقف لحظة ثم استرخى على الكنبة وصعّد نفساً لم يستطع أن يمسكه. رفع بجهد رجلاً وركّبها فوق الرجل الثانية وطلب بصوت متحشرج هذه المرة كأس ماء، أسرعت الخادمة إلى تلبيته. جلسنا هذه المرة حوله. امرأته وأنا على الكنبة المقابلة وابنته

جنبه. كانت لين أول من تكلم:

– حكيت أنا وعمّو جلال عن لما كنتو مشرّدين.

ضحكت أنا للين وضحكت هي لكن عدنان زوى حاجبيه، انتظر حتى انتهت لين من ضحكها وقال بهدوء:

– لأ يا بابا ما كنّا مشرّدين. كنا نحب الطبيعة، نحب نشوف الحرش ونتأمل النهر ونقعد عَ النبع، متل الرومانطيقيين.

كان المليونير الحديث لا يريد أن تلحق حتى بفتوته وصمة التشرّد، كانت الكلمة تهينه ولا يريد أن تلتصق باي من مراحل حياته. أخذ يتكلم عن "أمنا الطبيعة" ويتلو بصوت متحشرج من ذاكرته عبارات لجبران خليل جبران. حين استرسل لم تطق لين فقاطعته:

– إيه مشردين. شو فيها مشردين. يا ريت فيي إتشرّد. بأيامكن كان في حرية. في طبيعة. في حرش ونهر. هلق بتلاقي قهوة بكل محل، قال منتزه بكل محل، ما عاد فينا نقعد عَ الصخور.

لم يجد المليونير الحديث جواباً. حين حاول ضاع كلامه في حشرجته فحاول أن يتداركه، ولما لم يستطع رفع إلينا وجهاً مكسوفاً، لكن روزيت التقطت منه الحديث:

– بيّك قصدو إنن كانوا يحبو يتنزهو. ما كانوا مشرّدين. كان عندن بيوت.

لم يكن عدنان راضياً عن تدخّل زوجته. لم يكفه أن تقول روزيت إن عندنا بيوتاً. لم يكن في ذلك أي ميزة. استطاع أخيراً أن يلتقط صوته ولو أنه خرج من حنجرته مشروخاً. أعاد هذه المرة كلمة "تأمل" التي عثر عليها في كلامه الأول:

– كنا نقعد نتأمل، إيه نتأمل. نتأمل الشجر ونتأمل النهر ونتأمل الحياة. كنا عم نفتش عن الحرية والسلام. إيه سلام الروح، سلام النفس. متل الرومانطيقيين. لَمّن كنّا نقعد عَ القبور وكنا نفكّر بالموت.

سكتت لين وسكتت روزيت. كان الكلام ابتعد إلى حد لا تطيقه جلسة ولا يمكن الاسترسال فيه. ساد صمت لكن عدنان، وقد أعجبه كلامه، رجع يكرّر العبارات ذاتها التي سبق أن تلاها لجبران. كان الليل قد ساد وقطعه السوداء تظهر من خلال زجاج الواجهة العريض. كان ظلاماً شاملاً تقطعه في البعيد بضع أنوار هي أيضاً لموتورات فالكهرباء لا تزال مقطوعة. قالت روزيت إن العتم يطبق على القلب. تكلم عدنان عن شجاعته في فتوته يوم كان يقطع المقبرة في الليل الحالك الذي لا يرى فيه الواحد نفسه. شهقت لين وزوت روزيت عينيها، لم يكن حديث المقابر مناسباً. كان عدنان قد اندفع في روايته وحين لاحظ أخيراً ابتعاد الجميع تباطأ كلامه وقصرت جمله إلى أن سكت كأنما انطفأ صوته. وقفت مستأذناً الخروج لكن روزيت رجتني أن أبقى للعشاء وكذلك عدنان فبقيت. صعدت روزيت ولحقتها لين. عند ذلك أخرج عدنان من جيب روبه صورتين رفعهما إلى عينيه ورمقهما واحدة بعد الأخرى ثم مدّ يده بهما فاستلمتهما منه. كانتا صورتين في استديو مصوّر البلدة. في أولاهما كنا جالسين على مرتبة خشبية قرب قفص ببغاء المصوّر، أما في ثانيتهما فكنا واقفين أمام حائط ألصقت عليه صورة غابة. في الصورتين كنا هزيلين نرتدي ثياباً فضفاضة علينا، ثياباً مترهلة غير مكوية مطعجة. كنت أدير بصري فيهما حينما لاحظت مزقاً واضحاً في كم جاكيت عدنان. لاحظت،

رغم أننا معاً كنا نرتدي ملابس متواضعة، أن ثياب عدنان رثّة بالقياس إلى ثيابي. فهمت فوراً لماذا انتظر عدنان حتى صعدت روزيت ولين ليريني الصورتين ولماذا أخفاهما في جيب روبه. كان خجلاً من ان يظهر أمام زوجته وابنته بكمّ ممزّق وثياب رثّة. كان في ذلك أشبه بالمشرّدين، الكلمة التي اعترض على ابنته حين وصفتنا بها. أعدت إليه الصورتين لكنه طلب مني أن أحتفظ بهما. طلب والحّ، كان يريد أن يخرجهما من بيته لئلاّ تقع عليهما أعين ابنته وزوجته. لم يقل ذلك بالطبع لكني فهمته فوراً. كان يريد أن يصحّح ماضيه "البري" لكني فكرت "ماذا تراه قال لهما عن موظف الجمرك الذي أفرغ مسدّسه في رأسه".

نزلت روزيت ولين ولحقتهما الخادمة بصينية عليها صحون صغيرة للأجبان والشنكليش واللبنة والزعتر بزيت وصحون مرتديلا ودجاج مقلي وشرائح لحم. بدأنا جميعاً الأكل من الصحون الصغيرة ثم أمسكت روزيت بشوكتها قطعة دجاج ووضعتها في صحني قائلةً:

– مبيّن مش عم تاكل إلاّ جبنة. إذا ناطر عدنان. عدنان، بتكون بتعرف، ما بياكل لحم.

عدنان لا يأكل لحماً. هذا جديد بالنسبة إليّ، في فتوته لم يكن كذلك. اذكر أنه كان يحب اللحم. متى عافت نفسه اللحم؟ لا بد أن هذا حصل في شبابه. كان ما قالته روزيت مدخلاً إلى كلام عن رقّة عدنان، عن رأفته بالحيوانات، عن كونه لا يطيق أن يذبح دجاجة ولا حتى أن يراها تُذبح أمامه. كانت هذه مفاجأة اربكتني. لم أعرف كيف أعلّق على كلام روزيت. فكّرت عفواً بموظف الجمرك. صار

طعم الدجاج في فمي فجأةً كطعم الدم و لم أستطع بسهولة أن ألوك قطعة الدجاج التي التقمتها مسايرة لروزيت. لاحظت أن العائلة كلها نباتية، لم تقترب روزيت ولا لين من اللحم. لم تكن نباتية العائلة تعني لي شيئاً فهتلر نفسه كان نباتياً. لكني لم أستطع أن أطرد فكرة أنها جنت ثروتها من لحوم البشر. حين حاولت روزيت أن تضيف إلى صحني شريحة لحم رفضت بقوة فقد عافت نفسي أكله. كانت هذه مناسبة ليقول عدنان أن من يأكل لحماً يأكل شيئاً ميتاً، أما من يأكل حبة بندورة فيأكل شيئاً حيّاً. لا أعرف إذا كان هذا من تأثير كلامه، الذي لم أتذكر اين قرأته، فقد غصصت وأنا أستمع وكدت أختنق وشحرقت فأحضرت لي روزيت كأس ماء وشربت، لكن صوتي بقي محتبساً ومشروخاً و لم أستطع بسهولة أن أستعيده. لما رجع إلي اعتذرت من كوني سبّبت لهم قلقاً كانت أماراته لا تزال على وجه روزيت. عاد عدنان إلى الكلام عن أدبه، قال إنه يكتب كتابه الأخير، لن يعود بعده إلى الكتابة. نهضت روزيت بسرعة وهي تغالب شيئاً وغادرت، خمنت أنها شرقت بدمعها لما سمعت عدنان يتحدث عن كتابه "الأخير". عادت روزيت مبتسمةً واعتذرت. في هذه الأثناء كان عدنان قد طلب من الخادمة أن تحمل له من غرفته الدفتر الذي على المنضدة جنب سريره. أحضرته فأخذ عدنان يقرأ آخر ما كتبه كما قال. كانت كتابة ركيكة تجتهد بدون نجاح لتقلّد جبران، لكنها رغم ذلك أشعرتنا بحزن فعلي. كان الكلام يغالبه بدون أن ينجح في طرده، لم أكن الوحيد الذي أحسّ هكذا فقد ساد الجلسة كسوف فعلي. المقطع الذي قرأه عدنان قصير وحين أنهاه توجب عليّ أن أبدي

إعجابي، الأمر الذي فعلته بعبارة ملتبسة. قلت له إن المقطع لطيف. أما روزيت ولين فتوقفتا عن شرب الشاي الذي قُدّم لنا بعد العشاء ولزمتا الصمت. حاول عدنان أن يفسّر ما قرأه. قال إنه شعر فجأةً بسأم لا يعرف من أين خطر له لكنه شعور عابر فالحياة جميلة وعلى الإنسان أن يكون متفائلاً. أحسست أنه يراوغ وأن ليس هناك من شيء حقيقي في الجلسة، نباتية عدنان بل العائلة وأدبه وإعجابي المصطنع به، كل هذا فصل تزوير كامل. لم يكن هناك أيّ حقيقة ممكنة في وجود عدنان وحضوره. كنا جميعاً، أنا وزوجته وابنته، نسبح في الكذب.

٢٥

صبحية على الباب، الذي ما أن فتحته لها حتى قذفت في وجهي:

– شو كنت عند سلمى؟ رجعت يا قلبي؟ أنا قلت إنها مش رح تتركك.

لم أكن بارعاً في إيجاد المخارج ولا تمويه الكلام. لم أعرف من أين أبدأ، وحين التقطت بصعوبة طرف الحكي قلت لها إن سلمى بنت خالي وإنها عادت إلى البلدة مطلّقة وعليّ أن أقف إلى جانبها. لما وصلت إلى هنا فرقعت ضحكة صبحية:

– طلّقها. حسّ هَـ الأهبل. بس استنّى. اسبوعين أو تلاتي بيصير يبعت مراسيل ليرجعها. هيذي مش أول مرة. فيه مرتين قبلها وكل مرة بيستقتل ليرجّعها. بس ليش طلّقها بتكون قالت لك.

ولما رويت لها قصة الشاب الذي في عمر أولادها أخرجت من بين أسنانها ضحكة مغتاظة:

– بعمر ولادها ما بيسايل، زغار كبار ما عندها فرق. كلّه متل بعضه، من كم سنة، كم سنة يا صبحية، قول عشر سنين، كانت بعدها صبية وحلوة، كانوا عم يصيفوا بالبلد، لقوا معلّم رياضيات

للبنت. راشد ابن الشيخة. إنت بتعرفو. شاب حلو. صارت تروح عَ السهرات هي وياه. لما حسّ عبدالله طلّقها وبعدين رجّعها. بتقلك بعمر ولادها. ما تعطيها ذينتك. أكيد عبدالله ما شافهن سوا بالصالون. يمكن شافهن بالتخت. مش عارفة شو عندها ليستقتلوا الرجال عليها؟ حظ أكيد. عندها حظ. يا ريت عندنا قدّه.

لا أعرف من أين واتتني عبارة "لا تظلميها" قلتها كأن شخصاً آخر يقولها.

– ما أظلمها. ليش أنا تجنيت عليها. هيذي بتخرب بلد. قديش قعدت عندها. كم ساعة. أكيد ما وفرتك. قل لي، شو عملتوا سوا؟ بتكون بكيت على كتفك وفتّوا سوا عَ التخت...

كانت لا تزال واقفة في مدخل الباب وقد أضفى عليها الأسود الذي ارتدته في الكنزة والبنطلون طولاً زائداً فبدا لها، في غبش العصر، حضور شبحي أثّرت فيه إشارات يدها الكثيرة صعوداً وهبوطاً مع صوتها الذي تعلو طبقته فجأةً. قلت لها أن تدخل.

– ليش بدي فوت؟ شو بدّي إعمل عندك؟ الله يخليلك بنت خالك. أحسن لك هي تفوت.

أدارت كتفها ولما حاولت أن أعترضها وأن أشدها إلى داخل البيت انفتلت مني وتطلعت إليّ بوجه متنمّر. تراجعت قليلاً إلى الداخل فأغلقت الباب في وجهي، ولما عدت وفتحته كانت صارت في وسط الدرج. خرجت لألحقها لكنها من أسفل الدرج نظرت إليّ بذات الوجه وصرخت "اتركني". كنت صرت في رأس الدرج وهممت أن أتبعها لكن عزيمتي هبطت فجاةً فنظرت إليها وهي تنعطف وتولي

شمالاً، وعدت إلى بيتي. أغلقت الباب خلفي وداهمني ذلك الشعور بأني خرجت من عاصفة أو تركتها ورائي، وأحسست برغبة في أن أمدّ قدمي وأريح راسي. استلقيت على سريري وأغمضت عينيّ وتركت راسي يتموّج تحت أجفاني المطبقة. كان طافحاً إلى درجة يكاد يسيل فيها من عيوني. ماذا أريد من صبحية؟ لم أعرف إن كان هذا السؤال ضرورياً لترتيب نفسي. لم يحصل بيننا ما آسف عليه. لم تكن هذه الأسئلة كافية لإعادة هدوئي. ليس هناك ما آسف عليه. لم يكن لصبحية أي رصيد لديّ. لا يعدو الأمر تحرشات صغيرة نتراجع عنها كلانا ونحاذر أن نعترف بدلالتها. كما صعدت نفسي عادت وهبطت، وفيما أنا أرخي راسي على الوسادة أعدت ترتيبها. أخذت أفكّر بسلمى. هل هي كما تقول صبحية متاحة لكل رجل. كان هذا بحدّ ذاته يثيرني. أستمدّ ذلك من شهوات الآخرين ومن تحوّل الشهوة ديناً كما هي عند عاهرات المعبد. رنين طويل ينقطع لحظة ثم يتصل من جديد. أذهب لأفتح الباب. أرى الأرض رطبة أمامه فقد أمطرت بدون أن أشعر وما تزال تمطر. وأرى في العتمة ذلك السواد المنتصب الذي يكاد ينحل في الظلام. إنها صبحية لا تزال تضغط على الجرس وما أن ظهرت في الباب حتى رشقتني:

– إلك عين تشوفني؟ قل لي شو كنت عم تعمل عند سلمى؟

أدعوها للدخول فتمانع بيديها وراسها. أفهم أن هذا تظاهر وأن عليّ أن أفسح لها أن تتسمّر قليلاً فيه، فأدعوها للدخول بإلحاح أكبر وتتابع هي عنادها:

– قل لي. شو عملت مع سلمى؟

تقدّمت خطوة تحت المطر فانزحتُ عن الباب وتركتها تدخل. حين صارت في الضوء أتيح لي أن أراها. كانت العاصفة قد لعبت بها. شعرها تبعثرت خصلاته وتطاير في الريح فبدا منبوشاً والمطر لا يزال يقطر منه. وجهها يلمع من الماء وحول عينها دائرة تبقعت بالكحل الذي سال منها. ثيابها مبللة وأسفل بنطلونها رطب تماماً. خطت في الصالون وانهارت على إحدى الكنبات. سقط تمثال أسود فجأةً، خفت عليه أن ينكسر، ولما وجدته صلباً على الأرض خلت أن هذه إشارة وأن المسألة انتهت هنا. ذهبتُ وأحضرت لها منشفة وبلوفراً وبيدي غمرت شعرها بالمنشفة وأخذت أفركها عليه، بيديّ نزعت كنزتها التي علقت لحظة بشعرها قبل أن تنسلّ منه. تركتني أفعل ومدّت يدها لتدخلها في كم الكنزة وبسطت يدها الثانية لتدخل في الكم الثاني. ولما أخذت أزرّر لها الكنزة وأنا منحنٍ عليها رمت نفسها عليّ وعانقتني. أحاطت بيديها عنقي ودسّت رأسها وشعرها في صدري، قبل أن ترفعهما إلى عنقي وتطبع شفتيها عليه.

– أنا بغار. غرت من سلمى. الناس بتحكي إنو ستّك طردتها لما شافتها بتبرم حواليك. هيه مره أكبر منك. شو بدك منها؟ ختيارة بعمر إمّك شو بدك منها؟ أنا بغار، بغار كتير، لمن قالولي إنو شافوك طالع لعندها طبّق راسي. ما عدت إقشع. مشيت بالهوا والشتا. ليك إذا زاغت عينك ما بتعرف شو بعمل فيك. بقتلك. والله بقتلك. حط بحسابك.

وضعت يدي على شعرها وغلغلت أصابعي فيه. حرّكتها على وجهها وعلى عنقها. رفعت رأسها وتناولت شفتي بفمها وأخذت

تمصّها بشيء من القسوة. دسست يدي في ياقتها وأخذت تمشي على فقرات ظهرها، بينما هي تنتفض لكل حركة مني. دسستها في صدرها. انتصب نهدها الفجّ ووقفت حلمتها. مرّرت كفي تحت إبطها وأدرتها حول بطنها ومددت اصابعي تحت مطاط سروالها. كانت تميل برأسها كأنما حركات يدي تصعد إليه ويفلت لكل حركة صوت من تحت أسنانها. امتقع وجهها وتغيّر لونه. علق قميصها برأسها وأنا أنتزعه فمدّت يدها وخلّصته من شعرها. حينما عريت صدري والتصقت بها انتفضت فجأةً:

– شمّيت ريحتها على جسمك... شو عملت معها؟ بعّد عني.

وبالفعل ابتعدت عنها. تركتها لهذيانها. وقامت هي إلى قميصها فارتدته فوق سوتيانها وانتحت في الكنبة، بينما بقيت واقفاً أمامها. اعتدلت في جلستها وأخرجت من حقيبتها علبة تبغ. عرضت عليّ سيجارة ولما رفضت سحبت واحدة لها. أشعلتها وجلست تدخّن، في وسط السيجارة مدّت يدها إليّ. كنت ما أزال واقفاً، أشارت إليّ أن أجلس جنبها ولما صرت جنبها أحاطتني بذراعها وجذبتني إليها وقالت:

– شو هبلة! أنا فعلاً شميت ريحتها عليك. شو هبلة! أنا حتى ما بعرف ريحتها.

رفعت قميصها فبدا نهداها نافرين من السوتيان. رفعت قميصي وأخذت تشمّني وتقبّلني وتعضوضني في كل صدري، وحين دخلت فيها أكلت شفتي وامتلأ البيت بأنينها، وحين انتهينا وضعت رأسها على الوسادة وراحت في غفوة. فتحت عينيها بعد قليل فلاحظت

أنهما توردتا. قالت لي إنها المرة الأولى التي تعاشر فيها رجلاً منذ مقتل شكيب زوجها. قالت إنها أحبتني منذ وقعت عينها عليّ في بيت أختها. قالت إنها لا تعرف لكن قلبها هتف لي. صحيح أنها كانت تتحرش بي وأن زياراتها لي كانت لهذا السبب، أما أنا المسطول الغبي فحسبت أنها تطلب شغلاً بل وعرضت عليها مالاً. ما كان أغباني لكن هذا أفضل. لو تحرشت بها من أول مرة لكانت جفلت ولجعلها هذا تفرّ. أما سطلتي فجعلتها تفهم أنني لا أنتهز الفرص ووثقت هكذا بي. قالت إن ابن خالتها هلال يلاحقها منذ قتل زوجها لكنها لا تعرف ماذا يريده بالضبط. أحياناً تشعر أن كل ما يريده أن يقفز عليها. هو أيضاً يراها أرملة، أي امرأة متاحة ويحاول مثل الجميع أن يتمتع بها. بعد مقتل شكيب والرجال يتحرّشون بها ليل نهار. تعرف ماذا يريدون منها، لهذا تبتعد، أما أنا فانفردت بها عدة مرات ولم أمدّ يدي إليها، لقد احترمتها، هكذا شعرت، بينما الآخرون يريدونها ليهينوها إذا تركتهم يقفزون عليها. ظلت صبحية تتكلم ساعتين وتركتها تسترسل. كانت تحبس في صدرها كلاماً كثيراً ينتظر هذه اللحظة، وحين تحررت منه نهضت وخرجت.

٢٦

البلدة مانجة بالخبر. ليلى الريّس، التي تزوّجت من سبع سنوات ولم تنجب، نذرت أن تضيء قبر جدّتي إذا حملت، وبالفعل بشّرها الطبيب بأنها حامل. زوج ليلى مالك حمل لوكساً ووضعه فوق القبر فشعشع ووزّع فوانيس مضاءة على القبور المجاورة. من فرط فرحه فعل ذلك. أراد أن ينوّر المقبرة كلّها، وبالفعل شعشعت المقبرة المشرفة على البلدة وخرج كل الناس من بيوتهم ليروها. كانت القرية غارقة في الظلام فالكهرباء مقطوعة لكن المقبرة منورة وعائمة بالضوء. ورغم أن المطر هطل تلك الليلة بغزارة وأطفأ المصابيح، إلا أن كثيرين شهدوا أنهم رأوا نوراً خاصاً من قبر جدّتي ظلّ مضيئاً حتى بعد أن أمطرت. كثيرون شهدوا أنهم رأوا شيئاً يرتفع من القبر مع غبش الصباح. ذلك اليوم زارني كثيرون وطلبوا أي شيء من أثر الجدّة ليحتفظوا به ذخيرة في بيوتهم. كانت لديّ ثيابها ونتّفتُ فستاناً طالما لبسَتْهُ في المنزل إلى قطع صغيرة تفرّقت عليهم ولم يبقَ من الفستان شيء. دار حديث عن بناء قبّة فوق القبر وقيل إن أكثر من واحد من موسري القرية أبدى استعداداً لدفع تكاليف البناء. منذ

تلك الليلة صار قبر جدّتي يُنوّر كل ليلة وبات يُزار لا من أبناء البلدة وحدهم، ولكن من أهالي القرى القريبة. كانت جدّتي على أهبة أن تصبح وليّة، لم يبقَ إلا قبّة القبر.

٢٧

صوت امرأة يقول لي إن السيد عدنان يريد أن يكلّمني. يستلم بعدها عدنان الكلام، صوته المتحشرج يصل إليّ، يضحك وهو يبارك لي بأن جدّتي صارت ولية، يقول إن شيئاً من هذا لا بد سيلحق أبناءها واحفادها، العائلة كلها ستصبح مقدّسة. رغم المزاح استشففت قلقاً في صوته. قال إنه يريد أن يراني، إذا تسنّى لي الوقت سيكون مناسباً أن أمرّ عليه اليوم، ما رأيي في أن أزوره العصر. سنشرب الشاي سوية. اعتنيت بثيابي. سترة جلدية بنية على بنطلون جنز فاتح، من المستحسن أن أكون لائق المظهر أمام روزيت. حينما وصلتُ قالت لي الخادمة إن "البابا" ينتظرني في غرفته. صعدت إلى الطابق الثاني فناداني عدنان إلى الصالون العائلي، قال لي إن روزيت ولين في بيروت. شيء من خيبة صعد إلى عيني، لكان أفضل أن تجالسنا روزيت، فأنا أحب مجالستها، وإني على الأقل لا أحب الانفراد بعدنان. كان عدنان في روبه ومشايته شبه ممدّد على كنبة طويلة ليس لها مثيل في الصالون، كأنما أُعدّت له. أشار لي أن أجلس على كنبة مقابلة بعد أن حاول النهوض لتحيتي، وحلفت عليه أن يبقى جالساً وصافحته وهو قاعد.

بقينا صامتين برهة، ضغط عدنان على زرّ في ذراع كنبته فجاءت خادمة على الرنين الذي وصل إلينا بعيداً. طلب منها الشاي. عاد إلى حديث جدّتي وكأنه يتابعه من حيث توقف في الصباح. بدا أنه هكذا يريد أن يفتح الكلام بيننا. سايرته في الضحك. انتظرنا حتى جاء الشاي. رفع عدنان كأسه وقال وهو يقرّبه من فمه إنه يريد أن يسرّ لي بشيء يهمّه كثيراً أن لا يخرج من بيننا. وعدته أنه سيبقى بيننا لكني صارحته باني لا احب حمل الأسرار فذلك يشعرني بمسؤولية لا اطيقها، لا اريد ان اقاسم احداً شيئاً لا يخصّني. كنت فعلاً لا اشعر باي شوق إلى معرفة سرّه وأتمنى أن يعفيني منه، لكن هذا الاعتذار أطلق لسانه، تمطى في كنبته وقال إنه شيء يريد أن لا يختفي معه. لا يعرف الدافع إلى أن يسرّ لي به. لكنه البارحة طبخ الفكرة في رأسه وقرر أن يفعل. لا يعرف الدافع لكنه شيء يريد أن يخرجه من قلبه. شيء يغلي في قلبه ويريد ان يخرج. قال تعرف أنني انتميت في البداية إلى حركة رواد الثورة. وهي، كما تعلم، تنظيم عنده أخلاقيات صارمة. لكنها الحرب. سرعان ما بدأت سرقة السيارات، كابرت الحركة ورفضت، لكنها الحرب. القواعد تسقط من تلقائها وبدون أن ينتبه أحد، وحتى قبل أن نجد سبباً. هكذا خدم الانضباط الصارم في سرقة السيارات. صار القتل سهلاً وعلى الهوية ولحقنا أنفسنا قبل أن نصبح مزورين وقتلنا على الهوية. بدأ القنص في المعسكر الآخر وكان لا بد أن ينتقل إلى معسكرنا. صار العسكريون مفوضين بأن يفعلوا كل شيء. إنها الحرب وعلينا أن نربحها بأيّ ثمن. دعانا القائد سليمان، كنا عشرة، قال إنهم سيرسلوننا إلى دورة قناصين. تعلمنا أن نصيب أيّ شخص

يمرّ ضمن المربع الذي نراه في المنظار. كنت الأول في الدورة. لم يفلت مني هدف. صعدنا إلى سطوح البنايات والطوابق العالية وبدأنا. بالنسبة إلي كان القدر يجرّ الأشخاص إلى مربّعي. لم يكن لي يد، كنت في خدمة القدر. تسألني إذا التقت عيناي بعيني أحد الضحايا، أقول لك إنه لا يمكن أن تلتقي أعيننا عبر المربع. إنها لعبة مع القدر. وحين يسقط الآخر من أول طلقة فهذا يعني أن قدره نفد وأننا لا نستطيع له شيئاً ما دام هذا قدره. لا أريد أن أخفي عنك، لم اشعر بأيّ ذنب. الذين يقتلون على الهوية يستمعون إلى توسلات ضحاياهم، أما نحن فلم نكن نسمع سوى طلقتنا ونراها أصابت. إنها رياضة، قتل نظيف تماماً. كنت لا أقرأ الجرائد، لا أريد أن أعرف أن لضحيّتي اسماً. لا أريد أن أرى له صورة. لست مسؤولاً، لقد جاء بنفسه إلى مربّعي. لو ابتعد خطوة نجا، إنه ليس حكمي، إنه قدره. كانوا يتكلمون عن ضحاياهم، أنا لم اكن أفعل. بمجرد أن يقع الحادث أتنصل منه. أتظاهر بأنني لم أفعله. أنجح في النهاية في إقناع نفسي بأنني لست أنا الذي فعلته، إنها لحظة وأنا لا أستطيع التأكد منها. حينما مرّ ذلك الرجل مع طفله. أردت أن أصيبه هو. تراءى لي أن طفله يشبه ابنتي. تراءى لي أن الرجل يشبهني. كان هناك اثنان يشبهانني أنا وابنتي. أردت أن لا أقتلهما. لكنهما صارا ضمن مربّعي. أردت على الأقل أن لا أصيب الطفل. لا أعرف ماذا حدث وسقط الطفل. تلك اللحظة شعرت بأني أصبت ابنتي، أصبت نفسي. نزلت بسرعة ومن أعلى البناية إلى الشارع. كان الناس ما زالوا متجمعين. أخذت طريقاً آخر. هربت. شعرت هذه المرة بأني جبان. كنت أهرب من القدر، من قدري. كان

حكمه عليّ هذه المرة. حين أفرغ ذلك الجبان مسدّسه فيّ تذكرت فوراً ذلك الطفل وهو يسقط. كأنما الطلقة جاءتني وكأنها ارتدّت إليّ، من ذلك المكان.

٢٨

بعد المعجزة الأولى كانت الثانية. عجوز تنازع نذروا لجدّتي فقامت من فراشها بعد أن تيقنوا من أنها على شفا الموت. قالوا إنها قامت بعد أن برئت من كل شيء. ورغم أن المرأة انتكست و لم تقم من فراشها هذه المرة فإن حديث المعجزة ظلّ وارداً. بعد ذلك صارت المعجزات تترى. معجزات سريعة، خفيفة لم تتجاوز في أحيان منع الأذى. طفل وقع وجرح في رأسه لكنه سرعان ما قام ليلعب. فتاة صدمتها سيارة لكنها لم تؤذها رغم أن الصدمة رفعتها عن الأرض ورمتها ثانيةً فوقها. بعد ذلك صار الأولاد ينجحون في امتحاناتهم بقوة نذرها. وصار الكبار يفلحون في أعمالهم بفضل النذور وجاء وقت لا يتم فيه عمل ولا ينجح إلا برعايتها، حتى تلك الأمور العادية التي لا تحتاج إلى نذر كأن يتصالح زوجان أو يتحاب اثنان أو يتفوق ولد في امتحانه أو تحظى الفتاة بخاطب ميسور وتغل الأرض موسماً جيداً. يتناقل الناس كراماتها ويبتكرون لها ويضيفون تلك التي يعرفونها عن آخرين. زالت الشكوك، حديث على حديث وقصة على قصة وتغدو الأمور أكثر حقيقيةً كأننا نراها بالعين، أو نلمسها باليد. كل خبر يثبت ما

قبله ويجعله أصدق وأكثر بداهةً. لم تعد زيارة القبر وحدها المقبولة. إذ لم أستطع أن أغلق بابي في وجه الذين يتبركون بزيارتها في بيتها. كنت راضياً باستقبالهم والطواف بهم في أركان المنزل وكأني بذلك خادم الضريح.

كنت راضياً بانتصارنا على "أهل السراط". أقرّ الجميع بأنهم حطّموا المنزل، وآخذوهم على أنهم بلا شفقة ولا احتياط فعلوا ذلك. لكنهم لم يكونوا في البلدة وحدها. كانوا كثيرين في القرى المحيطة. إذا ربحت جدّتي عليهم في الصنوبرية فلم يكن الأمر كذلك في القرى التي غالباً ما تتحفظ تجاه البلدة الأكبر وتؤاخذ أهلها على تقليدهم سكان المدن. إذا كانوا قد صاروا شحيحين جبناء والتوى لسانهم وارتخى في النطق، وما عادوا يحفظون للأقارب والمسنين احتراماً وما عاد فيهم شاعر ولا متكلم، فكيف نركن لرواياتهم وكيف يمكن أن تكون بينهم وليّة. كانت روايات البلدة عن جدّتي تصل عرجاء إلى القرى ويتكفّل "أهل السراط" بتوهينها والاشتباه بها فلا تصمد. لم يجز على أهل القرى أن تخرج من الصنوبرية، هذه البلدة المائعة، وليّة، كانوا أحق بأن تنشأ عندهم ولية. لم يشتهر أهل الصنوبرية بالتقوى ولا النخوة فكيف تخصهم العناية دون غيرهم؟ ثم أن هذه الولية الناشئة كانت عشابة ومداوية ولم يعرف أن بين العشابين والمداوين أولياء. قد يكون بينهم سحرة، قد يتصلون بالشيطان، والحاجة هدية لم تنجُ من تهمة كهذه، وبعيد أن تغدو بين يوم وليلة من الأولياء.

أهل السراط بثّوا ذلك في القرى. ملأوها غضباً على البلدة التي سرقت خيرهم ولم تكتفِ فسرقت دينهم، صحيح أن أهل السراط

اختفوا في الصنوبرية أو تجاهلهم أهلها وما عادوا يرونهم، صاروا بالنسبة إليهم في حكم المختفين. لقد التفّوا حول وليّتهم، إنكار القرى جعلها محور عصبيتهم. صارت أمّ البلدة وشعارها. في الحقيقة، جفل "أهل السراط" أياماً ثم عادوا فتجمعوا، لم يكونوا قلة و لم يكونوا مجهولين، كانوا أركان البلدة. الحسينية والمقبرة والجامع في عهدتهم، الحاج مهدي وجيه البلدة وابنه رئيس بلديتها وابناه الآخران موظفان مهمّان واعتماد البلدة عليهما. لم يكن ممكناً أن يطول تجاهل "أهل السراط"، أول وفاة حدثت في البلدة وعاد هؤلاء ينشطون في مراكزهم. أول مناسبة دينية وقاموا على كل شيء فيها. جفلوا في البداية ثم عادوا للهجوم. هذه المرة لم يحطّموا المنزل. انتظرت أن يفعلوا ذلك و لم يفعلوه. بقيت أياماً انتظروا أن يفتحوا عليّ الباب ويعيدوا كسر الواجهة. المعلّم يوسف جاءني بنفس الهاجس ولما وجد زجاج الواجهة سليماً ترحّم على الحاجة هدية ورجع من جديد إلى حديث الأرواح. قال إنه متأكد أنها تظهر على شاشات الرادارات لكن القائمين عليها لا يعرفون أو أنهم يعرفون وينكرون، لا يناسبهم أن يعترفوا بذلك. لو شاع لعلم الناس أن علمهم باطل وأن ما يتبجحون به هراء. لو شاع ذلك لعلم الناس ما يخفون عنهم، لعلموا أنهم يؤخرون ظهور العلم الحقيقي ويتكتمون على الحقيقة. ظلّ يتكلم ساعة ثم قال إن أولاد المدارس هؤلاء الذين درسوا علماً ركيكاً وديناً ركيكاً أيضاً لا يريدون أن تظهر كرامات الحاجة هدية. قال إنه متأكد من أن علم الحاجة كان كبيراً وإنها كانت تداوي أفضل من أي طبيب بمعونة الأرواح. قال إنه يظن أن الأطباء هم وراء هذه الحملة عليها، الأطباء

الذين يدّعون علماً باطلاً هم وراء حملة "أهل السراط". قال إنه متأكد أن طبيباً، لا بدّ أن طبيباً، هو الذي يوجّه "أهل السراط"، هؤلاء الأطباء الجبناء الذين يفتحون بطون الناس وقلوبهم وأحياناً رؤوسهم ليعرفوا سرّ الخلق وهيهات أن يعرفوه. كنت غاضباً مثله لكن غضبه مع ذلك اضحكني. سألته إلى أين وصل في تعليمه فقال إن والده أخرجه من المدرسة بعد الشهادة الابتدائية، كان شاطراً في الصف لكن والده أخرجه ليعاونه في الدكان. بعد ذلك تحسنت الحال فبقي أخواه في المدرسة وصار أحدهما طبيباً، نعم صار طبيباً مقصوداً وعيادته في النبطية معروفة. لم أسأله عن رأيه في طب أخيه، لكنه قال من نفسه إنه يفحم أخاه وإن أخاه لا يجد جواباً عليه.

الخلاف على ولاية الحاجة هدية صار شقاقاً بين الصنوبرية وقراها. صار رفض القرى لها في الحقيقة رفضاً لولاية الصنوبرية عليها، صار الخلاف بسرعة نزاعاً أهلياً. كان "أهل السراط" الذين نشأوا في الصنوبرية ينحسرون عنها ويتحولون إلى مجموعات قروية. لكن ما يشيع في مجالس القرى لا يعتم أن يصل وربما في دقائق إلى ساحة البلدة. لم يقم أحد وزناً لهذه الأحاديث التي تقول إن الحاجة استعانت في طبها بالشياطين وكان طبها سحراً، فقد شبعت الصنوبرية من هذا الكلام وطوته في حياة الحاجّة. لكن الحديث الذي استفز أهل الصنوبرية وأضرم الخلاف من جديد هو أنهم وجدوا أصناماً في بيت الحاجّة، أصناماً قبيحة سوداء على هيئة الشياطين. كان هذا بمثابة القول إنهم وجدوا الشيطان نفسه في بيت الحاجة هدية. أصنام سوداء، تذكرت وانا أسمع الخبر الشخوص السوداء التي نحتها جدّي من حجر عكار.

لم تكن هذه سوى طبيعة الحجر، هياكل مديدة لمخلوقات تعيش في باطن الأرض وكائنات خيطية ورؤوس مفتوحة الأفواه. كأن هذه الأشكال كانت مضمرة في الحجر وبإزميله كشف جدّي عنها. لم تكن هذه المنحوتات سرّاً. كان جدّي يضعها في حجرات كوّنها من أساس المنزل وكان يتركها هناك ما دامت جدّتي تتشاءم من سوادها، ولربما خشيت من أن تنقلب أصناماً، لكن مداومة جدّي عليها جعلها أقل توجساً منها فسمحت لجدّي بأن يعرضها في الصالون. بالتأكيد رآها الزوار الذين كانوا أحياناً يتهافتون على جدّتي. رأوها و لم يألفوها في الغالب، سوادها وخشونة قشرتها لم يجعلاها أنيسة، لكن أحداً لم يقل إنها أصنام، و لم يشك أحد في أنها أصنام. لا بد أنها حيّرت من رأوها. لم يفهم احد أن طفولة جدّي انقضت بين هذه الأحجار السوداء وأنه كان يستعيدها فيها. لم يفهموا كم سحرته الكائنات التي تخرج من باطن الأرض وكم كان بعض الأشخاص بالنسبة إليه ألغازاً، وكم عاني من صمته وكم أراد من يده أن تتكلم عنه. كان كثيرون رأوا هذه المصنوعات السوداء وتعجّبوا منها، لكن لم يخطر لهم أن يعرفوا ما هي، ثم يأتي أشخاص ليقولوا إنها أصنام. لم يعرفوا ما هي و لم يكن عندهم ما يدافعون به عنها، ثم من الذي يدافع عن حجر أسود؟ من الذي يجعل من حجر أسود قضيته؟ إن لم يكن صنماً، فإن الحجارة مكروهة لأنها خليقة بأن تصير أصناماً. كان أكثر الناس يعرفون أن جدّي هو الذي صنع هذه الحجارة لكن فارس العكوم مات وأنسي، وهذا بيت الحاجة هدية، بل هذا مزار الحاجة هدية، وكيف لمزارها أن يحوي أصناماً؟ هذه المرة كان هجوم "أهل السراط" لا يجد من يردّه.

لم يقتنع أهل الصنوبرية به، لكن لم تكن لديهم حجة في وجهه. لم يكن لديهم سوى الصمت. يعرفون أن جدّي هو الذي نحت لكنه صنع ذلك في بيت الولية وتحت نظرها. هذا بالتأكيد لا يخدم قضيتها، لم يكن سوى الصمت في المواجهة، لكن الصمت كان أيضاً سكوتاً عن ذكر الحاجة، وسكوتاً عن النذر لها، وسكوتاً عن الكلام عن مقامها، وسكوتاً عن مشروع القبة فوق ضريحها، وسكوتاً عن تنوير قبرها. في الداخل كان هناك شيء من الضغينة تجاه "أهل السراط"، هؤلاء كسروا بهجتهم، هؤلاء خطفوا منهم ولية. استكثروا عليهم أن تكون من بينهم، هم أهل الصنوبرية، ولية، كأن القرى المحيطة أجدر بأن تكون منها.

كان يمكن أن نلاحظ همود الصنوبرية. ما أن بدأت قصة الأصنام حتى قلّ الاجتماع في الساحة، وقلّ الجلوس في المقهى، ومن داوموا على ذلك كانوا يكتفون باللعب وقلّما يشتركون في نقاش. ما دام "الموضوع الأساسي" متجنباً فإن الحديث الذي يبقى لا يعنيه أحد ولا حاجة له إلا لقطع الوقت. لقد أوقعوا بالصنوبرية خسارة لا تستحقها. ظلّ ذلك أشبه بقلق الانتظار إلى أن صحا الناس فوجدوا شاهد قبر الحاجة هدية مقلوعاً. لقد وقع الكسر هذه المرة في المقام نفسه. تبدّل جوّ البلدة مرّة واحدة. بدل الهمود حلّ الحراك. في كل مكان، وكل مجلس وأمام كل دكان كانت صيحات الاحتجاج "أمّا سفالة، والله كفر. لو بيخافوا الله ما بيعملوها".

حضرت من طرابلس سلوى بنت الحاجة الوحيدة الباقية في لبنان من أبنائها، فصاحبها عشرات من البلدة إلى المقبرة حيث وجدت

الشاهد منصوباً من جديد فقد عجلت البلدة إلى إعادة رفعه. طبعاً توجهت التهمة إلى "أهل السراط" لكن هؤلاء أنكروا واحداً واحداً، بل إن الحاج مهدي حلف بأنه لا يعلم. وصدّقه الناس فالحاج حكيم ومؤمن قارب السبعين ومثله لا يتورّط في صنيع أولاد كهذا.

٢٩

خطر لي أن أزور الحاج مهدي. صبحية أشارت عليّ بأن أزوره وبالفعل توّجهتُ إلى بيته الذي كان في الرويس أيضاً وغير بعيد عن دار عدنان عليّان. فيللا بيضاء من طابقين وسقف من قرميد. انتبهت حين لم يرنّ الجرس إلى أن الكهرباء مقطوعة فقرعتُ الباب بيدي. كانت العاشرة صباحاً وليست أنسب الأوقات للزيارة. حمي الطقس بعد أن بدأ الصباح الخريفي بارداً. تأخّروا حتى فتحت الباب سيّدة ستينية لم أعرفها. لكنها عرفتني وترحّمت على جدّتي. أظنها جارة للحاج، قادتني إلى صالون واسع جداً ضمّ كنبات من طراز كلاسيكي وأخرى من طراز حديث اصطفّت بعضها جنب بعض مع كراسٍ في الوسط بحيث أحاطت بالصالون. انتظرت قليلاً حتى جاء الحاج الذي نطق "أهلاً وسهلاً" وهو بعد في الباب. لم تبدُ السبعون على الحاج. كان ممشوقاً مائلاً إلى الطول أنيقاً في بدلته الرمادية ونظارتيه السوداوين وشعره الأبيض الناعم المفروق. هو الآخر عرفني وترحّم على جدّتي وقال إن البلدة خسرتها وهيهات أن تأتي الأيام بامرأة مثلها. هذه البداية سهلت لي أن أنتقل إلى موضوعي. قلت له: لكنها

يا حاج ليست ساحرة. استنكر الحاج ذلك مجيباً: ولكن من قال إنها ساحرة؟ ولما أجبت بأنهم جماعته استغربت لما أجابني بانهم أولاد أولئك الذين يقولون ذلك، دعك منهم، لا تؤاخذهم. قال: اهتمّ بالكبار. معاذ الله أن نقول إنها ساحرة. أضاف أنه يعرف الحاجة، يعرفها مؤمنة وقادرة وصاحبة عقل. ليت كل نسائنا مثلها. خلت أن المسألة ستقف هنا لكن الحاج انتقل فوراً إلى "الموضوع" قائلاً إنه إذا لم تكن الحاجة ساحرة فهذا لا يعني أنها ولية. نحن لا نعرف مقامها عند الله فكيف نمون عليه ونجعل لها عنده المقام الذي نريد. كيف لنا أن نقرر أنها ولية من الآن. ثم أنها امرأة. الله لم يرسل نبية، لا بدّ أن لذلك سبباً، وحده يعرفه، لكن هذا يمنعنا من أن نعيّن من لدننا امرأة لولايته. الله لم يرسل امرأة نبية فما الذي يدرينا أنه يريدها ولية؟ هذا خلط كبير، لعب بالدين وبالإيمان. قال إن علينا أن لا نترك الدين للناس البسطاء يديرونه كما يريدون. هذا دين وليس أي شيء وله رجاله وعلينا أن نسالهم، أن نتركهم يدبرونه ولا نقطع بشيء إلا من تحت مشورتهم. لم ينتظر حتى أسأله عن كسر الشاهد. قال إنه إلى الآن لا يعرف من فعلها.

– مصيري أعرف. لكن هذا أكيد قاصر، إذا مش بالعمر، بالعقل. للقبور حرمة. كيف إذا كان قبر مرة مؤمنة؟

اكملت شرب كاس الشاي الذي أحضرته الجارة وعزم عليّ الحاج ان أشرب كأساً ثانية لكني اعتذرت. سلّمت على الحاج الذي صاحبني حتى الباب وهو يترحّم على جديّ الاثنين. كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها ذكراً لجدّي فارس العكوم.

٣٠

كنت إذاً ابن جديّ أكثر مني ابن أبوي. بل كنت بالكامل ابن جديّ. في الحقيقة لم تكن جدّتي أمّاً حقيقية، كنت أعرف أن ليس للواحد أمان، إنها اسنّ من ان تكون أمّي. جدّي أسنّ من ان يكون ابي. ان الأمّ في هذه السنّ لا تكون أمّاً والأب في هذه السنّ لا يكون أباً. كان هذا العمر يمنعني من أن ألتصق بهما. لم أغادر مرة في الليل إلى فراش جدّتي، وهي قلّما حملتني بعد سفر اهلي، وأنا لم أكن أحب ان تحملني ولا أحبّ أن أتنشق صدرها الذي لم أحب ترهله. كما أنني لم أحب أن أتنفس رائحة شعر جدّي الذي كان مدعوكاً على صدره. كانت جدّتي نحيلة لكني لم احب هزالها وحسبت أن العمر يحيل العظام حطباً، كما أن كرش جدّي النافر كان مدعاة لاشمئزازي. باختصار كان جديّ بالنسبة إلي عجوزين متيبسين لا أريد أن أتحدّر منهما، لا أريد أن أخرج منهما، لم أظن أن لهما حقاً عليّ. في الواقع كانا طويلي البال، جدّي لم يرفع يده مرّة عليّ وجدّتي قلما كانت تزعق في وجهي. بينما كان الصغار الذين أعاشرهم يشكون دائماً من جور اهلهم ويحسدونني على أنني اخرج والعب بحرية، يحسدونني

على أنني أنفق كما أريد والنقود دائماً موفورة في جيبي. لم يكن هذا تدليلاً، إذ كنت أكره أن يدللاني، وأكثر ما كنت اكرهه أن يلمساني او يحضناني. عندئذٍ أشم رائحة أعافها، هي تقريباً رائحة الشيخوخة، رغم أن جديّ في طفولتي لم يكونا طاعنين في السن. هما شعرا بذلك او اعتبراه نضجاً مبكراً فارتدعا عني. جدّتي كانت تريدني كبيراً في صغري لذا عاملتني كرجل و لم تكن تصرّ على تقبيلي إلا في الأعياد. حتى في هذه كنت أجفل وأنزوي عنها.

كان أبواي يراسلانني. أبي يكتب وأمّي تخطّ نصائحها هامشاً في ذيل الرسالة. كانت جدّتي تريدني دائماً أن أقرأ لها ما كتباه لي، تريد أن تسمعه بصوتي، هكذا تتأكد أنه دخل فيّ وجرى في جسمي. هكذا يتحرك دمي لسماع والديّ. لكن الوقت مضى واستغنيت عن والديّ وكوّنا هما عائلة لهما واستغنيا عنّي. كأنهما مع الزمان خرجا من دمي. لم يكن لي إخوة لذا لم أجد من أغار منه ومن ينازعني على حبّ أهلي. اكتفيت بأصحابي. حلّوا محلّ الأخوة بدون أن يكونوا أخوة. لم تكن بيننا صلة الدم القلقة التي تتم في إطارها المخاوف والنزاعات والاستحقاقات المربكة. كنا نلتقي ونفترق ونتصالح ونختلف بدون هموم، كانوا هم عائلتي، أو حلّوا محلها بدون أن يكونوها. حين جاء أخي ألفونسو من كولومبيا لم يكن يعرف العربية. وليست الإسبانية لغتي. لم أتردّد، أعطيت أحدا أصحابي مالاً وطلبت منه أن يرافقه ما بقي هنا. بعد ذلك صار الحزب عائلتي. جدّاي كانا بالنسبة إليّ كبقية الناس، اثنين قريبين لم يكونا وحدهما القريبين. مثلهما مثل الحلاق الذي أقرأ المجلات عنده وصاحب المكتبة الذي اشترى منه مجلات

الأطفال المصورة وخالي وزوجته وخالتي وزوجها. كوني أقيم معهما لم يجعل لهما ميزة. كان البيت ينغلق علينا معاً لكن هذا لم يجعل منه حضناً، لم يجعل منه عشاً، كنت آكل وأنام فيه لكني مستعد لأن آكل وأنام في أيّ مكان، قلما افتقده أو احنّ إليه. ليس أكثر ألفةً من ساحة البلدة أو المقهى أو بيوت اصحابي، هذه جميعها لا تفترق عنه كثيراً ولا أجد نفسي فيها أقل مما اجدها فيه. كنت قادراً على أن أكون انا نفسي في اي مكان. إذا اعتبروا البيت داخلاً فأنا لا أفرّقه عن الخارج، في الواقع كان الخارج يبدأ منه، كنت دائماً في الخارج، لا اعرف حيّزاً لي ولا حدوداً. افكر واشعر كأنني شخص آخر. اتصرّف غالباً بشيء من القبول، شيء من الايجاب، لا املك تلك العواطف السلبية التي تجعلني مفاجئاً وصدامياً. لا أعاني في سبيل ان أتصرف. سلوكي يخرج مني تلقائياً ولا يصادف ما يعيقه أو يحرفه. ردودي غالباً في محلها وغالباً كما يجب. لا اخاف ولا اساير لكني لا أغيظ أو استفز فجوابي دائماً واحد، لا أملك سواه كأني مبرمج عليه. يقولون إني صريح وأنا في الحقيقة لا أجد غضاضة في ان أقول ما يتراءى لي لأني لا أعرف غيره ولا أجد سواه في عقلي ولا أعرف أن أقول إلاّه. لا أعاني علاقاتي من بالآخرين، لا أوارب ولا اخفي ولا أتحايل ولا أخترع، كل هذا يحتاج إلى اجترار للنفس لا أملكه ولا أقدر عليه. أنا، إذا جاز القول، إنسان خارجي، حتى حين أكون وحدي فأنا أفكر كأني شخص آخر. لست مشحوناً بالمخاوف والمشاعر السلبية وعقد الذنب والارتياب فداخلي ضحل وصاف وغير مضطرب، وكوني بلا أهل حرّرني من أن أكون مليئاً بمشاعر الذنب او مذعوراً تجاه مثالات صعبة وغير ممكنة البلوغ.

جوابي هو غالباً الوحيد الممكن وقلما يحيّرني القلق أو يجعلني معذباً أو متردداً بين خيارين. لقد خرجت ناجياً من الطاحونة الأمومية، الطاحونة العائلية، وبأقل قلق ممكن.

٣١

أستاذي بشير مبيّض أخذني إلى الحزب. جاء بشير من بيروت لأنه وجد عملاً في المدرسة الإنجيلية في النبطية. درّسنا العلوم الطبيعية. حين دخل إلى الصف لاحظنا أنه يمشي تقريباً على أطراف أصابعه ويتسم كثيراً. كان شعره غزيراً ومسرّحاً إلى الخلف. بينما الأساتذة الآخرون يحرصون على أن لا يطيلو شعرهم ويدخلون إلى الصف برؤوس ذات شعر قصير مسوّى جيداً حول جباههم. كان يرتدي بنطلوناً مقلّما وضيّقاً وبلا ثنية وكنزة مرقشة وفضفاضة. موضة تلك الأيام التي كان أساتذة الإنجيلية، ربما مسايرةً للإدارة، يتحاشونها. كان يقف طويلاً أمام اللوح ويرسم بطباشير ملونة ويقوم باختبارات في الصف مما جعل درسه أشبه بلعبة. أحببناه وأحببنا درسه الذي كنا ننتظره. بدأت علاقتي به حينما لاحظ أنني أحمل معي إلى الصف رواية "الأرض" لعبد الرحمن الشرقاوي. كنت أتصفحها على ركبتيّ حينما وقف هو على رأسي ورآني. امسكها وقال إنها كتاب جيد لكن يحسن بي أن أتابع الدرس. بعد يومين جاء إلى الصف ونحن نستعد للخروج وانتظرني واستوقفني وأنا أمرّ أمامه ودعاني إلى بيته. ذهبنا

معاً وصعدنا إلى الطابق الثاني. كان بيته من غرفتين، وحالما وصلنا دخل إلى المطبخ وخرج منه بصحنين وجاطي رزّ وبخنة باذنجان وصحن بيض مقلي والزمني بأن آكل معه، قاطعاً بذلك تمنّعي الصادر عن استحياء تقليدي من مؤاكلة الآخرين. مع ذلك أكلت بتمهّل غير معتاد لي فيما هو يأكل بسرعة. قال إن هذا الطبيخ من صنعه وسألني إذا كنت أجده لذيذاً. لم اكن، لحيائي، فكرت بذلك والحقيقة انني كنت آكل بدون أن أستطعم لكنني وجدت مناسباً أن أمدح طبخه فابتسم لي. لاحظت أن هناك كتباً بالعربية والإنكليزية على الطاولة لكن أكثر ما لفتني حامل لوحات عليه لوحة تمثّل منظراً بحرياً، شاطئ ومدى بحري وقارب. سألته فقال وهو يبتسم كالعادة إنه يحاول ان يصبح رسّاماً. فهمت أنه سبق له أن اشترك في معارض، بل سبقت له معارض فردية. أراني رزمة لوحات كانت خلف بعضها البعض. لوحات فنان وركاوي قهوة وأوان مطبخية، لكن أيضاً شوارع مدينية ومشاة ومناظر بحرية. صنع شاياً وسكب لي كأساً. ثم قال لي إنه قرأ رواية الأرض ووجدها جميلة، خاصةً وأنها تصوّر حياة الفلاحين الشاقة واستغلال الإقطاعيين لهم. لاحظت أنه يتكلم وكأنه يشرح درساً. بدأ يفسّر لي من هم الإقطاعيون. قلت له لكي لا يسترسل إنني اعرف من هم الإقطاعيون. قال إن عبد الرحمن الشرقاوي اشتراكي. لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة، لكنني أجد لها كل مرة تفسيراً أستنتجه من مجموع الكلام بدون أن اتأكد منه. كنت اريده أن يقف عندها وبالفعل توقف طويلاً، شرح ببطء وجدته أقل من فهمي. ضجرت من تكراره لكنني أخيراً فهمت أن الاشتراكي ليس الصالح

ولا العاطفي ولا الزاهد ولا المحسن، المعاني التي استنتجتها بالتتابع كل مرة سمعت فيها كلمة الاشتراكي. وجدت أن الاشتراكي أقل من ذلك بكثير. إنه شخص عادي بل أقل من عادي، عديم الصفات، لا يحمل سوى اسم طبقته ويعمل كعبد، كنكرة في ذلك المصنع الذي لا تصله الشمس ولا الهواء إلا بصعوبة والذي هو الحزب. أعجبتني فكرة أن اختبئ، ان اختفي في الحزب، أن أتنكر به. كانت هذه لعبة شيّقة، أن يكون لي اسمان، ان اظهر وأختفي في آن معاً. ان اوجد في مكانين في ذات الوقت. كان الحزب لعبة كبرى لكن بشير قال لي إن عليّ أن أنتظر حتى أصير مستعداً.

انتظرت في بيت بشير، لم تكن الغرفة التي استأجرتها في النبطية بعيدة عنه. أرادني هو أن أزوره كل يوم. كانت هذه بالنسبة إليه فترة إعدادي. بالنسبة إلي كانت لوحات بشير وكتبه الإنكليزية وأحاديثه مكاناً مسحوراً. في البداية تولى بشير تثقيفي. قرأنا معاً البيان الشيوعي فقرة فقرة. قرأنا كدسة من نشرات داخلية. لم يكن هناك الكثير لنقرأه أو الكثير لنقوله في هذا المجال لذا هجرناه بالتدريج. عاد بشير يرسم ويقرأ وانا كنت، بطريقة ما، شريكاً في ذلك. بهذه القدرة على التواصل، وعلى أن أكون في الداخل والخارج معاً، امكن لي أن اتبع بشير في كل شيء. تشرّبت كلامه عن الحزب. لم أحتج إلى شيء آخر لأؤمن به. لم أجد اي صعوبة لأنفذ إليه. بقليل من الوقت، بقليل من الجهد تطابقت معه، صرت شبيهاً به، في الحقيقة صرته. كنت أقدّر فقط الجملة التي يمكن أن يقولها وأقولها أنا. أقدّر الطريقة التي ينطقها بها والحركة التي يصحبها بها وأنطقها مثله وأصحبها بذات حركته.

لم يغب هذا عن زملائي في الصف فلاحظوه، ورغم أنهم سخروا منه فقد راق لي أنه واضح ملحوظ إلى هذه الدرجة. راقبت بشير وهو يرسم ودخلت خطوطه وحركة يده في يدي. ولأكون مثله جلست لأرسم وكان طبيعياً أن أرسم ذات أشكاله المحدبة وخطوطه العريضة.

لم أكن قوياً بالإنكليزية لكن عباراته بها التي ترد في شرحه انطبعت في رأسي، وبقليل من الوقت صرت قوياً بالإنكليزية. هكذا صرت تقريباً. فاجأني هذا قبل غيري. فاجأتني السهولة التي صرت بها أرسم وأتكلم الإنكليزية مثله.

لم تكن هذه موهبة التقليد. لست مقلداً وأعرف أنني لست موهوباً في ذلك. المسألة أبعد، إنها نوع من التبني، من الدخول إلى الآخر، من إعادته على طريقتي. لم أكن أملك نموذجاً لنفسي، جدّاي كانا نموذجاً منتهي الصلاحية، لم أتطلع إلى شيخوختهما، كانا بالنسبة إلي مدعوكين مستعملين بما يكفي، لم أحاول أن أكررهما. حين كان يقال لي إن فيّ شيئاً يشبه جدّي كنت أشمئزّ من نفسي وأهجر ذلك الشيء فوراً. تماثيله فقط هي التي أحببت أن أشبهها، بدت لي شابة وممشوقة. حين قيل لي إنني أتكلم مثل جدّتي، إن لي وقفاتها في أثنائه، والكلمات التي تفتتحه بها. شعرت كأني مسخت، ومن حينها استغنيت عن وقفات الكلام وعن مداخله. كل شخص آخر شاب كان صالحاً كنموذج، حتى هؤلاء الذين أمقتهم، كنت ألتقط شيئاً منهم وبدون أن أنتبه ينسون شيئاً فيّ. انتبهت في يوم إلى أن النصوص التي تبقى في رأسي هي النصوص التي أستسخفها. كذلك تبقى فيّ حركات وأقوال وجدتها لأول وهلة مثيرة للسخرية.

طبعاً لم يكن هذا حالي مع بشير. لقد أحببت أن أكونه، في الواقع اجتهدت لكي أكونه، قمت بتمارين على ذلك أمام المرآة. اجتهدت لكي تكون لي بسمته الواسعة، أن تكون لي طرفة عينه وهو يستدرّ تواطؤ محدّثه، أن تكون لي مرونة جسده ونبره وحتى محطات كلامه، اجتهدت لأكون مثله وكم عانيت حينما وجدت أن لن يكون لي طوله ولا ابتسامته ولا طلته. بالطبع أردت أن أكون مثله في الحزب، استعجلت ذلك أكثر منه. طلبته منه لكنه أراد أن أتمهّل، وبالفعل تمهّلت من أجله ولأنه هو الذي قال ذلك فقد تشربت كل كلمة قالها. لم يبقَ لديه ما يقوله، لم يبقَ لدى الحزب ما يقوله، ومع ذلك راح يطلب مني أن أنتظر.

٣٢

مرّ عام كامل. لا أعرف ماذا كانوا ينتظرون مني حتى أصبح مستعداً. ربما حتى أتمّ الخامسة عشرة. أخيراً قال لي بشير إنني سأكون في "حزب الشعب" ويوم السبت سأحضر اجتماعي الأول في بيته وعليّ أن أصل في العاشرة وخمس دقائق. هذه الدقائق الخمس أثارت فضولي. فهمت أن كل حاضر سيصل خمس دقائق متقدّماً على الذي سبقه. هذه الدقائق الخمس كانت هي الحزب، كل سرّيته وتآمره، كل معناه. لكان أفضل أن يتم الاجتماع في مكان مجهول مني. لكان أفضل أن يتم في قلعة وأن لا يفتح الباب إلا لمن يقول كلمة السرّ.

يوم السبت استيقظت في السابعة، مع أني لا أذكر أنني نمت. كان عليّ أن أنتظر حتى العاشرة. لم يكن لديّ، لم يكن في العالم، ما يكفي لأملأ هذا الوقت. كان شيئاً لا يطاق في أن أبدأ استعدادي من السابعة، أن أقطع ثلاث ساعات كاملة دقيقة وراء دقيقة. في التاسعة والنصف كنت استهلكت حتى هواء غرفتي. نفد كل شيء ولم يبقَ أمامي إلا أن أخرج. خرجت لكنها التاسعة والنصف، النصف ساعة الأخير هو الأطول، هو الأكثر تحايلاً، إنه يتمطى وكأنه لن ينقضي. أخذت

أتسكّع ووصلت بشق النفس إلى العاشرة. أمامي فقط هذه الدقائق التي هي سرّ الاجتماع. الدقائق الخمس التي يمكن أن تفوتني. على الباب وأنا أقرع كنت أخاف أن تزلق الدقيقة، أن تقع في السادسة. حينما فتح لي بشير ودخلت. وجدت أشخاصاً أعرفهم ولم يعجبني ذلك. كنت أفضّل أن يكونوا مجهولين. ليس منّي فحسب بل من الجميع. كنت أفضّل أن لا يكونوا موجودين إلاّ في الاجتماع وللاجتماع. وجدت عاصم المنمّش القصير وعدنان الأبيض المتورّد وسليم الطويل الأبله زملائي في الإنجيلية وإن في صفوف أخرى، ومعهم فوزي الأستاذ العديم الأهمية الذي يدرّس العربية في الصفوف الابتدائية، حتى حجمه الضئيل لم يمنحه حضوراً لافتاً. كنا فرقة المدرسة الإنجيلية نجتمع في بيت أحد معلّميها. أيّ سرّ في ذلك. طار معنى الدقائق الخمس. نحن الذين نلتقي في المدرسة الإنجيلية طلاباً ومعلّمين كان علينا أن نصير غيرنا في الاجتماع، أن يجعلنا الاجتماع شيئاً آخر إزاء أنفسنا وإزاء بعضنا، أن يسحرنا عصبة متآمرين وبمجرد أن نصير فيه نحصل على سرّيتنا، نغترب عن أنفسنا، نصبح باسمين ووجهين.

حين جلسنا بدأ فوزي الكلام. لم نكن حتى هذه اللحظة نعلم أن ذلك يعني أنه سكرتير الفرقة. تسمّى كلٌ منّا باسم حزبي، كان اسمي تميم. تذكرت تميم بن مقبل الشاعر الجاهلي. الباقون اختاروا أسماء فيها قدر أقل من الذكرى. عاصم تسمّى إلياس لكن عدنان المسيحي تسمّى محمود وسليم تسمّى عزّت، بشير وحده اختار اسم كارل. فوزي سحب من مظروف ورقة تحوي منشوراً لمزارعي التبغ وقرأه بصوت عالٍ. كان هذا كل شيء، لم نجد بعده ما نفعله، لكن

الاجتماع استمر. كان علينا أن نحافظ عليه. لم نجتهد لنفعل ذلك. وجدنا كلاماً له. تحدّث بشير عن ضرورة السرية التي لم تكن سوى هذه الخمس دقائق والاسم الحزبي. سمّى كل منّا زميلاً يعزم على أن يقيم معه اتصالاً سياسياً، كل هذا لم يملأ ساعة، بعده لم نعد نجد كلاماً. هذا لم يفاجئ فوزي المتمرّس أكثر منّا. كان علينا أن نخرج بالطريقة التي دخلنا بها، خمس دقائق بين الواحد والآخر. هذه الدقائق الخمس كانت هي الاجتماع. سواها لم نشعر أننا فعلنا شيئاً. لم تكن الخيبة مع ذلك مسموحة، لم يصرّح أحد بها. كان للاجتماع طقسيته وليس مهماً ما يحدث فيه. لكنّا فضّلنا أن يشرح لنا واحد فلسفة الحزب. لكن أحداً لم يكن يعرف ما هي الماركسية، لم يدخل واحد إلى الحزب بسببها. كانت هناك قلّة صغيرة في الحزب تعرفها جزئياً. لا بدّ أن يوجد من يعرفها. لكن هؤلاء كانوا أشبه بكهنوت حزبي يحتفظون بالعقيدة كما لو كانت لغة أجنبية، يُفرزون لهذه المعرفة لكي يسهروا عليها وبالطبع لم يكن تعميمها وارداً ولا مطلوباً. بالعكس كانت هناك خشية من ذلك، إذ لا بدّ أن الثقافة ينبغي أن تكون تحت رقابة كافية. لا يعرف أحد إلى أين يقود التبحّر في النظرية، على الأقل قد يجر أسئلة تزعزع الايمان الحزبي، أسئلة لا تساعد على الانضباط وقد تشجع على التسيب والانشقاق. المعرفة مرتبة في الحزب وينبغي أن تكون حزبية تماماً، أي ينبغي أن لا تتعارض مع مبادئ الطاعة والالتزام. في هذه البلدة البعيدة لم يوجد عارف واحد لينقل إلينا العقيدة، لم يوجد سوى مطيعين منضبطين. نظروا ببعض الريبة إلى مطالبتنا بعارف يشرح لنا العقيدة، هذا ما لم يطلبوه هم و لم يخطر لهم أن يطلبوه. لم يجدوا

حاجة له و لم يجدوه ضرورياً للالتزام، كان الايمان بلا معرفة مناسباً أكثر للالتزام الحزبي. الايمان والطاعة المجانيان كانا موضع ثقة أكثر فالايمان بلا أيّ مقابل هو التضحية والتفاني الأكيدان.

٣٣

لم يبقَ غيري في الحزب، عاصم وعدنان وسليم لم يتركوا علانيةً، ظلوا عند أنفسهم وعند غيرهم في الحُزب. توقفوا فقط عن الاجتماعات. بدأوا يتأخرون عن حضورها ثم نسوها كلياً. لم يُشدِّدوا عليهم في الحزب وتركوهم لكسلهم. كان نصف الحزب من أشخاص مثلهم، يحملون دمغة الحزب ويعتبرون أنفسهم من عائلته، لكن بدون انتظام. فوزي وبشير بقيا في الحزب، كانا يجتمعان في مرتبة أعلى. أنا الذي طالبت بمدرس حزبي اكتفيت بالكتب التي كان بشير يمدّني بها. صار كتاب "إنغلز" الأسرة والملكية الخاصة والدولة إنجيلي، لم أعرف أنني بمجرد قراءته قد أصبحت من نخبة الحزب. الخياط الذي كان مسؤول الحزب في المدينة ارتاب بالتأكيد بهذا الميل للقراءة، ارتاب أكثر بعادتي في التحدث بما أجده في الكتب. هذه أسرار لا تقال لأيٍّ كان ومن الأفضل تركها في مكانها، مسألة كالمجتمع الأمومي لم تخرق ذهنه وفضّل لو أني احتفظت بها لنفسي، شعر أن فيها شيئاً لا يناسب. أسرار مثلها يجب أن لا تكون مشاعاً وينبغي التصرف بحذر بها. ولأني مريب كان يجب أن أكون دائماً تحت عينه، لهذا ترقيت إلى

مرتبة أعلى مع بشير وفوزي اللذين، هذه المرة، تكفلا بمراقبتي. بشير نصحني بأن أكون أكثر حذراً وأن لا أنثر ما أعرفه بدون تبصر. أما فوزي فصدّني بفظاظة، بالنسبة إليه كان علينا أن نؤمن بالحزب بدون أسئلة وبالطبع بدون شروط، فالحزب ليس مدرسة. ترقيت إلى الفرعية التي كان الخياط سكرتيرها. هكذا صرت تحت رقابته. كان دكان الخياط هو تقريباً مركز الحزب، والذين يعاونون الخياط ويشتغلون عنده هم جميعاً رفاق وإن شكوا من تضييق الخياط عليهم وحدّته معهم. كانوا جميعاً رفاقاً وإن لم أصادفهم في أي مرتبة حزبية. يكفي أن يعملوا في مشغل الخياط لتلحقهم دمغة الحزب وليُعدّوا فيه. بالطبع لم يكونوا وحدهم هكذا، فهمت أن حزبيين معروفين لا يحضرون اي اجتماع، المرتبة التي ترقيت إليها لم تعقد اجتماعاً من ستة أشهر والاجتماع الذي انعقد بمناسبة ترقي لم يحضره سوى بشير وفوزي والخياط. مرّ بعد ذلك وقت طويل، ستة أشهر أخرى قبل أن أحضر اجتماعاً آخر. كان الحزب موجوداً أكثر في دكان الخياط، أثناء تفصيل البدلات وقص الأقمشة ودرزها، وبالطبع لا يجري أي حديث سياسي لكن المشغل في نظر الناس ونظر العاملين فيه هو الحزب. الذين لم يكونوا عاملين في الخياطة يمرون على المشغل ليثبتوا حزبيتهم، وأحياناً ينزلون من القرى المحيطة ليمضوا وقتاً في الدكان وهكذا يمارسون حزبيتهم ويثبتونها هم الآخرون. لم تكن النشرات الداخلية تستدعي أي حديث، والأرجح أن أكثر الرفاق ليست لديهم طاقة على قراءتها. لم تكن القراءة محترمة في الحزب فهي متروكة للأساتذة الذين يجتمعون في الحسينية ويتكلمون بلغة مفصحة. كان الأساتذة

في الحسينية يتكلمون عن الحزب ويتهمونه بالإلحاد والعمالة للروس وبفساد الأخلاق. بالطبع لم يكن الرفاق متدينين، أي أنهم لا يصلون في المساجد أو يحضرون القداس لكنهم لا يعرفون ما هو الإلحاد ولا يصدعون رؤوسهم بقضايا من هذا النوع. إذا تحداهم أهل الحسينية فهم مستعدون لأن يتبنوا أي شيء، يقال لهم إنه من الحزب أو إنه من بلاد الروس. كانوا يعرفون فقط أن الحزب يعمل لصالح الفقراء لكن الذي يهمهم أكثر هو أن الحزب، نعم الحزب نفسه، حاكم في أقوى دولة في العالم. يشعرون ان هذه الدولة هي تقريباً بيتهم وعائلتهم. كانوا دون الجميع يحظون بهذا الامتياز، دون الجميع لهم هذه الدولة، وبالطبع كانوا لذلك أقوى من الجميع الذين ليست لهم دول بهذه القوة. كانوا يدافعون عن الاتحاد السوفييتي، وهذه تقريباً قضيتهم. كان الحزب عائلتهم لكن الاتحاد السوفيتي دولتهم. كان للآخرين دولهم أيضاً، مصر أو سوريا أو السعودية، لكن أيّهم كانت له دولة في عظمة وقوة الاتحاد السوفييتي؟ أيهم كان يملك هذا المجد؟ لا أحد بالطبع كان في ظهره دولة بهذه القوة. ما أكثر ما كانوا معتدّين بهذا النسب العظيم. كانوا بالتأكيد أبناء الاتحاد السوفيتي وقبيلته وعشيرته وحزبه ودينه ومذهبه وكل شيء، أحسن التهم كانت بالنسبة إليهم العمالة للاتحاد السوفييتي. من يملك بلداً كالاتحاد السوفياتي، لماذا لا يكون عميلاً له؟ اي فخر أكثر من هذا الفخر؟ اي عز اقوى من هذا العز؟ من يملك بلداً أعظم؟ مصر، سوريا، العراق، السعودية، هذه ليست شيئاً بالنسبة إلى الاتحاد السوفيتي. كانوا يلاحقون أخبار الاتحاد السوفيتي. هذا النسب، هذه القرابة هي بالنسبة إليهم الحزب.

لهذا، ربما، لم تكن لهم حاجة إلى اجتماعات أو إلى عقيدة وإلى كتاب. كانوا يسمعون من الآخرين ما هي عقيدتهم ويوافقون عليها، الإلحاد، العمالة، فساد الأخلاق. لماذا لا، ما دامت هذه عقيدة البلد القوي، ما دام هذا البلد في ظهرهم، ما دام لهم.

٣٤

سلمى على التلفون، تقول إنها تنتظر من أسبوعين، ليست هذه عادة عبدالله، من قبل، كان لا يمضي أسبوع، حتى يعمد إلى مراضاتها. تقول وهي تضحك إنها تظن أن السبب أولادها. كبروا و لم تعد تخفى عليهم الاعيبها. هم بالتأكيد الذين نصحوه بالتريث. إنهم أولادها وهي تعرفهم. لمن يطلعون إذا لم يطلعوا لها. أطلقت ضحكة وهي تقول إنهم لا بد ستموا تحايلها. قالوا غالباً لوالدهم أن يشدّ نفسه هذه المرة ولا يسترخي أمامها، لا بأس في أن يتركها تتجرجر قليلاً، لا بأس في أن يصمد قليلاً ويتركها تعرف قيمتها. قلت لها وأنا أضحك: جاءها من يعرف لها، لقد استحقتها هذه المرة، إنها تلقى نتيجة زرعها. قالت عبدالله طيب، لو عاد الأمر له للحقها من أول اسبوع، ربما من أول يوم، لكنهم أولادها الذين كبروا ملاعين مثلها علموه أن يصمد. كبروا ملاعين مثلها لكن على من يلعبون. عندما تعود ستريهم ماذا تقدر أن تفعل، ستريه هو ماذا تقدر أن تفعل. هذا المسكين الذي تركها تنتظر اسبوعين من دون أن يحرّك ساكناً، ستريه أنهم علموه الذي يجرّ إلى هلاكه، ما أن تعود ستفعل

ذلك. لكن الآن ما لها وما للعودة. لماذا لا أمرّ عليها، الآن، العصر، نشرب شاي ونأكل من الكاتو الذي صنعته بيديها، صنعته والله وهي تفكر بي، تريد أن تأكله معي.

وقفت أمام الباب الخارجي الذي وجدته مفتوحاً، بعد أن قذفتني الريح إليه وسرت وسط عاصفة من الأوراق، كان أمامه الرواق المحاط من جانبيه بجرنين طويلين زرعا على طولهما ورداً. دخلت وقرعت الباب فانفتح من تلقائه. دخلت وجلست على كنبة، لكن ما إن استقريت عليها حتى جاءني صوتها من الغرفة:

فوت، عم سوّي حالي لصير لايقة فيك، فوت، أنت مش غريب.

دخلت. كانت جالسة أمام مرآتها والسيشوار في يدها توجّهه إلى شعرها فيما يدها الأخرى تنزل بالمشط فيه. كانت في الكومبينيزون وظهرها مكشوف بينما مشدّ السوتيان ظاهر تحت الغلالة. كان جلدها فاتراً بمسامه، ضارباً إلى بياض يختلف عن لون وجهها. رأيت عنقها من الخلف وهي ترفع عنه شعرها، كان طويلاً ونحيلاً. قالت "قرّب" وهي لا تزال في جلستها، اقتربت من جانب المرآة، كان سوتيانها الأسود بارزاً من الغلالة وصدرها من فوقه راب ملزوز فيه. وضعت السيشوار على الشيفونيير ونهضت ورأيت تحت الغلالة تدويرة بطنها وسرّتها ثم لما وقفت رأيت كيلوتها الأسود محيطاً بحوضها. تصلب جسدي اقتربت منها وحضنتها من الخلف. التصقت بها، وامتد عضوي بين فلقتيها. تقدمت وأنا ملتصق بها حين وصلت إلى السرير ارتمت عليه ووقعت أنا عليها. كان جسدها يشتد حول عضوي الذي ينزل ويصعد إلى أن قذفت نفسي فيها.

أخرجت من حقيبتها، التي كانت لا تزال على الشيفونير، علبة تبغ شالت منها سيجارة وعرضت علي واحدة فرفضت. تمددت على جنبها مديرةً ظهرها لي فيما بقيت أنا راقداً على ظهري. ووصل إلي صوتها:

– كان حلو. كتير حلو. هالمجنون مفتكر إني ناطرتو. خلّي يفتكر اللي بدو ياه، أنا بعمل اللي ع بالي .

وعادت إلى الكلام عن أولادها.

– هالزعران. عم يفسدوه علي. من ايمتى عندو هالقوة. كنت شوفو من الصبح قدام بابي. ما كان يصبر يوم.

لاحظت أنها تتكلم بدون ضحك. بل إن شيئاً من الغيظ شاب صوتها. كانت غاضبة حقاً وكان غضبها حقيقياً، أخذ يرتفع إلى أن سيطر كلياً.

– هالكلاب. هالزعران، ربيتهم كل شبر بنذر، ربيتهم بنور عيني. كنت أقضي الليل سهرانة وهوي عم يشخر متل التور. اللي عمره ما جاب حبة اسبرو لولد. هلق لما صارو كبار صار بيهم. هلق نسيو عذابي وسهري. صارو يفسدوه علي. هلق لمن كبرو وصارو شباب بيفسدوه علي. بدهم يوطو راسي. بدهم يذلوني. هالكلاب. آه... آه... آه.

وانخرطت في بكاء حقيقي. حضنتها بذراعي التي ضمت صدرها الذي لاحظت كم هو صلب تحت يدي. دسّت رأسها في عنقي واسترسلت في البكاء. تقول "هالكلاب" وتأخذها الغصّة وتغرق من جديد في دمعها. نشجت طويلاً ثم توقفت. فجأةً استدارت

إليّ وغمرتني بيديها وصدرها وشعرها وساقيها وقالت وهي تعاود الضحك "هالزعران يجو يشوفو شو عم نعمل، طز عليهم وعلى بيّهم، يجو يشوفوا، ها... ها...

٣٥

غابت عني صبحية ستة أيام كاملة. انتظرت أن أراها أكثر بعد لقائنا الحميم. انتظرت أن أراها في اليوم الثاني عند بابي، لكنها لم تأتِ. فكرت أنها قلقة من أن أظن أنها أعطت نفسها لي برخص. ما دامت تعمل في البيوت فقد أظن أنها لا تكترث لشرفها وأنها أعطتني نفسها لمجرد أنني بالنسبة إليها ميسور ولست من طبقتها. حين لم أرها في اليوم الثاني ولا الذي تلاه عند بابي فهمت أنها تفكّر هكذا. فكرت أنني إذا سألت عنها فوراً قد تتأكد من أنني استرخصها. كان عليّ أنا أيضاً أن أشعر أن شيئاً يستدعي التفكير قد حدث بيننا. كان يجب أن أبدي بعض الحيرة أنا أيضاً، أن أجاريها على الأقل، في قلقها. انتظرت ستة أيام وقلت لنفسي إن هذا يكفي، بعد هذا الوقت سيبدو سكوتي إهمالاً. لم أجد صبحية اليوم الثاني عند بابي، لكني وجدت عبد الكريم، جاء يسألني إذا كنت أريد شيئاً. قال إن والدته أرسلته ليسألني. أرسلته إلى الدكان ليشتري لي شاياً وسكراً، لكني فهمت أنه لم يأتِ من نفسه، إنهم لم يرسلوه إلي بدون سبب. شعرت أن صبحية وراء ذلك، كانت تراسلني عبر ابن أختها الذي استمر يمر علي كل صباح

ويسألني إذا كنت أريد شيئاً. لاحظت انه يأتي ببنطلون قصير رغم اننا في تشرين الثاني والطقس مال إلى البرودة. عزمت على أن أشتري له بنطلوناً لكني تحرجت من أن أفعل ذلك، خفت أن أجرح أهله، لكني في النهاية ذهبت إلى الدكان الوحيد في البلدة الذي يبيع ملابس واشتريت له بنطلوناً كحلياً وقميصاً زهرياً معرقاً. قلت له إنني سازور والدته. ليسالها متى يكون ذلك. عاد بعد قليل وقال وهو يلهث إن والدته تقول "الآن". خلعت بيجامتي وارتديت بنطلوناً أسود وكنزة رمادية وخرجت معه. كانت أم عبد الكريم تعجن واستقبلتني على الباب والعجين على يديها واعتذرت عن عدم مصافحتي. كانت لفت منديلها على رأسها ولا تزال ترتدي بيجامتها التي تهدلت على جسدها الممتلئ. قالت لي أن أجلس، صبحية ستوافيني بعد قليل، أما هي فعائدة إلى شغلها ولن تغيب طويلاً. جلست. شعرت أن وراء باب الغرفة المقابلة طحشة ما، إزاحة كرسي، وقع أقدام حركة متعجلة، دقائق وينفتح الباب وتقف فيه صبحية. كانت هذه المرة بماكياج كامل. خطا كحل في العينين وريميل وأحمر على الشفتين وشعر مرفوع عن جبينها، لكن الذي لفتني أكثر البلوزة الكحلية العارية الذراعين التي تكشف عن أعلى الصدر والشق الذي بين النهدين. وقفت في الباب ورفعت عينيها وزمّت شفتيها كأنها فوجئت.

- هذا أنت. هلق جيت، تأخرت كتير، صار لي ست أيام ناطرتك، ست أيام يا كافر، قول أنو فيه مرة لعبت عليها، ضحكت عليها، قول لشوف شو صار فيها. يا بلا ضمير أنت.

خطت من الباب إلى الصالون. وقفت لها لكنها رفعت يدها أمامي

وخفضتها كأنها تقيسني بها وتقدمت مني ولما صارت في مواجهتي قبلتني على خدي ووضعت يدها على كتفي وضغطت عليه في إشارة للجلوس. جلست أنا وقالت وهي تجلس جنبي:

– منيح اللي جيت يا للي بلا قلب. أنا قلت إنك هربت. هيك بتعمل. لو ما جيت أنت كنت أنا جيت.

ورمت نفسها علي وأخذت تقبلني في وجهي وعنقي وقميصي وهي تكرر "هيك، هيك". سمعنا طحشة من المطبخ حيث كانت أم عبد الكريم تواصل عجنها. ابتعدت بسرعة عني وانتقلت إلى الكنبة المقابلة. خرجت قطة من تحتها وأخذت تتمسح بساقها. لما اختفت الضجة ظلت في مواجهتي.

– أنا قلت إنك هربت. إنك متل الحية عقصت وهربت، أنا قلت، قضيت ليالي سودا وأنا فكّر. قلت يمكن غلطت. بس انت بتستاهل أنو الواحد يغلط. بتستاهل غلطة.

كانت تشير إلى أسفلها وهي تقول "عقصت" وهي تقول غلطة. بيدها وحدها تعيد تمثيل لقائنا، تعيدني إليه وأشعر برغبتي تنهض وجسدي يشتد. كانت تنورتها الصفراء تلف جسدها وطرفُ ساقها بادٍ منها فيما ربلتها تلمع. اشتدت رغبتي. أشرت لها بيدي إلى صدرها فرفعت كفها وملْست على الجزء العاري منه، أشرت إلى ربلتها فملست عليها. كان هناك إيماء جنسي بيننا. تواصل أخرس. جاءت أم عبد الكريم بعد أن غسلت يديها ووجهها، دخلت وغيّرت ثيابها. ارتدت هذه المرة فستاناً أبيض معرقاً بورود حمراء كبيرة. حان الوقت، لم أعرف كيف أخرج البنطلون والقميص، وضعت رأسي

في الأرض ويدي في الكيس، سحبتهما منه وقلت وأنا أتلجلج إنها هدية مني إلى عبد الكريم، لم يكن في الأمر أي حرج. ابتسمت أم عبد الكريم وشكرتني. جاءت صبحية وقبلتني أمام أختها. ابتسمت لها أختها بقدر من التواطؤ، كان واضحاً أنها تعرف.

٣٦

نهار دافئ ومنير من تشرين الثاني بعد يوم عاصف استمر المطر فيه يجلد الأرض ويتدفق في الشوارع، كانت الشمس الخفيفة والضوء الكامل أنيسين يدعوان المرء إلى الخروج وتحريك عظامه على الطريق. لففت عنقي بمشلح وارتديت كنزة ونزلت من البيت وتوجهت إلى الساحة وحين صرت فيها وجدتني أنعطف وأتابع على الطريق التي تشرف على الوادي الذي تتوزع فيه غيضات خضراء ويجري من الخلف النهر في وسطه. لم ألتقِ بأحد ولا حتى بمزارعين يصعدون من الوادي أو يهبطون إليه. لكنني حين سئمت من الوحدة وفكرت بالرجوع لاح لي من بعيد جسم أعرف استداراته وقامته، لم أتوصل فوراً إلى الاسم لكن المرأة توقفت وأدارت رأسها إلى الخلف ورأيت وجه روزيت يتكامل مع خصرها الرقيق وظهرها الممشوق وردفها الملفوف. كانت ترتدي كنزة سوداء على بنطلون أصفر. رأتني روزيت ووقفت إلى أن قطعت المسافة ووصلت إليها. حين صرت قبالتها أعطتني خدها الذي طبعت عليه شفتي. قالت:

– منيح اللي شفتك، قبل شوي كنت عم فكّر فيك. ما بتجي إلا

إذا اتصلنا. مش بس عدنان، نحنا كلنا منحب نشوفك.

لم أجب. سألتها عن عدنان كيف هو في هذه الأيام. سايرتها بالقول إني أجده يتحسن، لا شك أن هذا بفضلها. لكنها لم تكن في وارد هذه المسايرة. قالت:

– الله يساعدو عدنان ما بكفّيه الرصاص حتى إجاه هالمرض بمعدتو. الله يخليك إبقى طلّ عليه. ما عندو حدا.

أن ترثي روزيت لعدنان هكذا، أن تستدر شفقتي عليه، كان مفاجأة لي. أين هذا من الزهو الذي يبديه عدنان في حضور زوجته وابنته. لم يكن بالنسبة لزوجته سوى رجل عاجز، لم يكن إصغاؤها لمباهاته سوى مداراة. لم أرد أن أساير روزيت في هذا الكلام. كانت لحظة ضعف ولم أشأ أن أشاركها فيها. مرّت بيننا هنيهة صمت لم تطل. رجعت روزيت إلى الكلام عن عدنان. كان لديها بعد ما تفضي به.

– العمى. شو اشتغل، شو تعب، ما الو صاحب. لمن كان بصحة السلامة كانوا الناس عندنا متل النمل. هلق لمن وقع ما بنشوف حدا. ببيروت بقينا لحالنا. قلنا بالصنوبرية الو أهل. قطيعة، لولاك ولولا سمير ابن خيو ما كنا شفنا حدا.

لم أحبّ ما في كلام روزيت من نقمة على الآخرين. كانت تتهم الناس الذين تفرقوا عن عدنان، بل تتهم الناس جميعاً بأنهم خذلوه. نسيت الحرب ونسيت الجمركي الذي صرعه عدنان والرصاصات التي أفرغها ذلك الهارب إلى البرازيل في جسد عدنان نفسه. حاولت أن أذكّرها مداورةً بذلك. قلت لها إنها الحرب، الناس قتلت بعضها بعضاً فيها. لا تنتظر أن تعم المحبة الناس. قلت لها إن عدنان، تعرف

هي، اشترك في الحرب. كان مخيفاً، بل قتل وهذا لا يربي صداقات. مهما حلّ به يبقى مخيفاً والناس تتجنبه، تفضل أن تبقى بعيدة عنه. كانت روزيت تسمع ولا تبدو متفاجئة. لا بد أنها سمعت ذلك من عدنان نفسه، لكنها لم تكن فخورة به. قالت إن عدنان حين جاء إلى البلدة وخطبها كان عندها وعند أهلها رجل أعمال. بالتأكيد وصلهم من بعيد كلام عن اشتراكه في الحرب لكنهم لم يبالوا. ذلك الوقت كان هذا دارجاً وكان في أحيان كثيرة سبب اعتداد. الذين يشاركون في الحرب يعودون إلى القرية ويتباهون بما فعلوه وبالطبع لا يمل الناس من أن يرووا عنهم، كانت هذه بطولات والبلدة كلها سارت في جنازة أول محارب سقط من أبنائها. عدنان أرادها أن تبقى بريئة. أحب لطفها ووداعتها و لم يشأ أن يفسدهما. لم يحدثها عن بطولاته وأرادها، هو الصقر، أن تبقى في بيته حمامة وديعة. بالطبع وجد من روى لها كيف قتل الجمركي لكن بإجلال يقارب التعبّد. وحين سألته عن الحكاية قال إنه لا يريد أن تشغل نفسها بأشياء كهذه. قالت إنه دام على ذلك طوال فترة زواجهما الأولى، كان يحاذر خصوصاً أن يصل شيء من ذلك إلى لين. رصاص ذلك الهارب إلى البرازيل أذهلها وأذهل لين. لكنها الحرب، الناس تلعب بالسلاح وهناك دائماً مجنون تفلت رصاصة منه ولا يستطيع أن يسيطر على سلاحه. هكذا فهموا قصة الرصاص الذي درز جسد عدنان، هكذا أرادوا أن يفهموها، واحدة من سفالات الحرب لولا أن عدنان أطلق لسانه هذه المرة. قال إن ذلك الرجل أطلق الرصاص من خوفه، قال إنه قبل يومين رماه أرضاً وداس بحذائه على رقبته وتركه يتوسل إليه. منذ ذلك الحين، قالت روزيت، بدأ عدنان

عليان ينتخي ويفاخر بقبضته. لم يطق أن يهتز جسده كلما خطا، لم يطق عجزه. صار يتحدث إلى الجميع، وحتى إلى روزيت ولين، عن بطولاته. حتى قصة مقتل الجمركي، التي حسبوها دفاعاً عن النفس، صارت جريمة صارخة. قالت روزيت إنها ولين شعرتا بالخجل من هذا الكلام و لم تسكتا. صرخت هي به وبكت لين أمامه حتى توقف عنه. سرهما، قالت روزيت، مجيئي لأن عدنان أمامي باهى بأدبه. سألتني إذا كان ما يكتبه يستحق. قلت لها إنني درست إدارة الأعمال و لم أهتم كثيراً بالأدب لكن كثيرين، أخبر مني، كتبوا عنه. كانت روزيت تتكلم بصوت خافت، وبجمل قصيرة بنبر رتيب. لا أعرف كيف وصل الكلام بيننا إلى هذه الدرجة، لكنني قدرت أنها أدارت هذا الحديث بينها وبين نفسها مراراً، أنها لم تتورط فيه بل أعدت نفسها له من زمن. قدرت أنها من وقت اختارتني له وأنها وجدته على لسانها. كانت جاهزة له، لذا قالته بدون جهد، لم تنفعل و لم تؤشر بوجهها أو يديها. كانت تقوله وكأنها تقرأه من ذاكرتها، كأنها تغنّيه جملة جملة وعبارة عبارة. بعد أن انتهت سكتت تماماً و لم تنتظر تعليقي. أعتمت فجأةً وصار بيننا ظلّ جعل كلامنا وحيداً مع نفسه، ابتعدت عني قليلاً وتابعت سيرها وكأنها تسير وحدها.

٣٧

لم يكن الحزب محبوباً لكن محترماً. خصومه يتهمونه بالعمالة. ليست العمالة ذنباً بالنسبة إلى الجميع. المهم أن يكون لك ظهر قوي. إذا كان هذا الظهر قوة عظمى لن يدينك أحد، خاصةً إذا كانت هذه القوة مرجع الحزب وعائلته الكبرى، تقف معنا وتشكل سندنا الأكبر. الأمر لا يخرج من عبادة القوة. إذا كنت قوياً لن يسألك أحد من أنت. لكن الحزب رفض أن يحلّ نفسه ويندمج في اتحاد للأمة. صار هكذا خارجاً عن الأمة ومنبوذاً. كانت الوحدة وحدة البلدان ووحدة الشعب هي الهدف، والحزب أراد أن يستقل بنفسه وأن لا يذوب في أي اتحاد، لذا صار مكروهاً. صار على كل واحد أن يعلن كراهيته للحزب. كانت مطاردة أعضائه في الشوارع تتم بحنكة. ما أن يخرج العضو من بيته حتى يجد واحداً على الأقل في انتظاره، يسير فيسير وراءه، يقف فيقف. تدوم المطاردة ما دام العضو في الشارع. إذا وصل إلى المكان الذي يقصده يبقى الآخر في انتظاره، لن يستطيع أن يغيب عنه. ما أن يخرج حتى يتحرك معه. يتعمد أن يظل وراءه لكنه أحياناً يسبقه، وما إن يوازيه حتى يلتفت إليه وعندما يتجاوزه يظل يلتفت

إليه من الخلف من وقت إلى وقت. كان أعضاء الحزب مرصودين جميعاً على هذا النحو، لم يخل الأمر من صفعة خفيفة على الوجه لكن المطاردة كانت هي الأساس. بعض الأعضاء توقفوا عن الخروج، صاروا حبساء بيوتهم، لكنهم ظلوا مشغولين بذلك الذي ينتظرهم دون ملل وبصبر كامل في الخارج. لا أعرف اختراع من كانت هذه المطاردة، كيف صارت عامة، هل تم ذلك باتفاق أم أن الممارسة هي التي حكمت، لكن السرعة التي تعممت بها كانت مفاجئة.

خرجت من بيتي، كان النسيم خفيفاً لكن بارداً وتزداد برودته كلما تقدّمت في الطريق، وعندما نزلت في الدرب الضيق الذي يؤدي إلى سينما في الجوار انتبهت إلى أن هذا الفتى الحادق السمرة الأجعد الشعر يمشي ورائي. انعطفت فانعطف، وقفت أكلم شخصاً من معارفي مر قربي فوقف على مسافة أمتار مني. تقصدت أن أتوقف أمام الدكان لكنه انتظرني على مبعدة قصيرة، لما أطلت الوقوف تقدم ووقف جنبي. لم يبق إلا أن يحدثني لكنه لم يفعل، بقيت واقفاً مما دعا صاحب الدكان إلى أن يسألني ماذا أريد. استحييت من الرجل فتركت الدكان وخرجت من فرجة في الحي إلى الأوتوستراد فلحقني لكنه هذه المرة سار جنبي. لدهشتي وجدته يكلمني. سألني إلى أين أقصد، قلت له إلى السوق فرفع يده وصفعني، وأكمل طريقه جنبي. كانت هذه المطاردة سر كل رفيق. كأنما باتت مبعث خجل فلم يكلم أحدنا الآخر عنها. لقد كنا فجأةً كالعصافير في الأقفاص. الصفعة التي تأتي بدون سبب كانت دمغة على وجوهنا، نتقبّلها بصمت وبقدر من المذلة دون أن نردها وكأننا نستحقها. خجلنا بها يدعونا إلى أن نتكتم

عليها ونخشى أن يصل خبرها إلى بقية الرفاق، فوزي وحده، الحزبي المتشدد، ردّ الصفعة واستحق من أجل ذلك ضرباً شديداً، لم يخجل وأخبرنا حين زرناه في البيت.

أمام دكان الخياط، كانت هناك زمرة تنتظر دائماً. رجانا الخياط أن لا نزوره، كان هذا أشبه بقرار إخلاء مركز الحزب لكن دكان الخياط ظلّ المكان الوحيد الذي نقصده بحرية، المكان الوحيد الذي لا نكون مراقبين فيه، لذا استمرينا نقصد الخياط رغم ممانعته. كان الخروج من دكان الخياط هو المشكلة، إذ يجد الواحد نفسه بين خمسة أو ستة يتناوشونه بالنظرات وبالعبارات السافرة ويتجمعون حوله ويطبقون عليه، ولا يستطيع أن يتخلص منهم إلا بعد أن يكونوا شبعوا منه.

لم نتخذ بطبيعة الحال أي إجراء، أي تدبير لحماية أنفسنا. كنا وحيدين جداً في بيوتنا وهذا الرقيب الذي ينتظر في الخارج يمكن أن يهاجم، يمكن أن يذلنا في عقر دورنا. لا شيء يمنعه من أن يتقدم، من حيث ينتظر، إلى الداخل. في الشارع كنا جاهزين أيضاً للصيد، مطاردين كالطيور المهاجرة. تحولت المدينة بسرعة قفصاً. لو كان هناك عنف حقيقي، لو ضربونا وسط الطريق، لو انهالوا علينا لتوقفت المسألة عند هذا الحد. لكن الملاحقة شيء آخر، لا نهاية هكذا للمسألة، إنها تستمر ولا مجال للهرب منها. تستمر ونحن في بيوتنا ونحن في نومنا ونحن في تنقلنا. الشوارع والبيوت وحتى هواء المدينة يصبح عدواً، لقد جرى تسميم المكان برمته لنا. استحال الوقت إلى عدو، المكان والزمان استحالا عدوين، تم ذلك بخبث شديد وبذكاء فعلي، لا يمكن التنكير بنظام بوليسي إلا على هذا النحو. إنه حيث لا تكون أبداً

وحدك، لا تستطيع حتى أن تفكر وحدك أو لوحدك، فهذا الرقيب الذي ينتظر في رأس الشارع أو على مسافة أمتار موجود فعلاً في فكرك كما هو موجود في فضائك كله.

٣٨

لا تنتظر صبحية كثيراً بعد أن تدخل لتقول لي وهي تعلق سترتها على المشجب وتستدير لتواجهني فألمح أعلى صدرها المحشور في ياقة فستانها الأزرق المشدود على خصرها تحت الكنزة السوداء المفتوحة. أسمعها بينما أفكر بأن خزانتها عامرة أكثر مما اتصور.

– شو أخذك كمان عند سلمى. بعدك بتلفّ عليها. شو عندها هالمرا حتى تجيبكم لعندها؟

رويت لصبحية كيف اتصلت بي سلمى "بنت خالي عصام" وقالت لي إن زوجها وأولادها لم يتصلوا بعد بها. لكن صبحية قاطعتني؛ فيما كانت الشمس تختفي فجأةً ونجد أنفسنا متواجهين تماماً:

– إسمع يا جلال. سلمى بنت خالك. هيذا قبل ما نمنا مع بعض. بعده هيه مرة داشرة، عينها لبره. انت صرت مرتبط، مش مسموح تعمل اللي بدك ياه. مش مسموح تتصرف ع خاطرك.

وقلت محاولاً التخلص بأنها اتصلت بي وهذه "بنت خالي" ولا "يليق" أن اقول لها إنني لا أستطيع زيارتها. قاطعتني أيضاً:

– مش عارفة كيف بتفكر. انتو الرجال ما بتفهموا الارتباط. أنا

بعد ما نمت معك ما عاد فكر بحدا. أنا إلك، بس إلك. لو ما كنا نمنا مع بعض كنت تركتك ومشيت، بس هلق هـ الشي حصل. مش كل يوم بنام مع رجال. ما دام نمنا مع بعض أنا ما عاد فيي أمشي. صار لازم أبقى مطرحي وجيبك إلي. افهم. أنت هلق إلي. إنت رجالي. ما فيي أتركك تروح محل ما بدك. هيه حياتي ولازم دافع عنها.

لم تكن المرة الأولى التي تدهشني فيها صبحية، لم افكر قبل الآن بأنني لا أستطيع أن أوازن بين علاقتي بصبحية وعلاقتي بسلمى، أن إحداهما تطرد الأخرى. صبحية بيّنت كم هذا صعب. بينت أن علي أن أحرم نفسي من واحدة منهما. لم أكن فكرت بذلك لقد أكرمتني الحياة بهما ومن النكران أن ارد جميل الحياة. كان علي أن أجد طريقة للرد. رجعت أقول إنني أستحي من أن أرفض زيارة سلمى. لم أكن أكذب، لا أحتمل أن اقول لانسان إنني لا أريد أن أراه. لم تتركني صبحية أكمل.

– الرجال أنا عارفتهم. مش كبر أخلاق إنهم ما فيهم يقولوا لأ، مش رقة وإحساس. هيه دناوة نفس، وطاوة مش أكتر. الواحد بيكون عندي قمر بالبيت، وما بيوفّر عنزة جربانة. هيه مش كرم نفس. هيه بطر وقله أخلاق. قل لي، شو بيجيك من سلمى، هيه مرة فوق الستين، أكبر منك مدري بقديش. كانت حلوة ايه، بس هلق ختيارة. صحتلك صبية متلي، استغنت كرمالك عن شباب بعمرها، أنت كبير عليها. بس هذا هوي الحب. بدك تقل لي أنو كرمالها ما فيك تقول لسلمى أنا مرتبط، أنو سامحيني مش قادر شوفك.

عيت بالطبع، لم أكن قادراً على أن أجاري صبحية في جدالها. هذه امرأة بعكسي، تعرف ما تريد. أنا لم أرد شيئاً. لقد تقبلت فقط ما

وهبتني الحياة. لا أعرف ان أختار، أجد ذلك صعباً وأهرب منه. اترك القدر يختار لي. لا أريد أن أكون معياراً. لا أريد أن أضع قانوناً بيني وبين الأشياء. لا أجرؤ على أن أحسم، لا أطيق هذه الدراما. لكن صبحية تفعل ذلك. تفعله كل دقيقة. لم تتعب حتى اختارتني على ابن خالتها، أنا الأكبر منها بعشرين سنة ولي زوجة طردتني وابنة منها. اختارت من اللحظة الأولى. ومنذ ذلك الحين وهي تسير وراء اختيارها. أنا لا أجد معياراً. لا أستطيع حتى أن أفاضل. كنت أسمع صبحية بإعجاب وكأني أقرأ ذلك في رواية. لقد تقبلت دائماً ما اختاره الآخرون لي. حياتي في لبنان كانت اختيار جدتي. ارتباطي بالحزب كان اختيار بشير. أشياء أخرى كانت اختيار كاميليا واليوم علي أن أقبل اختيار صبحية، علي أن أتركها تختار لي. فكرت بأن أهجر سلمى لكن ذلك كان فوق طاقتي، ليس الحب هو الذي يمنعني لكنه اختيار كبير علي.

عادت الشمس فأحيت المكان ورأيتها وقد تلألأت من خلال الزجاج المحجّر. كانت صبحية أمامي وانتبهت إلى انني غبت عنها وقتاً في أفكاري. رجعت إليها. وقعت عيناي على عنقها وصدرها. اشتقت إلى ان أدس كفي في صدرها، إلى أن أملس على ربلتها. قمت من مكاني لكنها انتبهت وحين وصلت إليها كانت غيرت جلستها وأعطتني كتفيها. بدت محاولتي لأن أدس كفي في صدرها مقصودة أكثر مما يجب. شالت يدي عنها وقالت لي إنها ستبقى امرأتي لكنها الآن غاضبة وبلا رغبة، ثم أن زيارتي لسلمى تستحق أن أعاقب عليها بأن أبقى وحدي يوماً واحداً على الأقل. ضحكت وقالت لي "هذا اليوم أنت مقاصص، أقعد بعيد، مقاصص يوم".

٣٩

أخرج من البيت. الجو مائل إلى الاصفرار والريح تغزل وتطرد أمامها كدسات من التراب والقش وأوراق الشجر. كان مطاردي اليوم يقف في راس الشارع ومعه كلب حراسة يدور حواليه. ما ان ابتعدت قليلاً حتى رمقني واستمر يحدق في. ارتبكت وتوقفت هنيهة قبل ان أصل إلى الشارع. شعر مطاردي بخوفي وتوجست من ذلك فتقدمت بخطى ثقيلة وعيناي عليه. لم يحول عينيه عني فتوقفت ثانيةً وبقيت في موضعي. رأيته يشير إلي ويصيح في كلبه، لقد أطلقه علي. وصل الكلب إلي وأنا لا أزال متربصاً في مكاني. قبل أن يثب الكلب علي جاءته صيحة ثانية فوقف قربي فيما جمدت أنا في محلي. سمعت ضحكة مطاردي وتوقف صبي كان يمر في الشارع وأخذ ينظر إلي وأنا متيبس جنب الكلب الذي يلف حولي ويتشممني. كنت مصعوقاً أخرس مرعوباً من أن تندّ عني حركة تستفز الكلب فيثب علي. كنت قبالة الكلب مربوطاً متوجساً من جسدي. في كل لحظة أشعر بأن حركة خرساء تكاد تركب يدي وجسمي. كل لحظة أشعر بأن شيئاً يتحرك في طول جسدي وعرضه. أكاد أخاف من رفة جفني وارتجاف شفتي. الكلب

يدور حولي ويتشممني. مرت سيدتان، لا أدري من أين جاءتا، ووقفتا تراقبان، انضم إليهما رجل ووقف معهما. بعد قليل زاد العدد إلى أربعة فخمسة، بعد قليل صاروا زمرة. كانوا يراقبونني بدون صوت، فيما ضحكة مطاردي تصل إلي. كانت لحظة تعتقل الجميع وأتوزع، أنا ومطاردي والزمرة التي تراقبني، فيها. أطلق مطاردي صيحة فوثب الكلب علي لكن صيحة ثانية ردته عني. تحرك شيء وسط الزمرة المراقبة، أفواه تتحرك وأيدٍ تتدافع وأصوات تعلو وتهبط. انفصل اثنان عن الزمرة وابتعدا، صيحة ويثب الكلب علي وصيحة ترده. خرج الطفل من الزمرة واتجه إلى البيوت. وقف رجلان في ناحية أخرى من الشارع. ضحكة مطاردي تختلط بضجة لا أعرف من أين تصدر، أشك في أنها تصدر من رأسي. تزداد سرعة الكلب وأشك في أنه يقترب أكثر مني. الرجلان الواقفان يتصايحان مع مطاردي. يصلني صوت أحدهما "أتركوه. مش كلب هوي" لكن مطاردي لا يجيب على الصيحة إلا بضحكة مدوية. يظن أن إشفاق الشخص الذي يصيح من نوع ضحكته، هزء فحسب. تقدم الصائح إليه ولما صار قريباً منه أخذا يتصايحان. ابتعد الشخص عنه ولما صار بعيداً مسافة كافية. صاح المطارد بالكلب فوثب علي وامسك بنطلوني بأسنانه وشملتني رعدة صامتة إلى أن أتت صيحة ثانية فردته عني. الزمرة التي تراقب كأنما سئمت، فأخذت تتفرق لكن امرأة منها انفصلت واتجهت إلى مطاردي. عندما صارت قربه رأيتها تحرك يديها لكني لم أسمع صوتها. سمعت فقط مطاردي يضحك أمامها لكن المرأة استمرت تحرك يديها وبقي صوتها غير مسموع، فيما انخفض صوت المطارد ورأيته يحرك يديه أمامها. هدأت حركة الكلب وخيل

إلي أنه توقف عن ملامستي. ازدادت حركات يدي المرأة وحركات يدي الرجل. أخيراً ابتسم الرجل وابتعدت المرأة. صاح الرجل بالكلب فتركني وتبعه. تنفست أنا الصعداء لكني شعرت بنفسي تخور ومفاصلي ترتخي عدت إلى البيت ولزمته اليوم كله، لم أغادره.

٤٠

تصلني في البيت دعوة من غاليري الديوان في الحمرا – راس بيروت إلى حضور افتتاح معرض لمنحوتات الفنان "طالب العكوم" في ٢١ شباط. تركت البطاقة على طاولتي أياماً. أعود إليها كلما دخلت إلى غرفتي لأردها من جديد إلى مكانها. أقلبها بين يدي وكأنني هكذا أمارس حيرتي تجاهها، لم أقرر أن أذهب لكنني في الثانية بعد الظهر من يوم ٢١ شباط نزلت إلى الساحة، حظيت هناك بسيارة نازلة إلى بيروت فاستقليتها. انتظرت في مقهى حتى السادسة موعد الافتتاح. استدليت على غاليري الديوان ووجدتها في شارع خلفي. لم تكن في منطقة تنتظر أن نجد فيها صالة للفن، حولها محل مفروشات ومطعم للمعجنات ودكان كانت، طويلة وكأنها رواق. دخلت فوجدت نساء ورجالاً في أواسط العمر لا يوحون بأنهم من رواد الصالات، قدرت أنهم من سكان بناية طالب العكوم، ومن حيّه.

فتشت عن طالب فوجدته متهالكاً على كرسي وقد ارتدى معطفاً أسود وقلبكاً، وكأنما بدا عليه أنه تعب من الموضوع كله وانزوى بعيداً عنه. كان بعض الحاضرين يتراجع إليه ويكلمه فيشرق وجهه بابتسامة

لكنه يعود إلى انزوائه ما إن يبقى وحيداً. ذهبت إليه وما إن صرت قربه حتى تبدلت ملامحه. اكتسى وجهه اهتماماً كبيراً ونهض فوراً عن كرسيه ورمى نفسه باتجاهي وحضنني. قام معي إلى المنحوتة الأولى. كانت تمثل امرأة عارية واقفة وقد انسدل شعرها الطويل على صدرها ووصل إلى ركبتيها. لم يكن عريها واضحاً فالشعر غطى نهديها وتجمع بين ساقيها. لكنني لاحظت أن لها ردفاً جميلاً. تركني طالب وعاد إلى انزوائه. تأملت المنحوتة الثانية كانت تمثل عجوزاً منتصباً وقد جمع كل ما قدر طالب على أن يضيف إليه من بؤس وقهر. كان البؤس الذي نحته طالب في وجهه يجعله مخيفاً وكأنه جرح على طوله و لم ينبع الحزن من داخله. أما المرأة البائسة الأقرب إلى المتسولة التي مثلتها المنحوتة الثالثة فكانت أيضاً شوهاء إلى حد فظيع، لكن انطفاء عينيها أبرز ما فيها. لقد فغر طالب الخشب كأنما انتزع العينين بازميله. تراءى لي أنه يعذب الخشب وأن ازميله يشقه ويؤذيه. المنحوتة الرابعة كانت أيضاً لامرأة بائسة تجمعت دموعها على وجهها. كانت كرات الدمع أشبه بدمامل على الوجه. لقد انقلب البكاء إلى ما يشبه بثوراً. كان بؤساء طالب هكذا صارخين ببؤسهم لكن هذا البؤس، لدى نظرة ثانية، يبدو وكأنه مرض جلدي. كانت هناك أيضاً منحوتات لنساء رافعات أيديهن إلى السماء في حركات تضرع وتوسل، كادت أن تبدو موفقة لولا أن الوجوه لم تكن متجاوبة مع هذه الحركات. لقد ترك الازميل فيها كتلاً نافرة، ترك أثر مروره عليها خشناً وعشوائياً. منحوتات لقطط متمددة وقد نحل جسمها الطويل فوق العادة وبدا لي أنها بهذه القامة الرفيعة موشكة على الطيران. هنا لم يترك الازميل

آثاراً خشنة. بدا لي أنه موفق في هذه أكثر منه في منحوتات الأشخاص. لكن المنحوتة التي استوقفتني كانت لطائر. طائر هو عبارة عن منقار من مثلثين وجناح هو مستطيل منحرف وقد أمسك في منقاره حبة هي عبارة عن دائرة. لم يكن لهذه المنحوتة قبل بكل أعمال طالب العكوم. حتى إني تساءلت إذا كانت حقاً له. فالطائر كان يفترس الحبة بقسوة هي ذاتها التي نراها منحوتة في منقاره وجناحيه. لكن منقاره وجناحه أضافا إلى حركته مع الحبة تعبيراً تراءى لنا معه أن الطائر يطير ولا يطير، لقد جرى تخليد لحظة عابرة لكن ممتلئة وكاملة.

حين رأيت صرصوراً يركض مسرعاً قرب حذائي تخيلت أنه سقط من عين أحد مخلوقات طالب.

دخلت امرأة ضخمة مستعجلة. لم تقف أمام المنحوتات بل سارت مباشرةً إلى طالب العكوم وجلست جنبه على كرسي. كانت زوجته. سلمت علي من بعيد بينما مشيت أنا إلى آخر الصالة حيث كانت طاولة تجمّع عليها حشد من منحوتات. حين تمعنت فيها انتفضت، كانت سوداء محبحبة منصوبة. هي بالتأكيد هذه المرة منحوتات جدي. أسرعت إليها. رأيت شبه مخلوقات خيطية واقفة في الفضاء. حيوانات تحت أرضية ممدودة على الطاولة. وجوه شبه مرسومة على الحجر، كان هناك ذلك الشغف الذي دفع جدي إلى أن يصقل أحجاره. كانت حياة جدي هنا. شعرت بغضب والتفتت إلى العجوزين المنزويين لكن طالب العكوم ترك كرسيه واتجه نحوي. حين وصل وقف إلى جانبي ثم أمسك بيدي وهو يشير إلى ورقة من كرتون ألصقت بين المنحوتات كتب عليها "تماثيل المرحوم ابن العم

فارس العكوم" قرأت الورقة وتمعنت فيها وكأنني أبحث عن جدي فيها، فيما كان طالب العكوم يقول وكأنه يغالب بكاءه "الله يرحمو كان كثير موهوب".

٤١

السماء مسقوفة بالغيم الداكن والنهار ضعيف البصر مما جعلني أستوحش. تلفنت إلى بيت عدنان عليان وأنا أفكر بروزيت لكن الخادمة السيريلانكية التي تلقت اتصالي أحالتني إلى لين. لين التي دعتني "عمو" قالت إنهم في البيت يحبون رؤيتي. قالت إن أباها في غرفته وإذا أحببت فستناديه وأمها في الحمام. قلت لها لا داعي لمناداة أبيها فأنا سآتي بنفسي. قبل أن أخرج وأنا على وشك أن أغادر برد الجو وهطل المطر، انتظرت إلى أن صحت تماماً وزاد نور النهار فخرجت إلى الرويس.

صعدت على قدمي إلى غرفة عدنان. ما إن رآني حتى أشرق وجهه وحاول أن يقوم للقائي فثنيته بحركة من يدي، أفلتت منه "أهلاً بجلال، أهلاً وسهلاً" لم أكن مستعداً لهذه الحفاوة، أخجلتني تقريباً لأني لا أحمل لعدنان وداً مماثلاً. جاءت روزيت ولين إلى غرفة عدنان وعانقتاني. كان جو من الود يشملنا نحن الأربعة. جلسنا على الكراسي في غرفة عدنان، لكنه نهض من سريره ودعانا إلى الصالون لأنه "أضوا وأوسع". جلس عدنان في كنبته وتوزعنا حوله.

كنت شاعراً بالامتنان لهذه المودة التي ليس عندي ما أجازيهم به عليها. لم أفعل شيئاً لهذه العائلة سوى تمضية وقت معها، مع ذلك تبادلني هذه العاطفة. حتى عدنان شعر بأن الوقت ليس لتباهيه فانكفأ وصار يروي قصصاً عن حماقاته في الرحلات التي تقتضيها أعماله، ونحن الثلاثة سايرناه ورويناً، بما فينا لين، حماقاتنا. كنا نضحك على أنفسنا وضحكنا علا بحيث استدعى من الخادمتين أن تهبطا وتقفا في باب الصالون تستطلعان ما يجري. الخادمتان اشتركتا معنا بالضحك، كنا جميعاً نضحك لأي شيء، حتى لإشارة باليد. نضحك كأن بنا جوعاً إلى الضحك. عدنان الممدود على كنبته يكاد يقفز من مكانه، روزيت ولين الممشوقتان بطقم الجنز الذي ارتدته كلاهما تموجان على مقعديهما، أنا أترنح على الكنبة، هذه ساعة طيش تهنا عن الزمن وعن أنفسنا. في النهاية صرنا نضحك للاشيء. لم ألاحظ أن عدنان استرخى في كنبته وأراح رأسه على إحدى وسائدها وأغمض عينيه محاذراً أن تند منه حركة تعاكس الجو. لم ألاحظ لكن روزيت لاحظت. بادرت إلى أن تدس تحت رأسه وسادة أخرى. سكتت لين وسكتت أنا لكن عدنان أشار بيده وبفمه أن لا شيء يستحق وأشار بيده أن نستمر في كلامنا، بل ظل يصطنع الضحك لكي لا يفسد الجو. رسم على فمه بسمة عريضة لم يسعفه نفسه الضعيف على أن يصعّد منها قهقهة، كانت بحة منهكة سرعان ما انطفأت على وجهه. شد على عينيه كأنه يبعد رؤيا سيئة وشد على حنكه كأنه يكافح شيئاً في داخله. ظل فترة يقاوم لا بوجهه وحده ولكن أيضاً بعضلات صدره وبرجليه. كنا سكوتاً حوله. روزيت وحدها أخذت تمسد عضلات صدره وأطرافه.

لا أعرف كيف شعرت الخادمتان فنزلتا ووقفتا في الباب تنتظران إشارة من روزيت. صعدت إحداهما وقد صدعت لإشارة من روزيت بينما وقفت الثانية جنبها وراحت تساعدها في تمسيد عضلات عدنان، سرعتها لم تعجب روزيت فتمهلت بعد أن صدعت لإشارة منها. ظل وجه عدنان متيبساً وظل يشد على عينيه وعلى حنكه وعضلات أطرافه وقتاً وروزيت تمسد جسمه، بينما أنا ساكت وقوفاً، وجنبي لين متخشبة في وقفتها. ثم أخذ وجه عدنان يهدأ وحركته تخف ولم يطل ذلك. ماتت حركته تماماً واسترخت أجفانه وسكن وجهه وسقط رأسه على الوسادة فيما علا شهيقه وتغرغر حلقه وأزبدت، بعد برهة، شفتاه. سوّت روزيت رقدته وجاءت الخادمة بحرام صوفي أسدلته عليه. قالت لنا إنه ينام، وكلها ساعة أو ساعتان يستيقظ بعدها مرتاحاً. طلبت منا أن نعود إلى مقاعدنا. صاحت بلين التي لاحظت تخشبها فاسترخت بسرعة وواجهتها ببسمة ضعيفة وألقت نفسها على المقعد. قالت روزيت إنه عارض عصبي حيّر الأطباء الذين حين روت لهم أنها بادرت عفواً إلى تمسيده أقروها على ما فعلته ووصفوا له أدوية. قالت إن لين شاهدته مراراً في هذه الحال لكنها في كل مرة تتخشب في وقفتها، كل مرة الصدمة نفسها. إنها ساعات قليلة يقوم بعدها مرتاحاً. قالت ابقَ ليراك حين يصحو فهذا يفيده، إنه يصحو ساهياً عن كل ما جرى وبالطبع يغيظه أن يراه أحد في هذه الحال لكنك من البيت، مثلنا بالضبط ولن يخجل منك.

بقيت. روزيت طلبت من الخادمة أن تصنع قهوة وأخذت الصينية من يدها ووزعت هي الفناجين علينا. طار قلق لين وجلست بهدوء

ترشف قهوتها. أعادت روزيت الثقة إلينا. جلسنا حول عدنان النائم الذي ظل شهيقه عالياً. لكن روزيت وجدت الموضوع الذي يخرجنا من هذه الدائرة، سألتني عن طلاقي. قلت إن كاميليا طلقتني. لم تعلق لكنها رفعت رأسها ورشقتني بنظرة من عينيها المسحوبتين. كان حريق المركب أيضاً وصل إليها. لم لا وعدنان لا يخفاه شيء. قلت لها إنهم احرقوه لأني لم أعطه لهم ليهرّبوا فيه المخدرات. هذه المرة نظرت إلي طويلاً وبإمعان غمرتني بعينيها. خيّم الليل وعدنان لم يصح بعد. كانت روزيت مطمئنة. لم ترد أن تصحيه، لعله بحاجة إلى نوم. استأذنت للخروج، استمهلتني روزيت، دخلت إلى غرفتها وعادت وبيدها كنزة مفتوحة. ارتدتها فوق بلوزتها ورافقتني في الخروج. ونحن في الممشى المفضي إلى البوابة أحاطتني بذراعها، سرنا هكذا متخاصرين. على البوابة قربت وجهها مني ومست خدي بشفتيها. أمسكت يدي وعصرتها بين يديها، بقينا برهة وأعيننا جارية في بعضها البعض. مرت برهة ونحن نتبادل النظر. ثم أحنت روزيت رأسها وتركتني أمر وحدي. التفتّ إلى الخلف بعد أن سرت شوطاً، وجدتها لا تزال في البوابة، ومن هناك لوحت لي بيديها.

٤٢

وجدت الخياط يجرب جاكيت على أحد الزبائن، حييت بيدي وصعدت الدرج إلى الغرفة الفوقانية حيث كان رفاق شغيلة عاكفون على التفصيل أو الخياطة. كنت ابتعدت أسبوعاً عن مشغل الخياط بعد حادثة الكلب، سمعت خلاله بأنهم حبسوا أيضاً عدداً آخر من الرفاق، ساعات، مع كلب الحراسة. الأرجح أنهم استملحوا ذلك. وجدوا شائقاً أن يتركوا رفيقاً جامداً في مكانه مرعوباً من الكلب الذي يدور حوله. انقطعنا أياماً عن المشغل. البلدة كلها في الحديث عن رقصنا مع الكلاب، حتى الأكثر اشفاقاً لم يمنعوا أنفسهم من أن يفرقعوا بالضحك، أن يجدوا ذلك مسلياً وبالتالي مشروعاً. تناقلوا الكلام عن ذلك في البلدة كلها وجعل الكلام البلدة جميعها شريكة فيه. لم يكن الناس حتى ذلك الوقت أعداء لنا لكنهم صاروا بفضل تلك الحادثة كذلك. أرادوا جميعاً أن يكون لهم دور فيها، تبنوها كلهم. كان حبسنا مع الكلب هو ما يريدونه فعلاً لخصوم متخيلين تجسموا فجاةً فينا. ارادوا أن يعذبوا أحداً ووجدونا مكانه، أن يذلوا احداً وتحقق ذلك فينا. كان حبسنا في حلقة فناً احبوا أن يكون لهم.

بقينا أياماً محبوسين كالأرانب في بيوتنا، بعد ذلك خرجت إلى الشارع وبمجرد أن وجدت نفسي فيه شعرت بأني كسرت الحلقة وتحررت من الكلب، كان الشارع حراً ونظيفاً، كان لي وجريت فيه، تنفسته وعببته في صوري ومسامي. ولفرط اندفاعي تعثرت لكني قبل أن أقع أمام الجميع رفعت قامتي وأحسست أنها أطول مني. انحدرت في الشارع حتى صرت أمام الحديقة اليابسة وانعطفت إلى دكان الخياط.

الشغيلة هم حكماً رفاق. لا يطلب أحد عملاً عند الخياط إلا ويصير بمجرد ذلك رفيقاً. لن يمتحن في العقيدة فالخياط نفسه غير متضلّع فيها. يكفي أن يكون في المشغل لينتمي إلى الخياط ويكون بذلك في الحزب. الحزب هو حين نجتمع في المشغل ونكون عندئذ ظل الخياط، أي في ظل هو الحزب. حين يريّح شغيل قطعة قماش بالطبشور، حين يدرز شغيل كم جاكيت، حين يسلم القطع إلى الخياط ليفصلها يكون يقوم بعمل حزبي. الرفاق الشغيلة يعملون طوال النهار، لكنهم أثناء ذلك يوجدون أكثر في الحزب وبمقدار ما يطول عملهم يتوغلون فيه. عملهم وتسلياتهم وأحاديثهم ومزاحهم، يكفي أن تكون في هذا الدكان لتصبح عملاً حزبياً. بالطبع تمضي أيام وربما أسابيع لا يذكر أحد فيها الحزب. لكن الحزب مخيم ما داموا في دكان الخياط وكان الخياط هو المعلم. مع ذلك فإن رفقتهم وصداقاتهم وتسلياتهم وسهراتهم وتنقلاتهم تجعلهم أكثر في الحزب، فالحزب كان تقريباً حياتهم وكل شيء يفعلونه يعود إليه، رغم أنهم قلما يذكرونه أو يسألون عنه، فالحزب كاسم العائلة أو الدين يدمغ صاحبه، إنه في دمه ولا حاجة لأن يفكر فيه.

هناك في المشغل التقيت بمريم، في اليوم نفسه الذي قصدته فيه بعد حادثة الكلب. لم توجد مريم في المشغل بالصدفة، كانت ابنة عم شغيل وأرادت أن تقوم بعمل ما بعد أن سقطت في امتحان البكالوريا، واقترحت على ابن عمها أن تصحبه إلى المشغل إذ كانت أمها خياطة وهي بسبب ذلك تلمّ بالحرفة. كانت يوم التقيتها في المشغل منذ أسبوع وقد عكفت على درز قطعة قماش، أنا الرفيق التلميذ وإن كان الخياط ومن ورائه شغيلته يسمونني الأستاذ، استحقيت هذا بعد أن نجحت العام الفائت في البكالوريا الفرع العلمي. قصة الكلب بالتاكيد وصلت إلى الرفاق الشغيلة و لم يداروني. سألوني ضاحكين إذا كنت خفت، لا بد أن وجهي اندبغ وأنا اعترف لهم بأنني خفت لكنهم لم يكتفوا. سألوني إلى أي درجة خفت، هل عملتها في ثيابي؟ لا بد أن وجهي اندبغ أكثر حين رفعت مريم رأسها عن ماكينة الخياطة ورمقتني. لم أجب لكن مريم صرخت تقريباً بهم:

– اسكتوا. مبسوطين بحالكم. مش شايفينو قرب يوقع ع الأرض. شو مبسوطين باللي عملوه فيه. هذي والله زعرنة، هَوْ زعران. بدهن حبس. أهلهن ما ربوهن، بدهن تربية.

صوت مريم استمر يموج بعد أن أنهت كلامها. ظلت تغمغم كأنما تتحدث لنفسها. لا أعرف ماذا حصل عندئذ لوجهي، رجوت أن لا يكون اندبغ تماماً. لم اعجل إلى شكرها بعد أن أنقذتني، كان شكري اعترافاً بأني كنت في مرمى سخريتهم. ثم أن مريم كانت لحظتها هي الحزب وصوتها أخرس الجميع، لم يكن هناك مجال لاعتبار شخصي، لو شكرت لأهنت أنا أيضاً نفسي. أما مريم فرفعت رأسها باعتداد

بعد أن غلب صوتها على الجو كله وأسكت الذين كانوا يتزاحمون على الكلام من قبل. أجالت بصرها الموجودين ولما وصلت إلي قالت وهي تغالب ضحكها:

- صحيح قللي شو صار معك. وقف قلبك من الفزع من الكلب؟ هوذي مش قصدن شي (أشارت للرفاق) بدهن يحكو، بس شفت، صوت واحد بيسكتهن.

كلامها استفز واحداً من الشغيلة فعلا صوته:

- صوت يسخطك يا فاجرة.

وردت عليه فوراً:

- حكيت. صار إلك تمّ يحكي، يللي بنص لسان، إبقى ردّ على مرتك.

ضحك الجميع واستخذى المتكلم. عادت مريم إلى ماكينة الخياطة. ضغطت بسكربينتها البيضاء على دولاب الماكينة فارتفعت أبرتها وأخذت ترتفع وتنزل في القماش. كانت تسحب القماش تحت الابرة وتكتفي بسماع الماكنة وهي تدرز. بعد أن أنهت قفزت من وراء الماكنة إلى كرسي بجانبي، جلست ولفّت رجلاً على رجل وظهرت ربلة ساقها لامعة وجميلة. كانت ترتدي كنزة خضراء على تنورة معرقة ملفوفة حول جسدها. كانت نحيلة ومخصّرة ومتوسطة الطول. وجهها الصغير أنيس أكثر منه فاتناً وفمها الرقيق ذو ابتسامة جميلة وصوت أغنّ. قالت لي إنها تسمع عني إني ذكي ولامع في المدرسة فضلاً عن كوني وسيماً، قالت الكلمة الأخيرة بصوت مغرّد. أضافت أنها لم تنجح في البكالوريا بسبب ضعفها في الرياضيات وتريدني أن أراجعها

معها، وعندما سألتها أين، كأنما تعجبت من السؤال، أجابت بكلمة واحدة "هنا" ثم استدركت كلامها بالقول: ألست رفيقاً؟ كونـنا رفيقين يعني أن المكان لنا ونحن فيه رفيقان فحسب.

صعد الخياط إلى الغرفة حاملاً على يده قطعة قماش، وحين وجدنا جالسين سوية رقصت عيناه والتوى فمه ووقف بصلعته وقامته القصيرة أمامنا وسلم قطعة القماش إلى مريم، وهو يسألها، بما يشبه الزجر، إذا لم يكن لديها ما تعمله. تكسّر الكلام في فم مريم وتورّد وجهها وهي تنهض من جانبي وتتجه إلى ماكنة الخياطة.

لم يكلمني الخياط. كان قليل الكلام وليس من عادته أن يكلم الرفاق. يكفي تشاركهم في المكان. لا يتكلم الخياط كثيراً ولا يحتاج إلى أن يتكلم. إنه ظله فحسب، صمته مخيم على المكان، والجميع ينتمون إليه، وهذه الرابطة السرية الأشبه برابطة الدم هي الحزب.

في اليوم التالي جئت حاملاً دفتر الرياضيات. وجدت مريم مرتدية كنزة عنابية على التنورة نفسها. حين رأتني انتظرت قليلاً ثم جاءت وجلست إلى جانبي. أريتها دفتر الرياضيات فقالت إنها، لذهولها، نسيت أن تجلب كتابها معها. قلت لها إن الدفتر مع ذلك ينفع ويمكننا أن نراجع فيه المسائل. لم تكن متحمسة لكنها وافقت على أن نراجع، وحين بدأنا لم يكن في وسعها أن تتم مسألة بدون أن تشرد مرات إلى حديث آخر. تروح تغتاب زملاءها المنهمكين أمام عينيها في حضورهم تقريباً. لا نصل إلى نهاية المسألة إلا بعد ثلاث وقفات على الأقل من هذا النوع. حين بدأنا المسألة الثانية لم نتمها إلا بعد أن توقفت مرات أمام شبان حيها، ذلك الذي يدهن شعره

بالفازلين ويروح يلاحقها في الطريق بدون أن يجرؤ على أن يكلمها، وذاك الذي رمى رسالة في حضنها، وذلك الذي أهداها زجاجة عطر رخيصة رائحتها كرائحة غزل البنات. أما المسألة الثالثة فاسترسلت فيها بكلام عن نفسها، عن ضجرها وسويداتها وأحلامها والمغنين الذين يعجبونها والأفلام التي تحبها. باتت صعبة إعادتها إلى الدرس فقد ملكها الحديث تماماً وغرقت فيه. أثناء هذا التداعي صعد الخياط بخطوات غير مسموعة، ولما صار في الغرفة وقف أمام مريم ويداه في جيبي بنطلونه المقلم وصديريته لامعة وكماه مطويان. ارتجّ على مريم والتوى الكلام في فمها، فيما الخياط يرميها بنظراته قبل أن يقفل عائداً على السلم بدون أن يتكلم.

في اليوم التالي، كأنما اتعظت بغارة الخياط البارحة، جلبت معها كتابها واستسلمت للدرس، بل حاولت أن تتابعني وأنا أشرح لها وان تعيده من بعدي لكني شعرت بأنها لا تنجح رغم محاولتها. من الواضح أنها لم تستوعب أبسط المبادئ والرياضيات لا تدور لعقلها الذي لا يملك استعداداً لها. تعلمت في واحدة من المدارس التي نسميها دكاكين والأرجح أنها صعدت صفاً بعد صف بدون أن تتعلم شيئاً. رغم ذلك أخذت أشرح بصبر لها المسلمات والبديهيات وهي تجتهد لتفهم لكن بعد قليل تشتّع ذهنها تماماً و لم تعد قادرة على المتابعة. توقفت وصارت تتكلم في كل شيء دفعةً واحدة. تنتقل من موضوع إلى موضوع وتصل فكرة بغيرها بدون أن تستطيع أن تتوقف. فجأةً خرست، لقد شعرت بأن الخياط يصعد السلم. تكسّر الكلام في فمها. لكن الخياط لم يحضر سوى انه، وأنا أغادر الدكان، رمقني بنظرة

فارغة، هذه النظرة صار يستقبلني بها حين أدخل إلى الدكان.

لم أكن بحاجة إلى أكثر من يومين لأفهم أن علينا أن نتقهقر إلى الصفوف الأولى التي مرت فيها بدون أن تستوعب. أعددت خطة لتلقينها المبادئ الأولى لم أرد أن أيأس رغم أن الأمر باعث على اليأس. مع ذلك لم تتجاوب. عقلها كان مسدوداً والشروح تتساقط عنه بدون أن تنفذ إليه. كان تتجتهد لتفهم لكن هذه المحاولة تربكها وتشوشها أكثر. ظل الخياط يصعد كلما أتيت ويجدها غالباً شاردة في حديث آخر. فلا يفعل سوى أن يصق أمامنا عبارة من مثل "شوها الدرس! يا عيني ع الدرس!". كان حضوره يجعلها تتراجع إلى نفسها لكنها غالباً لا تجدها بسهولة. تقضي وقتاً حتى تثوب إليها. وحين نعود إلى الدرس تكون استنفدت أي قدرة على الفهم.

جعل هذا همتي تبرد. صرت أقل حماسة وإصراراً. لم أعد أردعها عن الشرود إلى حديث آخر. لم أعد دقيقاً في المجيء والذهاب. أجيء متأخراً وأذهب ما إن ألاحظ أنها تعبت فقد يئست تماماً من أن أغرس في هذا العقل الطفل ما لا طاقة له على استقباله. يئست من المسألة كلها و لم أعد أعرف ماذا أفعل حقاً مع هذه الصبية الشاردة. تركتها تتكلم على هواها وصارت تسترسل وتقفز من موضوع إلى موضوع إلى أن تكتظ نفسي ولا يعود لي صبر على السماع. شيء وحيد أضيف. صارت أكثر انتباهاً لمجيء الخياط. تشعر به مهما خفت خطواته وتسرع إلى الكتاب تفتحه بين يديها وتغرق عينيها فيه. ذلك لا يمر على الخياط الذي يرشقنا مع ذلك، بالكلمات نفسها "يا عيني ع الدرس" وبالنظرة الفارغة نفسها.

لم نعد نفعل شيئاً سوى اللعب، اللعب على الدرس واللعب على الخياط واللعب على أنفسنا. تحولت ساعة الدرس إلى موعد شخصي. رغم ذلك استمريت فيه. كان يهمني أن أجلس جنب هذه الصبية وأن أسمع صوتها وهو يكرج ويغرد أحياناً وأن أسمع ضحكاتها الصغيرة وهي تتقطع في فمها. لكنني لم أعد حريصاً على الوقت. صرت أجيء وأذهب على راحتي، والخياط، كلما دخلت، يرشقني بتلك النظرة التي صار يتعمّد أن يديمها في وجهي طويلاً مع قلب شفتيه. هذا الموعد الخاص مع مريم لا يلائم هذا الدكان الذي لا طاقة لأهله على ان ينفردوا بشيء أو أن تكون لأحدهم مسألة شخصية. لم يعد الخياط وحده يرميني بهذه النظرة. شعرت أن الجميع ما إن يروني داخلاً حتى يتبادلوا النظرة نفسها. كان واضحاً أننا أحدثنا خرقاً في جو الدكان. إن هذا الخرق يتسع كل يوم ويهدد حياة الدكان والحزب الجاثم على أرضيته. كانت مريم الفتاة الوحيدة بين خمسة أو ستة ذكور في الدكان، الخياط أولهم وأكبرهم سناً، كانت عصفورة الحزب وينبغي أن تبقى للحزب، أي للجميع. الانفراد بها أيّاً كان السبب يهدد تلك المشاركة الخرساء التي هي الحزب. لم يخف عليّ امتعاض الخياط وشغيلته فصرت أتأخر وأسرع في الخروج. ثم تكاسلت يومين عن الذهاب. يومين كاملين طويلين قطعتهما مرحلة بعد مرحلة وساعة بعد ساعة. أعدّ الوقت إلى أن يحل الغروب وأدرك أن الدكان أغلق ولا مجال بعد للذهاب إليه.

حين ذهبت في اليوم الثالث رمقني الخياط بالنظرة نفسها. كنت أظن انه سيشكر لي تغيبي ولن أتعجب إذا منحني ابتسامته، لكنه رماني

بنفس النظرة التي يبدو أنه استقر عليها ولن يعود عنها. لو رآني الآن، إذا كان لا يزال حياً، لرفع عينيه إلي بالنظرة ذاتها. الخياط صاحب ضغائن وأنا اليوم أظن أن الضغينة هي شريان الحزب، إذ لا يمكن لعاطفة ان تغدو عقيدة إلا ان تكون ضغينة. أما مريم فلمعت عيناها ما أن رأتني، نهضت عن شغلها عند ذلك وحملت كتابها وصعدت إلى السدة الفوقانية وأنا تبعتها. في السدة وجدنا عاملين على ماكنة الخياطة لكن مريم لم تكترث، أمسكت بيدي وانزوت بي في ناحية من الغرفة. سألتني بلهفة "لماذا غبت" وأجبتها أن لا أمل في الدرس وعلينا أن لا نماحك، الرياضيات لن تنفذ إلى عقلها. قالت إنها تعرف لكنها تريد أن تراني. ثم قالت: اسمع، ضاقت روحي من هذا الشغل، أريد أن أمشي. اذهب وانزل إلى الأوتوستراد وانتظرني جنب مبنى شركة الكهرباء وأنا ألحقك بعد نصف ساعة إلى هناك. سأدبّر حجة وأخرج.

بعد نصف ساعة لم تظهر في الأوتوستراد. بدأ الانتظار، أخذت أعدّ الأرقام لأملأ الوقت. قبل أن أصل إلى الثمانمائة ظهرت فقطعت العد واستعددت لاستقبالها. لم أكن دارياً بما أفعله لذلك رميت الأمر عليها. حين وصلت منحتني ابتسامة متواطئة. كنا كهاربين من المدرسة، كان الشارع لنا لدرجة أننا كنا ننزعج من أي مار آخر وكأننا هكذا نرفض شراكته. قالت وهي تنثني وتحرك جسدها وترفع صدرها النافر.

– حلّك تفهم أنو الدرس حجة، أنت بتعجبني. بحب اقضي وقت معاك.

لم أكن أعرف كيف أجيب على كلام صريح كهذا. أظن ان علينا أن نتدرج إليه خطوة خطوة، وإذا رمي هكذا في وجوهنا لا نجد بسرعة

جواباً. بالفعل لم أجب. لا أعرف ماذا انتظرت مني لكن بعد أن طال السكوت أخرجت من جزدانها تفاحة وقطعتها بسكين صغير، في سلسلة مفاتيحها، إلى قسمين وأعطتني نصفها وأخذت هي تمضغ النصف الآخر. وقالت وهي تعض نصف التفاحة:

- شو بيك خرست. أوعى تكون مخمن إني عمغازلك. أنت بتعجبني يعني أنك شاب مرتب، مربى وحلو، إيه حلو ما عم خبي. بحب إحكي معك. إحكي معك بس. أوعى يكون خطرلك شيء تاني.

بعد ذلك أخذت تحدثني عن الشبان الذين تعافهم لفرط ما يلاحقونها. أولئك الذين يمشون في أثرها مسافات بدون أن يتفوهوا بكلمة. الجار الذي يقف طوال النهار في الشباك يرمقها بنظرات ملتهبة. وابن عمها، نعم ابن عمها الشغيل في الدكان، الذي في غياب أهلها دخل إلى بيتهم وحشرها في الزاوية، احاطها بيديه وأخذت هي بيديها وبكل جسدها تطرده عنها، ولم يتركها إلا بعد أن غرست أظافرها في وجهه وأدمته. قالت إن المشكلة هي الخياط. لا تعرف ماذا يريد منها. إنه لا يغازلها، تظن أنه لا يعرف كيف يغازل، لا جرأة له على أن يغازل. لكنه يجتهد ليبعدها عن اي مخلوق يشعر بأنها تميل إليه. يريدها فقط أن تبقى تحت سقفه، أن يتحكم بها. لا تعرف إذا كان يحبها لكنه يغار، نعم يغار من كل من تكلمه، حتى الكلام لو استطاع لمنعها عنه. إنه يحجر عليها بأي طريقة كانت، لكنه لا يقول لماذا، لا يقول له إنه يرغبها، لا يلمسها ولو بالمصافحة. يتصرف كما لو أنه ابوها. هي تستقبحه. صلعته وقصره وفمه الملتوي تجدها

شنيعة. ثم إنه كبير، كهل، وهي لم تتجاوز الستة عشر عاماً. كانت كعادتها مسترسلة في الحديث حين وقفت فجأةً وأشارت إلى واحد نحيل يرتدي جاكيت سوداء قصيرة وبنطلون جينز، كان ابن عمها الشغيل. قالت إن قلبها نخسها. لقد أرسله وراءنا. إنه يلاحقني ولا يقول لي كلمة واحدة.

افترقنا وعادت هي إلى المشغل وعدت أنا إلى غرفتي.

كان هذا سبباً لأبتعد عن المشغل. قررت أن أنشغل بالمدرسة وبامتحاناتي التي تقترب والحزب الذي كان لدخولي إليه أثر إيجابي، فالخلية التي كنت سكرتيرها هي الوحيدة التي تجتمع بانتظام والفرعية التي أنا عضو فيها منتظمة بفضلي، إذ أنني أدبّر عملاً لكل اجتماع. ثم أنني أعددت برنامجاً تثقيفياً للخلايا وهذا جديد في الحزب، وبشير العضو المرشح للجنة المركزية يسندني. ابتعدت عن المشغل، بل إنني نقلت بعض الحزب إلى غرفتي التي كنت ألتقي فيها بالرفاق التلاميذ المهتمين أكثر بالعقيدة. لكن الذي حيرني وملك علي هو ملاحقة مريم لي. كل يوم يحمل إلي رفيق كلمة منها، تقول إنها مشتاقة وتريد أن تراني في المشغل وسيكون كل شيء على ما أحب. كنت أرد بأنني لن أدوس عتبة المشغل لأني منهمك بامتحاناتي وسأراها حين أفرغ منها، لكن رفيقاً آخر يحمل منها أنها لا تصدق أعذاري وتريدني أن أراها بأي ثمن. كنت اهمّ بأن أذهب لرؤيتها في المشغل، لكن نظرة المعلم حين أتذكرها تردعني عن أن أفعل. استمرت تلك الرسائل بيننا جيئةً وذهاباً، وفي عصر يوم، فيما كنت ألفّ أنا وأحد الرفاق على قطعة من رغيف لبنة وزيتوناً دق الباب. ذهبت وفتحت ولدهشتي وجدت في

الباب مريم وقد لفّت شعرها بإيشارب، وارتدت فستاناً معرقاً يصل إلى ما تحت الركبة. ما إن رأتني حتى قذفت في وجهي:

– اللي ما بيجي لعندك تعا لعندو، هياني جيت على أوضتك خلي كل البلد تعرف.

دخلتُ ورأت في غبش العصر الرفيق وقد بدأ يأكل لفافته فعلا صوتها:

– خليه كمان يخبّر البلد كلها، أكيد المعلم والناس كلها رح تعرف وخوذ مللا جرصة.

وازدرد الرفيق لقمةً وهو يفتح الباب ويخرج، تاركاً إيانا وحدنا – لما صار في الخارج، قالت لي:

– تع اقعد حدي واللاّ كمان مستحي، شو ما عاد اخطر ببالك. قول كان عندنا صاحبه. لنشوف شو صار فيها.

جررت كرسياً وذهبت وجلست عليه جنبها منزوياً قليلاً مائلاً بجسمي إلى الجهة الثانية، فصرخت بي:

– اقعود منيح شو خايف اعتدي عليك. خايف اغتصبك.

واعتدلت في جلستي وأنا أتمتم بدون أن أجد الكلمة أن "القصة مش هيك" وإني بالطبع لا أخاف من أن تغتصبني. هدأت ثم تناولت كفي فسلمتها كفاً بارداً، لكنها أخذت تعصره في يديها وتفركه، فاستيقظت رغبتي وشعرت بأن قلبي وفمي وعضوي موجودة في كفي. كانت كل حركة من يديها على كفي تستجرّ خفقةً في قلبي وارتعاشةً في عضوي. رفعت كفي إلى وجهها وملّست به على شعرها وانحدرت به إلى عنقها وسربته من ياقة فستانها إلى كتفها، وحين

حاولت أن أغمرها بيدي الثانية دفعتني بيدها ونهضت وقالت:

- دلني على البن. بدي أعمل قهوة.

وذهبنا سويةً إلى المطبخ. حين تناولت من على الرف مرطبان البن ومرطبان السكر، وأشعلت لها البوتوغاز، وقفت بعد أن سحبت معلقة صغيرة من على المجلى تغرف بها البن والسكر وتلقيهما في الركوة. وقفت جنبها وكنت شبه متماس معها. حاولت أن أحيط خصرها بذراعي لكنها دفعتني وانفتلت مني وقالت بعبارة جازمة:

- خلص بيكفي. هلق بنشرب قهوة.

حملت الصينية بالركوة والفناجين إلى الغرفة حيث جلسنا على السرير نرشف القهوة وقالت:

- هيك. ما بدك تجي عند الخياط. ابقى لاقيني بالساحة، بنروح سوا على الحرش الساعة ثلاثة بعد الظهر.

في اليوم التالي، لم أصدق حتى صارت الساعة الثالثة بعد الظهر. مشينا في الساحة وسرنا مسافة في طريق فرعي. ثم انعطفنا إلى طريق زراعي ووجدنا أنفسنا بعد قليل أمام الأشجار المتشابكة، وبدأنا نتوغل في الظل الكبير وننفذ من بين الأشجار، ومريم سعيدة حين تضرب الأغصان وجهها، سعيدة حين ترتطم بالشجر. سعيدة إلى درجة أنها تكاد تلقي بنفسها في الغيضات الخضراء. كانت تقفز من بين الجذوع ووجهها متورد وتنهداتها مسموعة. رأينا في ناحية شاباً وصبية وقفا في ظل شجرة وقد تحاذيا وتماس كتفاهما، فقلبت شفتيها. لكنني حين أحطت خاصرتها سمحت لي، بل وقفت قبالتي حين وصلنا إلى فسحة صغيرة ونظرت إليّ برأسها المرفوع نظرات متحدية. تقدمت منها

واحطتها بذراعي وجذبتها إلي فألقت شعرها على وجهي فاغرقته في عنقها. سربت كفي من ياقتها إلى صدرها. نبشت بإصبعي عن حلمتها فوقفتْ تحته، ودسست أصابعي في سوتيانها وغمرت براحتي قبة النهد فالتصقت بي وصرنا قطعة واحدة. غرستُ صدري في صدرها وأطبقتُ عضوي وهو تحت القماش على عضوها خلف فستانها، وبدأت انحت فيه. تماسينا إلى حد التداخل ووصلت روحي إلى منتهاها فقذفتها في بنطلوني. في هذه اللحظة وقعت على رأسي بلوطة. نظرت من وراء مريم فرأيت صبياً يرشقنا ووراء الصبي كان الشغيل ابن عم مريم صامتاً يراقب.

انفتلت مريم من ذراعي وابتعدت عني. وقفت لدقيقة تتأمل مرعوبةً ابن عمها. ثم بدون أن تقول كلمة أدارت ظهرها واخذت تمشي عائدةً. صرخت باسمها لكنها لم تلتفت إلي. كانت تمشي وهي ترتطم بالأغصان كأنها منومة. صرخت باسمها مرة ثانية وأسرعت باتجاهها، لكنني حين صرت بمحاذاتها نظرت إلي بوجه طار لونه وبعيني فارغتين. رفعت يداً تطلب مني أن أكفّ عن ملاحقتها فابتعدت عنها وتركتها تكمل وحدها. حين رفعت عيني وجدت الصبي وحده وبيده حفنة بلوط. أما ابن العم فقد اختفى.

الفضيحة مع ذلك لم تحصل. لم يصل إليّ أن احداً تكلم عن موعدنا في الحرش. اختبأتُ في غرفتي يومين وحين خرجتُ توقعت ان أجد البلدة تغلي بالخبر، لكني عبرت السوق و لم أحس ان أحداً نظر إلي. مررت قريباً من دكان الخياط لكني لم أجسر على أن أقترب أكثر. صادفت أحد شغيلته أمام محل للخضار وتجاهلني. فهمت من ذلك

أن لملمة المسألة تمّت قبل أن تصبح فضيحة. تكتم الجميع عليها، لا بد أنها اعتبرت من أسرار الحزب، هذه بالتأكيد إرادة الخياط. سُري عني. كنت أتوقع أن أجد لحمي في أيدي الناس، أن يرشقوني جميعاً بالنظرة التي صبّها علي ابن عم مريم في الحرش. جسرت هكذا على أن أرفع راسي بعد أن كنت طوال الوقت مطرقاً أحمي نفسي من عيون الآخرين. تحررت من خوفي، فصرت أسبقهم بالتحية بل وأمازحهم. بقيت وقتاً آخر في السوق. أحسست أن شخصاً يقصدني، كان شغيل الخياط جنبي ويريد أن ينزوي بي. حين انتحينا قال بسرعة إن الخياط يريد أن يراني. سرت معه إلى الدكان. حين وصلنا كان الخياط يعلّم بالطبشور قطعة قماش والمتر القماشي في عنقه، لم يرفع بصره إلي واستمر في عمله. نظرت إلى الغرفة فوجدت مريم تشير لي بالتحية من آخر الغرفة، كانت على ماكنتها تدرز. بشت في وجهي وأشارت لي بيدها أن أقترب منها، لم أجرؤ بالطبع. كنت لا أزال جنب الخياط أنتظر أن يفرغ من تخطيط القماش. بقي منكباً على عمله وخيل إلي أنه يتعمد أن يطيله، انتظرت جنبه وهو إلى الآن لم ينظر إلي. نظرت ثانيةً إلى الغرفة فرأيتها صامتة، الشغيلة منكبّون على عملهم لا يتكلمون وكأنهم حبسوا أصواتهم. كنت واقفاً وسط تظاهرة تجاهل. انتظرت أن ينتهي الخياط لكنه لم يرفع بصره إلي فاستمر هكذا في إطالة أسري. نظرت مجدداً فوجدت مريم من وراء طاولتها لا تزال تشير إلي. لم يبدُ أن أحداً من الحاضرين شاعر بمأزقي، كنت هنا كأنني لست موجوداً. يحدث أن يبقى الخياط في عمله تاركاً الناس وحتى الزبائن ينتظرونه، لكنه هو الذي أرسل شغيله ورائي، لم يكن هناك سبب للعجلة. شعرت

بقدمي تخوران من الوقوف فجلست على كرسي قريب، تركني الخياط أجلس و لم يبادلني نظرة. كنت وحدي شاعراً بدراماتيكية اللحظة التي تمر بدون اهتمام من الآخرين. بدأ ذلك يرقّد انفعالي ويدخلني في روتين الجو، صرت مجرد شخص ينتظر. غرقت في نفسي و لم أنتبه إلا بعد لحظة إلى أن الخياط ينظر إلي تلك النظرة الفارغة التي اعتدتها، حين التقت عينانا قال لي:

– مين هون!

لم يكن هذا سؤالاً بقدر ما هو طرد ضمني. لم أقل له بأنه أرسل ورائي وأنني هنا بناءً على طلبه، كان بالتأكيد يعرف ذلك. سكتُّ منتظراً كلامه، سكت هو الآخر وعيناه لا تزالان علي. كان ينتظر اللحظة التي يصوّب فيها عبارته التي أردفها بصوت مسموع للجميع وكأنها حكم:

– مين هون! شو جايي تعمل هون؟ ما عاد بدنا ياك بالمحل. هذا محل محترم وإلو سمعتو. نحنا هون رفاق. رفاق هذا شي حضرتك ما احترمتو. ما عاد بدنا ياك بالمحل. خلص. ما تعود تدعسو.

سكت وعاد إلى تخطيط القماش. نظرت فوجدت مريم تؤشر بيديها، لكني خرجت فوراً. فكرت يومها إذا كان الخياط يحب مريم. لم يقل لها ذلك ولو مرة واحدة. بقيت مريم في المحل سنتين إضافيتين إلى أن سافرت إلى الاتحاد السوفييتي و لم يقل لها إنه يحبها، هل كان يعرف ذلك حقاً، هل كان يعرف أنه يحبها. لقد أحبها في الحزب كما نقول اليوم عن شخص أنه أحب في الله. أحبها في الحزب، وكانت هكذا له، فالحزب له كما أن المحل له. كانت له بمجرد وجودها في

المحل وكان يريدها فقط هكذا، في ظله وفي محله، وليس عليه إلا أن يطرد الآخرين عنها فهكذا تبقى له وللحزب.

كرهني الخياط. صرت محل ضغينة. لم يكلمني من وقتها وإذا التقاني أدار وجهه. طردني من دكانه لكنني لم أكن الوحيد الذي فعل هذا معه. طرد الخياط من دكانه عدداً من الرفاق لأنهم لم يروقوا له. كانوا رجالاً معه في قيادة المنطقة وحصل بينهم ما يحصل بين الرجال. تزاحموا وتنافسوا واغتابوا بعضهم بعضاً والخياط حرم عليهم أن يدوسوا دكانه. كانوا جميعاً أصحاب ضغائن والحزب، الذي جمعهم، اتّسع أيضاً لضغائنهم. بل تنازعوا فيه وعليه.

مريم بقيت تلاحقني وحيث أذهب كنت أراها على طريقي. لكنني لم أعد أهتم، وحين صارت تكتب لي لم أجب على رسائلها. أظن أن الحب كان بالنسبة إليها كضغينة الخياط لا يقتلعه شيء من قلبها. طردني الخياط من دكانه و لم يطردني من الحزب لكنه حرص على أن لا نتصادف فيه، وحين صرنا في مرتبة واحدة صار يغيب عن اجتماعاتها، وعندما اختاروني لمرتبة أعلى قاطع الحزب، لكنه ظل مدموغاً به ولا سبيل ليفترق عنه.

٤٣

الرعد يجار في السماء، ويهدر وسط الغيوم قبل أن يهوي على الأرض ويغور فيها تاركاً صدىً ممتداً ومترجعاً. المطر يتبعه كثيفاً وعاصفاً والفضاء مكتظ بغيم خيّم بظله الداكن عل كل شيء. عاودني الشعور بأننا في القاع وسقف السماء المائل يكاد يطبق علينا. أتساءل الآن، وليس قبل أن أتخطى الخمسين، عمّا أخذني إلى الحزب. لم يخفَ علي أنه أشبه بجمعية متقاعدين وأكثرهم ما عادوا يعرفون لماذا وُجدوا فيه. كان بينهم الفقراء والمتوسطون والأغنياء، ولا تجمعهم مصلحة واحدة، على الأقل لن يجدوها في الحزب الذي كان عائلتهم فحسب. أنا لم تكن مصلحتي في الحزب بل لم تكن لي مصلحة على الإطلاق. كان والداي يغدقان علي وأعيش بفضلهما ميسوراً. نجحت في تعليمي لكني لم أفكر في وظيفة، كفاني أهلي وأغنوني عن طلب أي شيء. لولا الحزب لقتلني الفراغ وسوى الحزب لم يكن لي أي شغل.

كنت مجرد ابن للحزب، أعطيه وقتي. وجدتني قيادة الحزب هكذا فزادت من أعبائي، وكلما رموا علي مهمة جديدة أنشط أكثر وأزداد استعداداً. لم تكن لي لعبة أخرى. جربت المقامرة لكني لم أطق أن

اعود كل ليلة بالأمل ذاته. كنت أوسع خيالاً من ذلك. كنت أعرف أن الحزب أصغر من ان يلعب مع التاريخ والمستقبل، لكن هاتين الكلمتين تستحقان أن ندّعيهما. إذا كنا نلعب مع كلمة كبيرة فإن الأمر يستحق. لم أكن متمرداً في الحزب، كنت مطيعاً. عرفت أن لا شيء على حقيقته، إنها كلمات فحسب، وتصديقها يجعلنا أكثر سذاجةً، والذين يشاغبون هم الذين يصدقونها. كنت مطيعاً لأن هذا أفضل للعبة وعلينا فقط أن نلعبها. هذا بالطبع أعجب القيادة التي لم تجدني خطراً ولا مريباً فصرت أترقى بسرعة. ساندني بشير وكنت بحاجة إلى مساندته، لأن العشيرة الحزبية تتألف من أفخاذ كثيرة وبشير الذي كان مسنوداً هو أيضاً أضافني إلى أرومته، هكذا انتميت إلى إحدى عائلات الحزب، بل صرت من أركانها. هذا مهم بالطبع إذ لا يحسن أن نكون في الحزب يتامى، علينا أن نكون من سلالة معتبرة، أن نتحدر بشكل ما من أحد الأرومات التي ترقى إلى أحد بارونات الحزب. صرت بسرعة مرشحاً للجنة المركزية، بعد ذلك دخلت في جهاز آخر موازٍ للقيادة الحزبية. صرت عضواً في اللجنة التثقيفية الحديثة العهد فالحزب، حيال منافسة الجماعات اليسياروية التي كان التثقيف ميزتها الوحيدة، أسس هذه اللجنة ونشرها على كل الحزب بحيث لم تعد هناك مرتبة أو هيئة مغلقة أمامها. تحولت اللجنة التثقيفية إلى قيادة موازية، كنت أنا وبشير محركها. هكذا صار الحزب مفتوحاً لنا نحن الاثنان. صرنا نخترقه من أقصاه إلى أقصاه. كان علينا، عليّ أنا خصوصاً، أن نعدّ برناجاً تثقيفياً للكوادر، وللقواعد. برنامج الكوادر كان بضعة كتب، أمّا برنامج القواعد فكان مجموعة من المبادئ. بسطنا هكذا مفاهيم

كنا نحن الاثنان نعيا بها. هذه المهمة التربوية أخذناها على عاتقنا وأدينا أمام الكوادر دروساً للقواعد، ثم صرنا نصمم دروساً مكتوبة ونشرحها للكوادر ونترك هذه تؤديها للقواعد. كان هذا بالنسبة إلي مناسباً، الحزب بات بالنسبة إلي هذه الكلمات، كنا نقترب عبر النصوص والكلمات من التاريخ والمستقبل، لم تكن الدروس التثقيفية سوى استحضار طقسي لهما. كانت هذه احتفاءات بهما، صارت مع الوقت ومع التكرار حقيقية. كنا نستحضر الأشياء بمجرد الكلام عنها، زدنا في الكلام عن الحزب وكأننا هكذا نبتكر الحزب. صار الحزب بالنسبة إلينا يتجدد ويتكون ثانيةً في الكلمات التي تتحدث عنه. لم نشعر نحن فحسب بهذا، شعر به حتى بارونات الحزب، صاروا هم أيضاً مثقفين، بل باتوا يتجولون معنا في زياراتنا الحزبية ويتكلمون في الاجتماعات، يتكلمون كثيراً وكثيراً جداً ويستطردون ويروون حكايات وتواريخ والرفاق مسرورون بهم. الرفاق أيضاً في الكوادر والقواعد شعروا أيضاً بأن الحزب يتجدد، بل وجدوه شخصاً مجسداً أمامهم، كان للاجتماعات وللمطولات الكلامية هذا السحر. كنا نحتاج فقط إلى كلام كثير عن الحزب ليوجد وليغدو حقيقة.

٤٤

يوم لطيف بعد خمسة أيام عاصفة. انتظرناه بعد أن أعلنت عنه نشرات الطقس التي ذكرت أن ستتبعه خمسة أيام معتدلة. زدنا مع نشرات الطقس اهتماماً به، لم نكن من قبل بهذا الاكتراث ولا بذلك الاستعداد. نشرات الأخبار جعلت الطقس موجوداً أكثر في حياتنا. كان أيضاً نهار أحد، إنه يوم خاص حتى بالنسبة إلى من لا يعملون مثلي. نهضت من فراشي ووجدت التلفزيون قبالتي لا يزال مشتعلاً، قلما أطفئه وأستيقظ شاعراً بانني بقيت أسمعه أثناء نومي. التلفون يرن في هذا الوقت المبكر، أتناول السماعة وأسمع المعلم يوسف كان معجوقاً وبالكاد يجد كلماته:

– ستك، قبر ستك، باطون. حجار وترابي. ايه قبر ستك. كميون حجار وترابي.

استمهلت المعلم يوسف الذي بدأ بترتيب كلامه:

– جابوا على قبر ستك كميون حجار وترابي.

وأسأله من هم فيقول إنهم أهل السراط. الكميون حمل حجارة وأكياس إسمنت ألقوها جنب القبر. المعلم يوسف يريدني أن أذهب

وأستفسر. لم أجد بسرعة همة كافية للذهاب. المعلم يوسف قال إنهم أفرغوا الكميون وذهبوا، لم يتركوا أحداً لأساله. تمهلت، نزلت من البيت وأحضرت من الفرن منقوشة. حضّرت الشاي وجلست آكل. كنت أؤخر هكذا خروجي وذهابي. قاربت الساعة الظهر حينما خرجت، استمتعت بشمس الشتاء وصعدت إلى المقبرة. كان الطريق مظللاً على جانبيه بأشجار الكينا التي لا يزال معظمها قصيراً، بينما شبّ بعضها وتكاثف. رأيت على جانب آثار المقهى الصيفيّ سياج وكوخ خشبيّ في الزاوية انطبعت عليه صورة زجاجة كوكاكولا. صرت تحت المقبرة، انعطفت وصعدت إليها، وصلت إلى قبر جدتي، كان هناك فعلاً جنبه أكياس اسمنت مكومة فوق بعضها وحجارة باطون مرصوصة بشكل أفضل وعدة شغل، مطارق ومسحاة ورفوش بالإضافة إلى كومة من كسر الحجارة. لم أجد أحداً فنزلت كما صعدت، وتوجهت إلى دكان المعلم يوسف الذي وجدته غائباً. انتظرته إلى أن أتى وهو يصرخ بصبيّه ويؤنبه. ما أن رآني حتى ألقى أمراً لصبيه الذي ابتعد، بينما بش المعلم لي فزادت ابتسامته من شعوري بحدة ملامحه، إذ بدت وكأنها فجوة قسمت وجهه وجعلت نصفه الأسفل مرتخياً مغضناً. لم ينتظر سؤالي، قال إنه عرف من أعضاء في أهل السراط أنهم سيعمرون القبر. أما كيف فهم لا يدرون. الحاج مهدي هو الذي يشرف على ذلك وسره عنده. إذا أردت أن تعرف أكثر اسأله.

لم أرد أن أعرف أكثر. سيبدأون العمل من الغد وسنعرف عندها. اليوم الثاني استيقظت مبكراً. كنت قضيت ليلة مزدحمة بأحلام تذهب

وتروح حول القبر. لا أذكر منها شيئاً سوى تلك الصورة لقبر عالٍ كالبرج يتهدم لساعته وتنهار حجارته وتتكوم بحيث تملأ المكان. صورة أخرى لعقدة من الدهاليز والطرقات السفلية عييت عن متابعتها وتاه بصري فيها. لم أكن، مع ذلك، مستعجلاً لمعرفة ماذا يجري للضريح. عبد الكريم رنّ جرس الباب في العاشرة صباحاً وأخبرني – أظن أن صبحية أرسلته – إنهم يرصّون الحجارة فوق بعضها وقد جبلوا الاسمنت بالماء وكسر الحجارة وهم يرفعون بالتأكيد حيطاناً. إنهم يبنون غرفة حول الضريح.

لم يكن عبد الكريم وحده الذي أخبرني، شابان لعلهما من أهل السراط، لا أعرفهما. كان أحدهما طويلاً والثاني متوسط القامة والاثنان تركا ذقنيهما خشنتين وحين استقبلتهما رفع كلّ منهما يده إلى صدره قبل أن يصافحني. تكلم المتوسط القامة بصوت رفيع وحاد وقال إنهم يعمرون القبر، وحين سألتهما لأي غاية لم يجدا جواباً. قالا إن الحاج مهدي هو الذي قرر وإن هذا كان بأمر من شورى التنظيم، الحاج وحده هو الذي يعرف.

كان عليّ أن أبدو مهتماً، القرية تغلي بالخبر والجميع ينتظرون كيف سأتصرف. أخيراً صعدت فوجدت أنهم وصلوا إلى منتصف الحيطان. سألتهم ماذا سيفعلون قالوا إنهم يبنون غرفة وسيبدأون صبّ السقف بعد يومين. شعرت بأنهم مكلّفون بأن يخفوا شيئاً، لم أصدّق أن هذا كل ما يعرفونه. بعد يومين حين بدأوا صبّ السقف كان الجميع يعرفون أنهم يبنون قبّة فوق الضريح. لقد رضخ أهل السراط في النهاية. هم أنفسهم سيجعلون من امرأة وليّة. ستكون العلامة تلك القبّة فوق ضريحها.

هذه المرة قررت الذهاب لرؤية الحاج مهدي. عندما رننت الجرس فتحت لي ذات الجارة الستينية فدخلت من نفسي إلى الصالون وجلست أنتظر الحاج وأتأمل الكنبات والكراسي المصفوفة. لم يتأخر الحاج، دخل بقامته الممشوقة بطقم بني وربطة عنق زرقاء وبوجه كلارك غيبيل وابتسامته وشاربيه. صافحني وهزّ يدي كثيراً قبل أن يجلس قريباً مني وقال فوراً:

- أكيد جيت تقللي كيف رجعت بكلامي، قلتلك شي وهلق عمبعمل عكسو.

سكت. وانتظر مني أن أتكلم. ترك لي أنا أن أصوغ احتجاجي، لم يكن مناسباً لمن هو في لياقته أن يقوله عني.

قلت له، استطراداً للحديث الذي جرى بيننا في بيته، إنهم الآن يقرّون بأن من حق امرأة أن تكون ولية وأنهم هكذا نزلوا عند دين الناس البسطاء، وإنهم مانوا على الله ولم ينتظروا حكمه وقرروا قبل أن يعرفوه. كان يسمع ويهز رأسه وأنا أردّد تقريباً الكلمات التي قالها لي. لما انتهيت قال:

- إسمع يا خيي جلال ستك حسب ما بعرفها مرة صالحة. لكن الولاية الله وحدو بيقررها. نحن اللي عملناه قبة بالزايد. ليش كل قبة تحتها ولي؟ نحنا شو عرفنا؟ فيه مليون قبة ببلاد الإسلام. الناس بدها تكرّم ستك، مطلب مش عاطل. بالأساس هيي مرة صالحة، نحنا بنعرف أنها صالحة. وإذا عمّرنا قبة شو بنكون عملنا؟ قبة بالزايد مش أكتر.

"قبّة بالزايد" ظلّ الحاج مهدي يكررها وكأنها لازمة في حديثه.

قال إنهم سيقيمون احتفالاً بمناسبة بناء القبة ويريدني أن أتكلم فيه. لم أكن أتصور نفسي خطيباً في مناسبة كهذه. اعتذرت وكأنما انتظر اعتذاري فلم يلح. مع ذلك لم أشأ أن أخرج خاسراً، الحاج بدون شك محنّك وصاحب حجة لكن ينبغي أن لا نتركه يربح على الوجهين. قلت له إن هذا سياسة وإنه هكذا يترك الدين للناس البسطاء وإن هذا لعب بالدين والإيمان. ظل الحاج مهدي يبتسم وأنا أتكلم حتى صعب علي أن أكمل فاستلم مني الكلام. هذه المرة لم يكن في نيته أن يجادل. فضل أن يتحول إلى جدتي. لم يقل فقط إنها صالحة، قال إنها كانت امرأة جميلة، قال إن الحاجة هدية كان عقلها يزن جبلاً. ولا أعرف كيف نقل الحديث إلى جيراني إلى أبو عبد الكريم وأم عبد الكريم وصبحية. قال عن صبحية إنها لم تتوفق في زواجها وكان هذا الزواج شؤماً عليها، قال إنها فتاة طيبة ولا تستحق. الحاج مهدي يحسن التخلص من حديث إلى حديث وينتقل بين الموضوعات بفن. لقد ورث هكذا فناً يتمرس به الوجهاء. مع ذلك بدا لي أنه يريد من هذه الأحاديث المتفرقة أن يصل إلى غرض ما لم أعرفه و لم أعرف إذا كان حقاً وصل إليه.

٤٥

– بالآخر إجا، قلتلو طوّلت. تأخرت كتير. أنا مش سكربينة بتقلعها من أجرك وبتلاقيها وقت البدك ياها. تأخرت كتير يا حلو. أنا مش رح إحْرُك من هون إلا لمن تجيب اخواتك يترضوني. حاج يقولو عني شرموطة، موسخين سمعتي بالدنيا كلها. مش ناقلة من هون إلا لمن تجيب ولادي، اللي انتو فسدوتهن عليي، يجوا يترضوني.

كانت سلمى تتكلم باعتداد، صح ما انتظرت هذه المرة أيضاً. حين طال الوقت ولم يأت عبدالله يسترضيها خافت من أن يكون صار عاصياً وبات أعند مما تعرفه. تشوشت لكنها لم تبادر، أرادت أن تبقى في مكانتها وأن لا تجرئ الآخرين عليها. حين جاءها عبدالله اليوم انتعشت لأنها ربحت أيضاً، لن تضطر لتغيير أساليبها. عدنان بكرها، كما قالت لي، يابس الرأس ولن يأتي مهما حاول لكن لعبدالله مونة على أخواته وكبيرتهن ستأتي معه. قالت سلمى إنهما يومان أو ثلاثة وتعود إلى بيروت. ملّت الضيعة، لولاي، كما قالت، لكانت صحراء قاحلة. ماذا في الصنوبرية سوى البعوض. نهشها منذ جاءت ولم يقتله البرد، قذارة وبرد، هذا كل ما جنته من الصنوبرية. لولاي،

قالت، كانت اختنقت. ارادتني ان أذهب إليها. فكرت فوراً بصبحية. لا بد ستعرف، في الصنوبرية لا يتخبأ شيء. لا بد ستعرف في اليوم ذاته. قلت لسلمى إنني مشغول ولا أستطيع ان أذهب إليها، قالت لي:

– شو خايف اغتصبك. لأ يا سيدي ما حدا رح يدقرك، اتطمن كمان فيه عندي عمتي سكنة هيذي زبيبتها طويلة وبدها تعرف كل شي. ظنينة. والله بقلك، احسن ما تجي. احسن ما تفتح عينها على شي ناسيته، صار لها تلاتين سنة، من لمن مات جوزها، ما ذاقت الطعمة.

لم يعجبني أن سهلت لي الاعتذار، لقد استغنت بسرعة عني. لا أعرف ما الذي جعلني أقول لها إنني سأقضي السهرة عند أم عبد الكريم، هؤلاء جيران ولهم علي أفضال وقد دعوني إلى السهرة ويجب ان ألبي. كنت أكذب على التلفون بجسارة لم أعتدها في نفسي. سلمى انتظرتني حتى انهيت.

– أم عبد الكريم، ليش عم تبرم. قول دغري صبحية. سامعة أنها عم تدور حواليك. بس انتبه يا حلو. هاي مستجوزة بدها عريس. والله مناسبة، بنت حلوي وزغيري. أنا ما بغار.

كنت أريدها بالطبع أن تغار. تعجبت من نفسي، لماذا حبكت هذه الكذبة، لم اكن مضطراً لها. ماذا اريد من سلمى أيضاً، أن تعود بسرعة إلى زوجها. لماذا أشعر انها ما دامت هنا فلن أكون حراً، كأنها مشكلتي أنا. لماذا مع ذلك أريدها أن تغار؟

٤٦

– جيت لآكل لقمة معك. قلت حرام هـ الصبي من إلو حدا. قلبي حسني. شو عامل بغيابي. على فوقه سلمى راح ترجع ع بيروت. إجا جوزها وصالحها. طوّل هالمرة.

قلت لها إنني على علم بذلك. سلمى تلفنت لي. لكنها لن تعود قبل أن ترضاها أخته ويترضاها أولادها.

– هيتتك عارف قبل مني. شو هبله أنا. جيت لقلك، كانو ما عندك خبر. زعلتْ يا ميمتي. من هيك وجك اصفرّ.

كانت فرصتي لأقول لها إني اعتذرت عن لقاء سلمى، إني تحججت بها. أشرق وجهها وهي تسمع وغمرتني بذراعيها وطبعت قبلة على خدي. قالت إنها مرت علي قبل أن تذهب للشغل في بيت الحاج مهدي. عرفت منها أشياء عن الحاج مهدي الذي كانت تقدّره كثيراً. قالت إن زوجته مقعدة وأن الجارة الستينية التي فتحت لي الباب تساعد في إدارة البيت. قالت إنها كانت صديقة الحاجة وأنها منذ أقعدت لا تتركها. طالما عرض عليها الحاج أجراً لكنها لا تقبل. إنها تخدم صديقتها بعينيها. صبحية تقول عن الحاج مهدي "هكذا فليكن

الرجال". منذ أقعدت زوجته وهو يسهر عليها. يرعاها برموش عينيه. جلب لها أفضل الأطباء وأخذها إلى أفضل المستشفيات لكن داءها أعيا الطب. قالت إنه لم ينجب منها والسبب فيه. هو العقيم، عرض عليها أن يطلقها إذا كان الولد في نفسها، لكنها حلفت عليه أن لا يعيد هذا الكلام. هو رجلها ولا ترضى بغيره. قالت إنهما كانا، قبل أن تقع الحاجة، أسعد زوجين في الضيعة، يزوران معاً ويسافران معاً ودائماً معاً. منذ وقعت والحاج بين يديها. الحاج، كما قالت صبحية، تحت رجليها. يجلس إليها مطولاً، يجلس جنبها على الفراش، ويدفعها على الكرسي المدولب، ويحكي لها كل ما يمر به ويستشيرها في كل أمر، وكلمتها عنده واحدة ولا تصير اثنتين. ما تقوله يصدع له، وما تريده يصير. قالت إن الناس يتعجبون حين يرون الحاج ينزّه زوجته ويدفع كرسيها المدولب في أزقة القرية. الحاج مهدي رجل ليس مثله بين الرجال، قالت، وهي تغمز بعينها، إلا أنت. الناس يتحدثون عن لطفك مع كاميليا. أردفت بتشفٍّ "لكنها لا تستحق" أتاها حظ ولبطته برجليها. قالت وهي تغمز مرة ثانية، لكن الحاج طوال فترة مرض زوجته لم يقترب من امرأة، ليس "كمثل الذين يهيمون بين امرأتين". سألتها ألم يمد يده إليها. قالت مستفزةً أعوذ بالله الحاج لا يفعلها. في بيته لا يكلمني إلا "يا ست صبحية" "عن أمرك يا ست صبحية" أنا عنده "ست صبحية" فحسب. كانت صبحية ترتدي فستاناً فضفاضاً على جسمها. قالت إنه فستان شغل. ترى بعينيك إني أذهب لأشتغل لا لأغوي. تقول يمد يده إلي. أنت تظن إني سانحة لكل طالب. صحيح إني أشتغل في البيوت. أشتغل لكي لا أمد يدي

للناس، لكن الناس يعرفون من انا. أنا امرأة محترمة والحاج سيد من يعرف الناس، يقدّر من يعيش من شغله، من يأكل من عرقه. هل تفكر أني متاحة لمن أعمل عندهم؟ صحيح أن الحاج أرقى منك. أنا لست خادمة في نظره، ولا يرى إني سهلة لمجرد أني أشتغل في بيته. الحاج المؤمن الذي من أهل السراط... أرقى منك وأكثر احتراماً للعامل منك أيها الاشتراكي. تسألني إذا كان يمد يده إلي، اي عقل نتن دفعك لهذا السؤال؟ لو مد يده إلي ما كنت رجعت إلى بيته، كنت فضحته في كل البلدة. أتظنني أستهتر بنفسي؟ أحياناً أسأل نفسي ما الذي أعجبني فيك. أنت الأكبر مني بـ٢٥ سنة وربما أكثر، يا حيف عليك. أعجبني أنك احترمتني ولم تنظر إلي كخادمة. لو كنت أعلم أنك تظنني عرضة لكل رجل أعمل عنده ما تطلعت إليك. يكفيني الرجال الذين يظنون أني متاحة لأني اشتغل في البيوت. ما الذي يفرقك عن ابن خالتي هلال. كان أحسن لي لو اخترته. على الأقل ما كان سيظن أني عشيقة الحاج. ما كان سألني ذات السؤال، أي عقل نتن جعلك تسأله؟

٤٧

في الحزب كنت أشبه بالسنكري. يدعونني لإصلاح الأعطال في مكان أو لتركيب شيء ما في مكان آخر، لم نكن كثيرين في الحزب نحن السنكرية. الحزب يستقطب أشخاصاً ليس لديهم في الغالب ما يضيفونه إليه. إنهم بالكاد يعرفون المشي أو بالكاد يمشون. قوة كلامهم تأتي من كونهم لا يعرفون ان يعملوا أي شيء. إنهم يبنون ويهدمون بكلامهم وحتى في هذا فإنهم لا يصيبون. يتكلمون عن أشياء كثيرة في وقت واحد. بل يتكلمون عن كل شيء في ذات الوقت، ومن الجملة الأولى يكونون وجدوا علاجاً كاملاً ولم يبق عليهم سوى التعداد. يتكلمون بعد أن يكون الحل قد بدأ وعليهم فقط أن يضاهوه بالكلام. يقولون إن كل الأمور مرت من هنا وليس من الضروري ذكر كيف حدث ذلك. الحزب يستقطب هؤلاء الذين يركّبون جملاً على جملة أصلية مفقودة أو يسلم لهم هذا الشعور بأنها في أمانتهم. السنكرية يتسلمون التفاصيل التي يولدها واقع لم تشمله بعد بركة الكلام الأصلي وما زال بحاجة إلى حرتقة وإلى قدر من الإنجاز. إنها مسائل صغيرة على الطريق تحتاج إلى تقنيين يقومون بها ويبقون دائماً

رهنها. إنهم كشرطة المرور لا يصنعون المرور ولا تسمى الشوارع بأسمائهم. تقنيون يبقون على الهامش ولا تعرف لهم مرتبة ولا يرى أحد لهم وجهاً. إنهم موجودون فقط بتصرف بارونات الحزب الذين بالعلم الكلياني الذي لديهم لا يمكن الاعتماد عليهم في اي مجال محدد. هناك تقنيون للتثقيف وتقنيون للتنظيم وتقنيون للاقتصاد وتقنيون للشؤون العسكرية التي تولدت بعد ذلك. أما ما يفعله بارونات الحزب فهو الرئاسة، الرئاسة مقام يحتاج إلى وجوه ويحتاج إلى أسماء فحسب، حتى الكلام، الكلام الذي هو ملكتهم فلا يزيد عن ادّعاء حل مشاكل غير موجودة والإشراف على تاريخ لم يبدأ.

لم يطل عمر اللجنة التثقيفية. سرعان ما تعسّر عملها. كان تحويل الرفاق إلى طلاب جدد واختيارهم كل أسبوع فوق طاقتهم. ثم إن العقد مع الحزب لم يكن على هذا الأساس. أعجبهم في البداية كلام اعضاء اللجنة لأنه ياتي من فوق، من المكان الذي يصدر عنه الحزب ويتكلم منه الحزب، لكنه حين تحول إلى نشرة اسبوعية عليهم قراءتها والتمعن فيها ثم فهمها وحفظها، بدأوا يتذمرون. بدا لهم أنهم هكذا رجعوا إلى الطفولة، رجعوا إلى أيام المدرسة. الأولاد وحدهم يتعلمون وليس هذا حال الراشدين. ثم إن القراءة تقترن بالدرس، قليلون كانوا يقرأون جريدة الحزب. الآخرون كان لديهم فقط الايمان. إيمانهم لا يحتاج إلى حجة ولا إلى دليل. الحجة الكبرى هي الاتحاد السوفيتي، اليس قوياً، اليس سنداً؟ من كان له هذا الظهر لا يحتاج إلى برهان أكبر. الاتحاد السوفيتي وربع العالم الاشتراكي. من كانت له هذه العائلة ينبغي أن يعتدّ. النشرة التثقيفية التي كنا نعدّها ونوزعها على

الكوادر الذين يناقشونها مع الأعضاء أحدثت في البداية حيوية. لقد ملأت الاجتماع الحزبي الذي كان يعاني من فراغ قضى عليه بالتبجح. ذلك عاش فقط الأشهر الأولى قبل أن يبدأ الكوادر يهملون قراءة النشرة أو لا يتمعنون فيها. ثم شيئاً فشيئاً عادت العطلة الحزبية وصارت النشرة تتكدس في مطبعة الحزب. في الحقيقة أخذ قادة الحزب يرتابون في هذه الرغبة بالتثقيف. شعروا أن المثقفين المريبين بحسب التراث الحزبي يحتالون هكذا على الحزب ويلعبون به. التثقيف نفسه كان مريباً. أي مصلحة للحزب في تربية متذمرين ومحتجين دائمين؟

كان يمكن نقل هؤلاء الأذكياء إلى حيث لا يضر ذكاؤهم ولا يتسبب في أي إزعاج. كان ينبغي بالدرجة الأولى إبعادهم عن الأعضاء ثم تجميعهم في خلايا خاصة بهم أولاً. هكذا أمكن حصر شرّهم ومنع تسربه إلى بقية الحزب. في اجتماعات هذه الخلايا كان مباحاً نقد الحزب وقيادته، بل كان هذا مرغوباً، فهكذا يتم التحسب المبكر لمن يمكن أن يصيروا في المستقبل خطرين. حملت الحرب عدداً من هؤلاء إلى الحزب دخلوه بالعشرات. كان هذا إيجابياً لكن إذا لم يتم التنبه له قد يؤدي إلى تصديع الحزب. لا أعرف من الذي فكر في أن إلقاء هؤلاء في ملعب خاص بهم قد يمنع شرهم عن الحزب. لكنهم قد يكونون مفيدين إذا اشتغلوا في جريدة الحزب مثلاً أو توزعوا على مرافقه الاقتصادية. هكذا وكّلوا إليّ في البداية إدارة تعاونية في بيروت لأني درست إدارة الأعمال في الجامعة. التعاونية كانت اختباري الأول الذي نجحت فيه، التعاونية لم تكن تربح حين تسلمت إدارتها لم أعرف بسهولة أين يتسرب المال. لكني بدأت أدوام فيها

وأراقب كل شيء، بالنتيجة صارت التعاونية تربح. أعدت ذلك إلى حسن الإدارة. اتّهمت الفوضى و لم أرد أن أتهم الرفاق، في الحقيقة بدأت أشتبه ببعضهم. لكن الحزب كله سيتأثر إذا ثبت أن هناك رفاقاً يسرقونه، لم أفهم أن علاقتهم به تنقلب إذا كان رب عملهم.

بعد تجربة التعاونية، نقلوني إلى صيدلية. لم أصدق أن هذه للحزب. عندما دخلتها لأول مرة وجدت العامل يصرخ بزبون وقف قبالته بجفلاً. كان الزبون يتذمر من سعر الدواء والعامل يؤنبه على ذلك.

يقول له إنك تتذمر من كل سعر، إذا لم يكن عندك ثمن الدواء فلا تطلبه من الصيدلية. كان فقر الرجل محل هزء العامل، انتظرت إلى أن خرج الرجل تشيعه نظرات العامل المحتقرة وذهبت إلى العامل فدمت له نفسي فقال إنه يعرفني. لقد أبلغوه بأن الحزب انتدبني للإشراف على الصيدلية. لما قلت له إنه لا يجوز أن تذلّ الناس بسبب فقرهم، تركني أتكلم لكنه استمر ينظر إليّ بعين فارغة، وكان كلامي يمر بالكاد على أذنيه. انتهيت من كلامي فقال لي: يا أستاذ. لم يقل لي: يا رفيق.

– يا أستاذ. هذا شغل، بيع وشرا. ما معو مصاري ليش بيجي. هذي صيدلية مش دكانة خضرة. ما فينا نفاصل على السعر. ما عندنا وقت نعطيه لهيك أشكال. أحسن ننهيها بكلمة.

حضر مشترون فتركني ياسين ووقف وراء الكونتوار يبيعهم، هذه المرة لم يبخل بابتسامته. كان سريعاً وبارعاً. طال بيده الأدوية وأحصى المبلغ على الحاسبة وقبض وردّ الباقي ولفّ الدوا، وودع المشترين بابتسامة كبيرة وقبل أن يصير خارج الصيدلية كان مشترين آخرين يدخلون. ياسين القصير النحيل الذي يضع نظارات كبيرة على وجهه

الصغير كان كل شيء في الصيدلية ومديرها الحقيقي، فالصيدلي، الذي تخصص في بلد اشتراكي، لم تكن له خبرته. صعب علي أن أفهم لماذا لا تربح الصيدلية بقدر ما يربح غيرها من الصيدليات. هذه المرة كان حبل الأسرار يمتد من رفوف الأدوية حتى الآلة الحاسبة، كان كل شيء يتهرب أمام عيني. وليست لي قدرة على ضبط أصغر الأمور وأقلها. في الظاهر نظافة كاملة وعلن كامل ووضوح واستعداد للإجابة على اي سؤال وتفسير أي تصرف، لا دليل على وجود خفاء او باطن غير مرئي. تعبت لأجد أي مستمسك وكل مرة حسبت انني أحرجهم كنت أتلقى جواباً واضحاً. ياسين حاضر ليجيب عن كل تساؤل وكل مرة لا يمكنني أن أجد ثغرة في الجواب. يعطيني دائماً أكثر مما أنتظر. مفحم دائماً وجوابه بسرعة ورشاقة عمله، مع ذلك فإن حصيلة كل شهر كانت دائماً أقل من المعتاد. هناك دائماً مبلغ طائر، وبالطبع لا سبيل إلى إثبات ذلك.

ذكرت لبشير متاعبي. لكن بشير الذي صار عضواً عاملاً في اللجنة المركزية لم يهتم بملاحقة المسألة. على كل حال، لو فعل لما توصل إلى أي نتيجة. بشير بعد أن تغيرت مرتبته تغيرت معها طبيعته. لم يعد تقنياً. صار ينظر إلى التقنيين كما ينظرون إليهم في القيادة. مجرد سنكرية. أهمل الرسم والقراءة، الآن يهتم بما يسمونه في الحزب الموقف السياسي. يعني ذلك اجتماعات الجبهة التي تضم إلى جانب الحزب أحزاباً وتنظيمات أخرى. واللقاءات الثنائية مع الأحزاب ومع التنظيمات الفلسطينية والمؤتمرات والمهرجانات الشعبية والتصريح اليومي. كانت هذه أمور تستهلك يومه بالكامل وتستنفد اهتمامه.

لم يعد عنده انتباه يعطيه لأمر في صفر حسابات صيدلية. كان علي أن أنقل الأمر بنفسي لعضو المكتب السياسي الذي هو مرجعي الحزبي والذي هو المسؤول المالي. استقبلني في مكتب الحزب بجمجمته الكبيرة الصلعاء ووجهه المكتنز وبنطلونه المرفوع بحمالات وطقمه البني. كان كاسكيته قريباً منه على مكتبه وثمة كتب ورزمة أوراق جنبه. سعيت إلى لقائه بدون موعد في الصبيحة فهو يصل في التاسعة ويستمر إلى الثانية بعد الظهر ليعود في الرابعة إلى السابعة مساء. كان له سلوك موظف ودوام موظف وانضباط موظف. كان اليوم ربيعياً دافئاً والشمس تملأ الغرفة. حين دخلت نهض لاستقبالي وسلم علي بجمع يديه وببشاشة ولما جلست عاد إلى أوراقه بعد أن تناول نظارتيه وثبتهما على عينيه. كان ذلك مقصوداً. مقصوداً أن أفهم أن الأولوية عنده للعمل وانه مقدّم على كل شيء. لم أتركه هكذا وقلت له إنني هنا لغرض. ما أن سمع صوتي حتى رفع وجهه وبالبشاشة نفسها اعتدل في جلسته وأخذ يستمع. رويت له متاعبي مع الصيدلية فأصغى إلى أن انتهيت ولمّا سكتُّ انتظر قليلاً حتى أيقن أن صوتي اختفى تماماً وزال أثره. عندئذ امتدح اهتمامي بقضية صغيرة كهذه. الأمين العام يقول إن الحزب هو مجموعة هذه التفاصيل الصغيرة وإذا تهاونّا بها فإن دعائمه تهتز. علينا أن نلاحق كل تفصيل مهما كان ضئيلاً إلى الآخر. هذه الصيدلية حيرته شخصياً وحيرت الحزب. لذا يفهم متاعبي معها، يفهمها تماماً. ما أسميه أسراراً ظل خافياً على الجميع. انتدب الحزب للصيدلية عدداً من الرفاق انتهوا جميعاً إلى النتيجة نفسها، لا دليل. لا شيء يمكن إثباته، لم يرسلوني إليها لأصلح شيئاً،

يعرفون أن هذا مستحيل. أرسلوني فقط لأزيد خبرتي فهم يحضرونني لأمور اهم. لا يقلقني أنني لم أصل إلى نتيجة، يعرفون أن هناك تلاعباً، لكن هناك أيضاً أرباح. عندما توجد حدود للتلاعب فهذا يعني تقريباً أن الأمر طبيعي. لا حاجة للذهاب إلى أبعد، نحن هنا لنحافظ على الحدود، ليبقى التلاعب محصوراً ولا يتسع. الأمين العام قال نحن حزب الفقراء، لنترك الفقراء يضحكون قليلاً علينا.

لبس الرفيق كاسكيته مجدداً وثبت النظارات على عينيه. لم يبادر فوراً إلى الغرق في أوراقه. لكن الإشارة كانت واضحة. سلمت عليه وخرجت.

٤٨

– يا حزين. تركتك سلمى ورجعت لجوزها أوعى تكون زعلان. كم شهر وبتشوفها راجعة. بذمتك قول لي. هلق كل شي صار ورانا مش رح حاسبك. بس بدي أعرف. هالزيارات لعندها كانت كلها فالصو. معقولة ما عملتوا شي. قول لي وما تخاف.

لم يكن سؤالاً ملزماً. كان أقرب إلى الدعابة. لكن لسان صبحية ما أن عثر به حتى وقف عنده. علق به. صارت صبحية تكرره. لم يكن بريئاً. كان نائماً في داخلها.

– ايه شو عملتو، كون رجال وقول لي. قلتلك هالشي صار ورانا. بحلفلك ما رح ازعل. بس بدي اعرف شو صار. بدي أعرف.

جفلت من هذا الإلحاح ولم أفه بكلمة، لكن هذا السكوت كان كل مرة نوعاً من الكذب الأخرس الذي اكتفيت به، لكن صبحية استمرت تسأل:

– قول لي الحقيقة، بحلفلك ما رح ازعل. بس بدي أعرف.

كان بوسعي القول لا والله لم أفعل. كان أحرى بي أن استرسل في ذلك وأستطرد في ما لا أعنيه، أن أواصل كلاماً هوائياً على مدى

ساعة، لكن اي ممثل سخيف ساكون عندئذ. كيف يمكنني أن اقضي مثل هذا الوقت في تركيب كلام لا واقع له. أنت لا تستطيع بهذه السهولة أن تكذب حين يسالك أحد عن شيء فعلته حقاً. إنك تدين نفسك بذلك وتخطئ عندئذ مرتين. لا تكون مخطئاً فحسب لكن وقحاً وجباناً أيضاً. حين تقول كاذباً إنك لم تفعل تكون تبرات من فعلك، تبرأت من نفسك. إنك تظن أنك لا تضيف شيئاً إذا اعترفت، تظن أن من يسال من يقول لك إنك فعلت يعرف ذلك بقدرك، وانه لا يحتاج إلى إجابتك إلا كمصادقة على معرفته. ما المانع عندئذٍ من أن تريحه من سؤاله، لم أفهم أن ذلك إقرار.

– لأ ما صار شي. مرة واحدة بس.

لما رايت أن وجهها أعتم سارعت إلى القول:

– مرة واحدة بس كان هذا قبل ما حبينا بعض أنا وأنت. كان اول ما وصلت عالبلد.

لكن وجه صبحية لم يصفُ. وقفت جامدة قبالتي. كان جسمها أيضاً صامتاً. تأملت، وانا لا أدري ماذا أفعل، نفور نهديها من كنزتها النبيذية والتفاف وركيها في تنورتها البيضاء. كنت أعطيتها مالاً لتشتري ثياباً وأتت تريني ماذا اشترت. هبت نسمة باردة مرت على وجهي وصبحية ما تزال واقفة. مرت النسمة عليها و لم تتحرك، كانت غارقة في نفسها. حاولت أن أقول شيئاً فلم أجد ما أقوله وأحست هي بذلك فثنتني براحتها المضمومة عن أن أفعل. طال الوقت ونحن واقفان. تسربت من الموقف دراميته شيئاً فشيئاً فصرتُ قَلقاً جسدياً، حصت في موضعي وأخذت أحرك قدمي وذراعي وقامتي، فيما

استمرت هي جامدة، وأخيراً تحركت، اقتربت مني وصارت تهز جسدي بيديها المضمومتين وتدفعني بهما إلى الخلف. تركتها تفعل وأنا أقول:

– بس هذا كان قبل ما حبينا بعض. والله ما خنتك والله ما خنتك.

وجدت بسرعة كلمة خيانة، لا أعرف من أين أتتني. كانت سخيفة وميلودرامية لكني تمسكت بها. قدمت بذلك لصبحية الغاصة بكلامها الكلمة الأولى.

– ما خنتني. بس نمت معها. شوف مين عم يحكي. البلد كلها عمتقول إني لاحقة رجال قد بيي. شوفوا شو عم يعمل، بينام مع ختيارة أكبر منو. كيف إلك نفس. بس انتو لايقين لبعض. انا المش لازم حط حالي بها المطرح.

وعدت أغمغم:

– بس هذا كان قبل ما حبينا بعض.

– ليش ما كنت قدامك، ما فكرت فيي. ولاّ أنت شو ما لقيت بتلم. ما بتعفّي شي. كل شي تحت ضرسك حلو. لوين ماخذني. سلمى ما بتسأل عنك. رجعت لبيروت خليها تسال عنك. هونيك عندها أكيد عشيق. أنت بتخليك للضيعة، كل ما اجت بتأشرلك باصبعها. شو بدي فيك أنا. انت اللي بس تشم ريحة مرة بتجي ركض.

كنت أمسك نفسي عن أن تتدهور إلى إقرار ثان. إذ أنني كلما كررت أن ما حصل بيني وبين سلمى سابق على حبي لصبحية اقترف كذبة جديدة فالصدق الذي تورطت فيه لم يعد له أساس. لكن صبحية جلست على حافة السرير وجلست أنا على كرسي قبالتها. تركتها

تزوي حاجبيها وتمسك أصابعها واحداً واحداً وكأنها تعدّ عليها. أخيراً استقامت في جلستها وقالت لي:

– اسمع بدي ياك تسمع منيح. مش متل ما فاتوا من هون بيظهروا من هون. أنا مش كل ساعة بحب رجّال. نطرت سنين بعدما مات شكيب للقيت واحد حبو. هلق كل ما شفتك رح أتذكر. علاقتنا انجرحت وبدها وقت لتطيب. بس أنا رح أسامحك. أنا نقيتك ومش رح أتركك بالهين. بس هلق ابعد عني. ما إلي نفس عليك. خليك بعيد. انتا بتعرف إيمتى بقرب.

تريدني أن ابتعد. ستهجرني في هذه الليلة إلى أن يتغير مزاجها. ما جرى يدمغ علاقتنا، يحدث حرقاً كبيراً فيها. لقد دخل دخان إلى هذه العلاقة. لا بد من وقت، لا بد من وقت لتصفيتها. يا لي من أحمق. من رجل لا يحسن الكذب. مع ذلك فإنني أنا الذي لم أعرف إلى الآن ما بيننا. اكتشف الآن أنه علاقة، أن علي أن أكترث لها. أن شيئاً مع أخرى جنبها ليس فقط تزجية وقت. إنه مهما يكن اسمه، اعتداء عليها. من هذه اللحظة أعرف أنها علاقة، إن لم تكن حباً.

٤٩

أول ما أتذكر في كاميليا عيناها السوداوان البراقتان اللتان تكادان تقفزان من وجهها وتنشبان في وجه محدثها. حين دخلت إلى الاجتماع وجدت الجميع مسترخين في انتظاري إلا هي متربصة في مقعدها. ما إن أطليت حتى سألتني لماذا تأخرت. كانت عدة دقائق تأخير، أجبتها إنها عدة دقائق ويمكن ان يحصل ذلك لأي سبب، عجقة سير مثلاً. قالت:

– مش مهم قديش بتتأخر. المهم أنك تأخرت. انت المسؤول مش عم تعطي مثل منيح للشباب. فيه عشر شباب مش يعملوا شيء من خمس دقائق إلا انتظارك.

الموجودون في الاجتماع استغرقوا في الضحك، كانوا يتوقعون ذلك وينتظرونه، مع ذلك وقفوا إلى جانبها. أحدهم قال وهو ما زال مسترخياً في مقعده. إن الحق معها، التأخير تأخير. ليس مهمة مدته، إنه تأخير فحسب. الجالسون تضامنوا معه بصمتهم. لم أجد أمامي إلا الاعتذار فاعتذرت، عندئذ رأيت أول ابتسامة على وجه كاميليا. ابتسامة انتقلت إلى وجوه الآخرين الذين كانوا بذلك يحتفون

بفوزها. نقلت إلى الاجتماع قرار الحزب بالاشتراك في التظاهرة. كان الاجتماع لمنظمة الحزب في الجامعة الأميركية والتظاهرة لدعم المقاومة الفلسطينية. وهي جالسة رفعت كاميليا صوتها وقالت وهي تزوي عينيها في وجهي:

– عاملين اجتماع لتبلغونا بقرار المشاركة بالمظاهرة. ما نحنا قريناه بجريدة الحزب.

مرة ثانية استغرق الرفاق في الضحك ومرة ثانية ناصروها وقال أكثر من واحد: "إيه قريناه بالجريدة شو لزوم الاجتماع...؟" قلت إنني لست فقط لإبلاغهم بالقرار الذي لا بد قراوه، ولكن من أجل تنظيم المشاركة والتعبئة لها والتفكير في كيفية التصرف فيما لو أطلقوا النار عليها وهذا محتمل، عندئذ دخلنا في الجد. كان التهديد بالرصاص كافياً للتفكير في أنفسنا كشهداء محتملين والتصرف على وقع هذه المأساة. لم أسمع صوت كاميليا. كان التلاحم الذي أعقب هذا التهديد لا يحتمل اعتراضاً لكن التلاحم لم يدم طويلاً، عادت كاميليا إلى الكلام:

– وإذا نحنا متنا شو بيصيب قيادة الحزب. ولا شي. ما حدا بيقرب صوبهن. منكون وحدنا متنا.

هذا الكلام سرعان ما تسرب إلى مشاكل تنظيمية. علا الصوت واختلط الكلام. سمعت صوت كاميليا وهي تطلب منهم أن يتكلموا بترتيب. هدأ الجدل قليلاً لكنه سرعان ما عاد إلى صخبه الأول. كان الكلام في كل شيء، تأخر الاجتماعات إهمال القيادة الأعلى، عجرفة بعض الرفاق.

كاميليا التي لم أعد أميّز صوتها وسط الاختلاط الحاصل، صرخت بالجميع أن يسكتوا فسكتوا وبقي صوتها وحده يقول:

– بيعاملونا متل شغيلة عندهن. متل ضباط علينا. الانضباط منيح بس هذي عبودية.

كانوا في الجامعة يعانون من سوء تفاهم مع القيادة الطلابية ومع الحزب بشكل عام. فجأةً وقفت كاميليا وأصبعها في وجهي:

– يا الله. اعطينا أمر بالسكوت، نفذ ثم ناقش، ها ها ها.

وقلت إني لست هنا لأعطي أمراً. أنا هنا لأسمعهم فحسب ولأكوّن رأياً لنفسي. هم أعرف مني بمنظمتهم وبجامعتهم. كاميليا قالت وهي تجر صوتها:

– بعدك جديد، جايك وقت. بتصير تعطي أوامر، نفّذ ثم ناقش ها ها.

كان علينا أن نعود إلى النقطة التي قفزنا عنها، ماذا نفعل إذا أطلقوا علينا، اجتهدت لأكسب كاميليا. قلت وأنا أنظر إليها:

– خلينا نرجع للأهم، شو بنعمل إذا قوّصوا علينا، بنكفّي المظاهرة والله بنتفرق.

تلقت كاميليا إشارتي. بادرت إلى مساعدتي على لمّ النقاش. قالت بدون صراخ:

– إيه خلينا نفكر. شو بنعمل إذا قوّصوا. رأيي أنو نلاقي أول شارع فرعي وبنفوت فيه وهونيك بنرجع نهتف.

رأي كاميليا أحدث فجوة في النقاش، ساد الصمت وقتاً، ثم سمعنا أول رأي يثني على رأي كاميليا، وتلاحقت الآراء التي تثني عليه، صار

هذا الرأي قراراً. عندئذٍ حين قلت إن هذا رأي القيادة أيضاً، لم أسمع احتجاجاً. انتهى الاجتماع وحين كنت أجمع نفسي لأخرج اقتربت مني كاميليا كانت هذه المرة هادئة وربما خجولة حين قالت لي:

– لوين رايح، إذا رايح ع المزرعة خذني معاك.

وقلت لها إني لست ذاهباً إلى المزرعة لكني مستعد لأن أنقلها إليها. ابتسمت وسارت جنبي. لاحظت أن أصبعها مضمد. سألتها إذا كانت جرحت نفسها. ضحكت وقالت إنها غضبت من أمها لذا حملت سكيناً ونزلت لتثقب لها دواليب سيارتها. اكتشفتْ تحت أن الدواليب أعصى من أن تثقب بسكين. بل إنها جرحتْ نفسها وهي تحاول عبثاً إدخال السكين في كوتشوك الدولاب لكنها مع ذلك

– نفّست الدواليب وتركتهن يرتخوا ع الأرض وجيت ع الاجتماع.

٥٠

كان الصباح بدأ بشتوة لم تدم طويلاً. احتشد الغيم فجأةً في السماء وأعتم الجو لكنه سرعان ما تبدّد وشمّست بعده وأضاءت. كنّا في أول نيسان، قد تكون هذه شتوة كاذبة فأول نيسان هو يوم الكذب. كنت أطوي الشرشف على سريري حين رنّ الجرس ولما فتحت الباب رأيت داخل عمود الضوء الذي هلّ روزيت واقفة في فستان زهري ملفوف على جسمها. تفاجأت وقلت لها:

– مش مصدق عيوني، روزيت شخصياً.

دخلت وهي تقول:

– ما تصدق. اعتبرني كذبة. مش أول نيسان.

جلست في أول كنبة وجدتها في طرف الصالون. جلست قبالتها. تحركت إلى المطبخ لأصنع قهوة، تحركت هي معي، ودخلنا معاً إلى المطبخ. طلبت مني أن أجلب لها البن والركوة والفناجين. وقفت أمام فرن الغاز تحرك الملعقة في الركوة، ووقفت إلى جانبها وحين كانت عاكفة على الركوة. تراءى لي وجهها صافياً وشاباً. كان جسدها ملزوزاً في فستانها وثمة شريان نافر في عنقها المنحني على الركوة.

عدنا معاً وأنا أحمل صينية القهوة وجلسنا نرشفها.

سألتها عن عدنان، كيف هو، قالت:

– مسكين، عميتعب بس صامد. حظو قليل. الرصاص والمرض عليه. بس صامد. أنا ما خمنت انو بيكون شجاع هلقد.

عدنان مسكين وقليل الحظ و لم تنتظر منه أن يكون شجاعاً بهذا القدر. لم تكن هذه صورتي عن عدنان. كان قاتل الجمركي والمتبجح بأنه يدوس رقاب الناس.

بدا استغرابي لما قالته روزيت في وجهي و لم يفت هذا روزيت. لعلها كانت تنتظره، قلت:

– اكيد. هذا يوم الكذب. ما بيناسب عدنان أنو نقول عنو مسكين وقليل الحظ وما نطرنا يكون شجاع. أكيد هذا مش عدنان. هذا عدنان تاني. مش اللي بعرفو.

– بس شو بتعرف عن عدنان. إنت أكيد صديقو؟

سؤال روزيت وضعني على الحد. كان جوابي جاهزاً وينتظر فقط أن أقوله. بل يلح علي أن أقوله:

– صديقي ايه صاحبي ايه رفيقي ايه. تصاحبنا بأول شبابنا. قضينا سوا وقت.

– عميقول هيك. شو بتعرف عنو غيرا لبيقولوا عنو الناس. الحق عليه، هو راد أنو ينحكى هيك عنو. أكيد هوي بنظرك مجرم وقاتل. وحش بشري.

– بس هذا الحكي مش من الهوا. فيه خبريات.

– أيا خبريات. أنو حط فردو براس الجمركي. هيك حكوا الناس

وهوّي ما كذب. شاف القصة لصالحو ومشّاها. الحقيقة أنو تخانق مع الجمركي وسحب عليه الفرد. بهوره بس، بمكن أحسن ما يسبقو. سحب عليه الفرد بس ما قوص. راح كل واحد ع بيتو، تاني يوم لقوا الجمركي مقتول، هيك مقتول، ما منعرف مين المجرم. قالوا الناس أنو هوي وهوي ما كذّب. عدتان، أنت شفت بعينك، نباتي. ما بيقدر يذبح دجاجة. بهوار صحيح، بس مش قدرتو يقتل عصفور.

كان هذا بالطبع مفاجئاً لي. لم يكن عدنان، الذي عرفته، شرساً أو عدوانياً. كان كما تقول عنه روزيت "بهوار" فحسب. بالبهورة وحدها صار كاتباً وبالبهورة كما روت روزيت لتوها صار قبضايا. كان هذا كله تلفيقاً بحتاً واختراعاً. كنت الجزء الوحيد الصحيح من حياته. ربما لهذا يتمسك بي. ربما لهذا يريدني في عائلته. لم تكن روزيت انتهت من كلامها.

- بيقلك أنو كان دعس ع رقبة اللي قوّصو بعدين. بتخمن أنو عمل هـ الشي بقدرتو. كان عندو أربع خمس قبضايات مشغلهم عندو. هوذي كانوا يعملوا كل شيء وبتجيه هوي السمعة، أنو مجرم ووحش. اللي قوّصو هرب هوي منو. لحقو ودرزو. بستحي قول أنو خويف. بيفيق بالليل مرعوب وأنا بهدّيه. بس يحس بالخطر بيهرب ع قبرص. عندنا أربع حراس وبيظل مرعوب. بس هلق صامد. أنا متعجبي أنو صامد.

كانت روزيت تتكلم وقد ألقت ظهرها على مسند الكنبة. لم تكن إمارات وجهها تتحرك ولم تؤشر بيديها إلا قليلاً. كان صوتها يصعد عميقاً ورتيباً من جوفها وكأنها تتكلم من أحشائها. هي الأخرى

أرادت من زمن أن تقول هذا الكلام. ربما جاءت لتقوله. بعد أن انهته تنفست بعمق. قالت بعد ذلك إنها لا تريدني فقط صاحباً لعدنان. تريدني صديقاً له وللعائلة. كانت تتكلم بثقة. بقدر من الإملاء. تعرف أنني لا أرفض لها طلباً.

٥١

صبي على الباب. قصير وهزيل ويرتدي ستره واسعة عليه وكأنها ليست له. قال إنه شغيل المعلم يوسف، لم يكن الصبي نفسه الذي صحبه حينما جاء ليركّب الزجاج لي. ذاك كان أطول منه وعوده أكثر امتلاءً. الصبي الذي جاء الآن بالكاد يرتفع عن الأرض. وجهه بالغ الصغر ولثغته تناسب خلو مقدمة فمه من الأسنان. قال لي إن المعلم يوسف يريدني في دكانه. كانت العاشرة صباحاً وشمس نيسان ناعمة ونواحي البلدة مليئة بالأقحوان وشقائق النعمان والدحنون الأبيض. سرت بعد ساعة بعد أن فتحت شباكي ولاحظت أن الشجرة التي قبالته بدأت بالاخضرار. ما أن رآني المعلم يوسف مطلاً حتى تركه وكانه وافاني في الطريق. قال ما إن صار قربي إن المسألة انتهت، ولما سالته اي مسألة يعني رفع عينيه وحاجبيه مستغرباً سؤالي. المسالة لا بد أني أذكرها. لقد تكلمنا عنها. هنا تذكرت مسالة الأرواح. سألته ماذا فعل بها. قال إنه التقى أمس بسليم الطحان. سليم الطحان قال انت تعرف أباه بدون شك. أبوه سليمان الطحان اللحام. الولد، كما قال المعلم، شاطر من طفولته، لذا أرسلوه إلى الصنايع ليدرس. كان

شاطراً في المدرسة ويستحق أن يصير مهندساً، لكن يا خسارة. أهله على قد حالهم وليس عندهم ما يكفي لتعليمه. في الصنايع يبيت ويأخذ شهرية ويدرس الألكترونيات. قال إنه التقى به أمس. ليس أمس بل أول من أمس. الولد اقتنع معه بأن العلم يجب أن يشتغل في الأهم، لا أن يسلي أو يسعى وراء الربح. العلم يجب أن يشتغل بما خلقه الله له، الأسرار، العلوم الروحانية. يجب أن يفتش عن الروح. الأرواح موجودة بدون شك وإذا قصد العلم، إذا صرف كل جهده لذلك، فهو يستطيع أن يكتشفها، أن يجدها. الولد، كما قال، اقتنع معه. قال إن لديه طريقة، لكن لا بد أولاً من صحن لاقط. الولد قال له إيه سيجد طريقة يجعل بها الصحن يلتقط الأرواح كما يلتقط الصور والأصوات. لكن الصحن اللاقط له ثمن، ليس كثيراً لكنه لا يملكه. لعلك تستطيع أن تساعد، هذه مهمة عظيمة، قال لي، إذا ساعدت فيها لن تندم.

كنت متأكداً من أن المعلم يوسف يخرّف لكنني لم أشأ أن أخيّبه، مددت يدي إلى جيبي وأعطيته ورقة منه دولار. رفعها إلى أعلى قبالة عينيه وتمعّن فيها. خفض يده ثم عاد ورفعها إلى عينيه وتمعن فيها ثانية، ثم كأنه يزقزق شكرني وظل صوته يصدح خلفي، وأنا أخرج من الدكان.

٥٢

أراقبهم يتوافدون إلى ساحة التجمع، يأتون آحاداً وزمراً. زمراً من أربعة أو خمسة ما أن يطلوا حتى تحدث حركة بين واقفين بانتظام وترتفع أيدٍ وتعلو أصوات. يتوجهون إلى حيث صدرت الحركة ويستقبلهم الواقفون بمصافحات حارة، يهزون أيديهم في بعضها البعض طويلاً وأحياناً يتخاصرون وربما يتعانقون. يريدون أن يعطوا لهذا اللقاء مظهراً احتفالياً أو يريدون ان يبدوا أكثر شجاعةً او اقل اكتراثاً فالشائع أن هذه التظاهرة ستقمع بالرصاص. كانوا لا يزالون مبعثرين في الساحة، جمعات جمعات، والبقع الفارغة بينهم بدأت تكتسي وتمتلئ بالناس، ولكن أيضاً بالأعلام واليافطات. صدرت من أماكن بعيدة هتافات سرعان ما كانت تضطرب وتنقطع، فقد كانت هذه في الأغلب تمريناً على ما سيحدث بعد قليل. زادت الحركة، بدأ أشخاص يتقدمون من الخلف إلى الأمام أو يصطفون في أماكنهم. لما اكتمل الاصطفاف شبك أفراد الصف الأول أذرعهم وسارت التظاهرة. كنت في الصف الخامس تقريباً لكنني رحت ابتعد وأجد نفسي اتأخر صفاً بعد صف. كنا هكذا نزداد تراصاً وتلاصقاً، اخذنا

نجر أقدامنا ونتقدم وكأننا نزحف. نتحرك كتلة واحدة فيما كانت الرايات واليافطات والهتافات أسرع بكثير ولا تتناسب مع البطء الذي نتحرك به وكأننا نحتمي ببعضنا البعض. شعرت بجسد يندسّ بي. كانت كاميليا قد وصلت إلى جانبي. أعطاني وجودها لصقي قدراً من التصميم. كان عليّ أن أكون في التظاهرة، وأن أكون في مقدمة فريقي الذي هو في مقدمة التظاهرة. لكني كنت مضطرباً ومتوجساً، وبدون خجل احتفظت بهذا الحيّز من القلق النفسي. وجود كاميليا زاد تصميمي. هذه الشراكة ألهتني عن قلقي. كان شعوري بجسد كاميليا قربي يخرجني من جسدي ومن اضطرابي الداخلي.

سارت التظاهرة متكتلة وبطيئة لكن الصخب الذي كان في أعلاها، صخب الهتافين والذين يردون حولهم وخلفهم، كان متعاكساً مع زحفها البطيء في الأسفل. مع الوقت صار الهتافات الصادرة عن كل فريق متضاربة و لم يعد سهلاً تمييز الكلام بينما كان التراص والتلاصق يزدادان. كاميليا جنبي تمسك بيدي وتهتف. شعوري بيدها طغى أحياناً على شعوري بالتظاهرة. بدا ذلك وكأنه خاص وبيننا وحدنا وإن كان وسط الحشد. ضغطتُ على يدها وضغطتْ بدورها على يدي ثم حررت يدها وشبكت ذراعها بذراعي. كان مرفقي، أو هكذا أحسست، يحفّ بصدرها من طرفه. لم أشعر بشيء لكن بمجرد الإحساس بأن مرفقي يصطدم بصدرها جعلني أنتبه لمرفقي وأحاول أن أبعده عن صدرها، لكن هذا كان يزيدني شعوراً بأن صدرها في متناولي. قلقي من أن يكون مرفقي يتحرش بها جعلني أشعر برجولتي، الأمر الذي كان يخرجني من التكتل الزاحف ويجعلني معذباً بهذا

الاحساس الذي يفرزني منه. جعلني هذا متوجساً من الذوبان في الحشد الذي صار الآن يحشرني ويتزايد ضيقي منه.

فجأةً وقف الصف الأمامي، وقفت الصفوف خلفه، صمتت الهتافات، بدا أمام الصفوف صفان من الشرطة بدروع وبنادق إم سكستين. انفرط الصف الأمامي، تقدم أفراد منه إلى حيث يوجد ضابط الشرطة. رجعوا بعد قليل. أخذ رجال الشرطة وقفة استعداد، صوبوا بنادقهم، عاد الصف الأمامي إلى التشابك. تقدم خطوات. مرقت رصاصة بسرعة وسمع دويها. استمر الصف الأمامي بالتقدم فيما اهتزت الصفوف خلفه وماجت وبدأت تتدافع وتنفرط وتتفرق وهرب أشخاص من الأطراف وسرعان ما غابوا. لكن هذا جعل آخرين يندفعون ايضاً وبدأت كتل تنسلخ وتنشق عن الجمع بقدر من الفظاظة. بدأ وسط التكتل الباقي قدر من التدافع والموجان والتنقل اللاإرادي والارتطام. سقط واحد على الأرض تفرق من حوله الموجودون، لكن اثنين عادا ورفعاه على قدميه لكنه عاد وسقط فرفعاه ثانيةً ثم مال أحدهم وجذبه، عاونه في ذلك شخص آخر. سحباه إلى جانب وهناك توارى معهما وراء الجمع. سقط اثنان في الصفوف الخلفية فدار الجمع وماج وبدأ التفرق والهرب. ظل الاثنان راقدين على الأرض إلى أن جاء أشخاص وسحبوهما. كنت واقفاً جامداً في مكاني. شعرت بشخص يشدّني، كانت كاميليا تجرّني إلى جانب، وبينما تفعل ذلك وقع الشخص الذي أمامي مباشرةً. جرتني كاميليا أكثر، أوقفتني وراء سيارة وتركتني هناك. رأيتها بعد قليل تندسّ وسط أشخاص يحاولون الهرب. بعد قليل كان خيالها ماضياً إلى

الأمام. تركت السيارة التي كنت خلفها ولحقتها. صحت باسمها من بعيد، لكنها لم تنتبه، اقتربت أكثر منها. كانت تواصل مضيها إلى الأمام مرتطمةً بالمتدافعين والراكضين. لكنها تمشي تقريباً في خط مستقيم. صار المكان مفسوحاً أمامها. كانت لا تزال تتقدم. صحت باسمها لكنها لم تسمع. صرت أقرب إليها لكنني صرت أحرص على أن لا أسرع. كان المكان صار خالياً تقريباً، اقتربت، مرّ من جنبها هارب لكنها لم تلتفت إليه. كان رأسها تقريباً ثابتاً في مكانه وتتقدم كآلة، كشخص منوم، ظلت مستمرة. عبرت المكان الذي كان فيه الصف الأول. تجاوزته، تقدمت حتى وصلت إلى أول شرطي. نظر إليها متفاجئاً لكنها لم تنتظر هجمت عليه وتناولت من يده بندقيته. تركها الشرطي المبغوت تفعل ذلك، ربما خجل من أن يضربها. رمت البندقية وعادت إلى الشرطي تدفعه بقبضتها. عندئذ أزاحها الشرطي عنه ورماها أرضاً. نهضت عن الأرض وجهها وطقمها الجينز الأزرق مغبران. قامت بنفض الغبار. حركتان من كفها ثم اكتفت. تراجعت وظلت تسير إلى الخلف إلى أن وجدتني. أمسكت بيدي وانسحبنا من التظاهرة.

٥٣

في عودتنا أنا وكاميليا وجدنا على طريقنا بطرس الصغير ابن الثلاثة عشر عاماً والذي أصرّ في هذه السنة على أن يكون في حلقة حزبية، أبوه في قيادة الحزب وأذن له أن يبدأ مبكراً تدريبه الحزبي. قال بطرس إنهم أرسلوه لتحذيرنا من أن نبيت في بيوتنا. سيأتون على الأغلب في الفجر ليمسكونا. كنت أعرف صاحباً من الصنوبرية يسكن في الضاحية من بيروت، قصدناه. وجدنا وسيم جالساً للعشاء. كانت أمامه صينية كفتة وأرغفة وبصلة ومقسومة إلى أربعة. فتح لنا وبدا بقامته الطويلة ووجهه المنمش في الباب. دعانا إلى طعامه وفوجئت بكاميليا تتجه إلى الصوفا وتجلس جنبه وتتناول رغيفاً وتدعوني أنا بزوي عينها ورفع رأسها إلى المشاركة. كنا جائعين بعد التظاهرة، لكني كنت تريثت أكثر قبل أن أقبل دعوة رجل وحيد إلى الطعام. جلست على كرسي في المقابل وتناولت الرغيف الباقي بتردد. تركنا وسيم ونزل وعاد وقد أحضر معه قطعة كبيرة من الحلاوة الطحينية وأقراص فلافل. بسط الطعام على الطاولة وجلسنا نأكل. كانت الغرفة صغيرة وكأنها أعدت لناطور لم تحتجه البناية. كانت مبلطة بمربعات

وجدرانها مغلفة بورق نقشت عليه أزهار صغيرة بنفسجية. الشباك الوحيد مغطى بستارة ملونة ببرتقالي وأزرق غامق. كانت غرفة واحدة وإلى جانبها حمام ومطبخ صغير وفي وسطها سريران. كان وسيم محرجاً من ذلك، كنا ثلاثة لسريرين. قال لنا أن نبقى وهو سيذهب لينام عند أقاربه. كان خجولاً وهو يقول ذلك وكأنما يعتذر عنا. لكن كاميليا قالت له لماذا الذهاب إلى أقاربه، نستطيع أن نتدبر هنا. احمرّ وجه وسيم وهو يسمع ذلك، صار أشد إصراراً على الذهاب. فهمت كاميليا عليه وقالت له إذا كان يظن أن هناك شيئاً بيننا أنا وهي فهو مخطئ. لكننا رفيقان ويمكن ان نتصرف كاخوة. لا مانع من أن تنام جنبي أو حتى جنبه بدون أن يعني ذلك أن أحدنا سيقفز عليها.

– إيه بنام مع بعض بدون ما ندقر بعض. ما بيكفي نكون جنب بعض. المهم النية. فيه نية. فيه رغبة ولا لأ. إذا ما فيه، وين ما نمنا، يعني ما فيه. لأ أنا وجلال ما بيناتنا شي. فيك تبقى. ما في داعي تترك اوضتك منشاننا، نحنا ما بنقبل.

لم يكن وسيم رفيقاً لنا. كان بالعكس في حزب قومي. وبالطبع استهول ما سمع. كان هذا جديداً عليه. لكنه استوعبه وبقي.

ذهب وسيم إلى الحمام ليلبس هناك بيجامته، بينما خلعت كاميليا أمامنا فستانها وعلقته في الخزانة وبقيت بقميص النوم. كان وسيم بالتأكيد مذهولاً وهو يرى ذلك. أنا نفسي لم أكن أقل اندهاشاً. تمددت على السرير وتمددت جنبي. كان الوضع جديداً أيضاً علي. لم أستطع بسهولة أن أنام وأنا لا أعرف كيف أضبط جسدي بالقياس إلى الجسد الراقد قربي. بدأت كاميليا تتحدث عن التظاهرة وعن الجندي

الذي خطفت منه بدقيته ثم بدأ صوتها يتناوم ويخفت إلى أن انقطع وانتظم نفسها. كان تعب التظاهرة حل عليها فنامت، تركتها نائمة قربي وأنفاسها تصلني، ثم وجدتها تندس قليلاً فيّ، ذلك بالطبع لم يساعدني على النوم. لم أكن لأقبل بالسهولة نفسها أن أنام جنب فتاة فائرة الأنوثة ككاميليا، وهي في قميص النوم، بدون أن ألقي بالاً إلى ذلك، بدون أن اشعر به على الأقل. بقيت وقتاً وعيناي تدوران في سقف الغرفة. كانت كاميليا ما تزال مندسة بي. بينما الذي فاجأني أن وسيم ما أن ألقى رأسه على الوسادة حتى تصاعدت أنفاسه التي كان يستلّها بطرف شخير. بين أنفاس كاميليا وشخير وسيم تعذر علي النوم. كنت، كما يبدو، الأقل تلاؤماً مع الموقف الذي وضعتنا فيه كاميليا. بقيت وقتاً أبحلق بالسقف ولا أجرؤ على أن أحرك جسدي بينما هذا الوضع يزيدني حاجةً إلى تحريكه ويجعلني أحرّكه بضبط يترك الحركة نفسها غير مشبعة وغير مستوفاة. كنت تعباً بجسدي على هذه الحال وأخشى من تقليبه، وأشعر أن الضبط الذي أمارسه عليه يجعله بعيداً عني وكأنني أتعثر به كلما شعرت بداع إلى الحركة، أو تحركت فعلاً بدون أن أستنفد هذا الداعي. ظللت على هذه الحال إلى أن غلبني تعبي وخطفني النوم. لكنني في نومي حلمت طوال الوقت بأنني أداري أن لا اصطدم بكاميليا وأنني رغم ذلك أصطدم وفي اصطدامي أقلق من أن أوقظها. استيقظت أخيراً، كان وسيم لا يزال يشخر وهي غافية، بينما يدها ممتدة علي. عدت فغفوت ولما استيقظت هذه المرة لم أجدها في الغرفة. كان باب الحمام مفتوحاً ولا إشارة إلى أن هناك أحداً فيه. بعد قليل صعدت وفي يدها رزمة مناقيش. دخلت

إلى المطبخ الصغير وعادت بعد قليل بصينية الشاي وجلسنا نأكل.

سارع وسيم إلى الخروج، قال إنه ذاهب إلى الجامعة، أظنه ابتكر هذا العذر، فالجامعة، بعدما جرى البارحة، مقفلة بدون شك. لم يطق البقاء معنا. شعر بغرابة الموقف، نزل وتركنا. شعرت أننا احتللنا بيته وأخرجناه منه. دخلت كاميليا إلى الحمام وعادت والمنشفة على كتفها، جلست أمامي على الصوفا وأفردت شعرها الأسود الطويل. تركته ينسدل على كتفيها، وناولتني مشطاً عريضاً وجدته في الحمام طلبت مني أن أمشط لها شعرها. ارتبكت فلم أعرف كيف أضع المشط في شعرها وأخذت أنزل به بسرعة أزعجتها.

امسكت بيدي ووضعت المشط في قمة شعرها وبيدها أخذت تمشي بيدي وبالمشط في شعرها ببطء وفي خط مستقيم. لما تأكدتْ أنني أتقنتُ الحركة تركتني اعمل وحدي لكنني حين وصلت إلى آخر شعرها عادت فرفعت يدي بالمشط وثبتتها في مكان آخر وتركتني اهبط بالمشط على طول شعرها. بعد أن انتهينا جلبت فستانها الأزرق من الخزانة وارتدته أمامي. كان يصل إلى ما تحت الركبة. طلبت مني أن أرفع سحّاب ظهرها. كان قميص النوم بارزاً من ظهرها ولون جلدها الوردي الأسمر المحبحب بادياً تحت عنقها. رفعت السحاب إلى أن وصلت به إلى ياقتها. انقفل الثوب على عنقها. لما شعرت بأني أتباطأ في رفع السحاب خشية أن يعلق بقميص النوم قالت ضاحكةً:

– شو، شفت شي ما عجبك؟

لم أحر جواباً، قلت شيئاً مثل "مبلى عجبني" ضحكت وقالت:

– أكيد عجبك. مش كل يوم بتشوف متلو. اضحك بعبك. تمتع يا رفيق، تمتع.

واستجررت من داخلي نصف ضحكة. كان لونها الوردي المسامي لا يزال في بالي، رغم ذلك وجدت في كلامها جسارة فوق طاقتي بل وجدته مبتذلاً إلى حد ما. لم أجب فردّت هي بصوت عالٍ:

– شو استحيت؟ شو خفت مني؟ مش رح اتحرش فيك.

هذه المرة تحرك لساني. وجدت كلاماً لي. قلت لها إني لم أخف منها. لكنها في الحقيقة مفاجأة لي أن ألتقي بفتاة مثلها، أظن أننا لم نعتد على فتيات بهذه الصراحة وبهذه الثقة بالنفس. قلت لها إن الفتيات اللواتي أعرفهن لا يجسرن على أن يتصرفن هكذا. يخشين أن تعتبرهن مبذولات ويتكرمن بأنفسهن. لم ألتقِ بفتاة مثلك، قلت لها. وأنت تعلمينني كثيراً، ترفعين من مستوى وعيي. كانت تسمع متفاجئةً من أن رفيقاً، رفيقاً مسؤولاً، يدلي بهذا الكلام، لكن ما قلته دعاها إلى أن تفكّر. صفنت فترةً ولما سألتها إذا كانت تود الخروج رفعت رأسها وحنت رأسها وأخذت ذراعي وخرجنا.

تلفنت إلى أحد الرفاق قال لي إنه علم أنهم فعلاً كبسوني في الفجر. سألته إذا كبسوا أيضاً كاميليا. قال إن حادثتها مع العسكري انتشرت، وبالتأكيد سيذهبون إليها الليلة. سألته إذا كان هناك مكان لمبيتنا. قال إن لديه مفتاح رفيق مسافر يمكنه أن يعطينا إياه. التقينا بالرفيق وأعطانا المفتاح وذكر لنا العنوان، تركت كاميليا تهتم بالأمر. ذهبنا معاً هذه المرة إلى الأشرفية، كان البيت من أربعة غرف. صالون نبيذي مع ستائر بيضاء وثلاث غرف نوم ومطبخ واسع وحمام بحوض وكمية من

المناشف. لم يعجب البيت كاميليا. وجدتها، لعجبي، تفضل عليه غرفة الضاحية. قالت إن القتلى لم يسقطوا في التظاهرة لتتنعم هي بهذا البيت، الآن لا تعرف هل نحن فعلاً فارون من البوليس ما دمنا محظيين بهذه الشقة، كان أفضل لنا لو بقينا في بيوتنا، كان أفضل لو لم تقم التظاهرة. هناك أمهات فقدن أولادهن إلى الأبد وقتلى بلا ثمن، ما دام أن شيئاً لا يتغير، ما دام ذلك لا يزيد عن بضع ليال نقضيها في شقة محترمة ثم نعود إلى البيت. كانت كاميليا تقول ذلك بصوت متهدّج. ترطبت عيناها وسال الدمع خطوطاً على خدها. مسحت وجهها بيدها وحين لاحظت أني استهجنت حركتها تركتني أحمل لها من على منضدة قريبة علبة كلينكس، لكنها لم تمد يدها فوراً إليها. أنا خطفت ورقة ومررتها على خديها. عندها شالت هي ورقة لتفعل ذلك بشكل أفضل. بعد الدموع عاد الضحك، تذكرنا كيف أزاحها العسكري عنه ورماها أرضاً. قالت إنها خشيت أن يكون انكسر شيء فيها، في الواقع سمعت إشارة لذلك لكنها عندما نهضت وجدت الكتاب الذي وقعت عليه مكسوراً. كان كتاباً حزبياً ضد اليسار المغامر. لم تكن هذه الحملة تهمنا كثيراً. قلنا إن الكتاب يستحق ما لقيه. كان أفضل له لو تفتت. هذه معارك للمسنين ولا تعنينا بقدرهم.

كان البيت بغرفه الأربع لنا ولم نعرف كيف نشغله. كنا نتنقل من غرفة إلى غرفة ونحاول أن نترك أثراً لاستعمالنا لها. كان تتمدد على السرير ونترك الشرشف مطعجاً منعوفاً، أو نعلق على المشجب قميصاً، فقد تلفنّا إلى بيتينا ولحقونا بالبيجامات وبعض الثياب. كنا نصنع القهوة في المطبخ من البن الذي وجدناه على الرفوف ونترك الركوة

على المجلى. هكذا نترك علامة لنا في الأماكن التي نشغلها. تحول ضيق كاميليا بالمكان إلى استمتاع بالفراغ ولعب حر. لكن وحدتنا لم تطل. عند العصر دق الباب. كان الرفيق صاحب المفتاح يقف وراءه رجل طويل ذو شارب كثّ ولحية مربعة وشعر طويل ومبعثر وجنبه امرأة بشعر بني مردود إلى الخلف منتهياً بذيل حصان. كانت ممتلئة بالقياس إلى الرجل الواقف جنبها وقميصها الذي هو مقاس جسمها تماماً يبرز نتوء بطنها الخفيف بينما التنورة السوداء الملزوزة على خصرها تلتف على وركيها وتنتهي فوق ركبتها. خلفهما كان الرفيق صالح الستيني ببدلته المقلمة وشعره الخفيف وجنبه زوجته أم فوزي الشهيرة بطلاقتها وكلامها الاستفزازي. كنا نعرف الأربعة جيداً، الرفيق صالح عضو المكتب السياسي المتزمت وزوجته جورجيت، عوني رسام الحزب المعروف الذي لحقه بواب البناية بحاملة لوحات وإطار قماشي وكيس حوى الملونة وأنابيب اللون والعقاقير الأخرى ومعه زوجته ايزابيل. استقل عوني فوراً بالغرفة الأوسع. تبعه صالح إلى الغرفة الثانية في السعة وبقيت لنا غرفة ليست الأضيق لكن فيها مكتباً وفي مقدمتها بيانو. كان في الغرفة سريران متجاوران. لم تخفِ كاميليا ارتياحها فذهبت وتمددت على السرير الأول. بينما تمددت أنا على الثاني وأخذنا نتكلم من على السريرين. قالت كاميليا إنها لا تحب الرفيق صالح، تجده قطعة واحدة. عقله بلاطة، قالت. الحزب معبوده وهو لا يقبل مزحة عليه. قالت أيضاً إنها لا تحب فن عوني. لا تحب ترميزه، تجده مشاعاً وثقيلاً. ما معنى أن نرسم الحزب سنديانة وما معنى هذا الولع بالأعلام والمشاهد الدموية. قالت إنها تفضل

زوجته التي بدأت ترسم معه ثم انشغلت، ربما شغلها البيت، ربما هو لم يشجعها على أن ترسم. ألم تلاحظ رجوليته المفرطة، هذا الشعر الكث في كل مكان في جسمه؟ سيرسم من هذه المخيلة الرجولية، وبالفعل بدأ عوني يعمر على القماش شخصاً من تراب وأحجار مشرئباً من على الأرض وفي يده وردة حمراء. نظرت كاميليا بامتعاض إلى اللوحة التي كان صاحبها مباهياً بها لكنها مع ذلك شجعته فعوني لا يقبل نقداً وخاصةً من شخص في الحزب. الحزب جمهوره البديهي وكل حزبي بمثابة نصير لفنّه. الرفيق صالح الذي غيّر بدلته كان في الصالون مع زوجته التي تصلي بلسانها القاطع كل من يعترض على التظاهرة، بينما زوجها عضو المكتب السياسي يعمر معادلات داخلية وخارجية ويركّب بنداً على بند، ليقول كم كان الحزب ذكياً في اشتراكه بالتظاهرة، كان ذكياً حتى في عدد قتلاه، كل شيء كان مقدّراً و لم تفلت قشة واحدة. كان الرفيق يكوّم شروطاً دولية وعربية تبدو تظاهرتنا في الأخير خلاصة لا مناص منها لها. لم تعد التظاهرة شأناً يذكر، ذابت في التحليل، صارت حصيلة جمع ظروف أخرى. كنت أعرف براعة الرفيق صالح في هذه المحاكمات، لكني في زمن صرت أراها نوعاً من السيمياء، ولفرط ما سمعتها في الاجتماعات صارت مجرد ديباجة ممضوغة. تركت الرفيق صالح يتكلم. ذهبتُ إلى الحمام. كانت كاميليا بالتأكيد مشمئزة منه. لقد رأت القتلى أمامها ولا يعنيها كثيراً العامل الدولي، لكنها أعطته مع ذلك انتباهاً كاملاً وهو كان كمن يوجه خطابه إليها. عدت من الحمام ومن بعيد أشرت إليها فقامت وصاحبتني إلى غرفتنا. بقي صالح يوجه كلامه إلى عوني

الكث اللحية والشاربين وزوجته إيزابيل، وهذان لفرط ما سمعا هذا التحليل انتهيا إلى تصديقه وسماعه كمن يتذكرانه. انسحبنا أنا وكاميليا إلى غرفتنا ومنذ دخلناها أخذنا نضحك. كان هذا أشبه بهروب من الصف، قمنا به تحت عيون صالح، خرجنا علانيةً من درسه.

كان هذا وقاحة شكرنا أنفسنا على تجاسرنا عليها. ترك حديث عضو مكتب سياسي في نصفه لا يعدّ لياقة حزبية، لكن رؤية القتلى على الأرض لا تخدم اللياقات. كان خروجنا من حديث صالح إشارة، بعد ذلك أخذت اللياقات تسقط من نفسها ومقاطعة عضو مكتب سياسي صارت عرفاً. الاحتجاج عليه والخروج من الغرفة وهو في حديثه صارا دارجين، صار صفق الأبواب بعنف وفتحها بعنف شائعين. أعضاء المكتب السياسي بارونات الحزب استهتروا بهم وصار في وسع أي عضو عادي أن يجادلهم ويتهمهم ويعلي صوته عليهم. لم يعتادوا على هذه المعاملة لذا صاروا يتعثرون بالكلام ويعرقون ويلهثون. لقد كانت هذه قصاصات علنية لهم. اتهموا بأنهم أرسلوا الشباب إلى الموت مراعاةً لحلفائهم رغم أن هؤلاء لم يشتركوا وامتنعوا في آخر لحظة. اتهموا بأنهم أجّروا أعضاء الحزب للقتال في معارك في دول صديقة لبعض قيادة الحزب مصالح فيها، مشاريع واستثمارات وشركات. أجّروا كمرتزقة ليحاربوا في سبيل قضايا ليست لهم. بدأ النبش داخل الحزب حيث تعشش شلل وعائلات ومستفيدة من المنح والأسفار والتبادل التجاري، وظهر أن حول كل عضو في القيادة حاشية من المنتفعين ومصالح يرعاها ويدافع عنها أمام القيادة. تسربت روائح فضائح عديدة: الوقود والملابس والتعاونيات وبقية ممتلكات

الحزب، شلل منتفعيه تتعاون مع أعضاء في القيادة وتنمو في كنفهم. كان الحزب من الداخل مليئاً بهذه العقد والمحاور التي تسيّره وتشكّل محركه الفعلي. الحزب وتحالفاته ليس إلا شبكة المصالح هذه. كان كل شيء يتداعى من حاله. كتل المصالح تنسلخ وتنشق عن الحزب. المدراء يتحولون إلى مالكين والمفوضون يغدون أصحاب المصالح. خسر الحزب في فترة قريبة نصف ممتلكاته وتراجعت هيمنته على النصف الثاني. سرقوا الحزب لكنهم كانوا يسرقون أنفسهم، أين هم وأين الحزب؟ أليس لهم، أليسوا منه؟ كانت الدعاوى فضيحة ويائسة فهذه الأملاك مسجلة بأسماء من يديرونها. ذابت ممتلكات الحزب في مدى أشهر، لم تعنِ الحرب سوى التعدي والنهب، وهذا القانون عمل في داخل الحزب فنهب المنتفعون الحزب واستقلوا بأملاكه.

لم نعد أنا وكاميليا شركاء نشيطين في اجتماعات الصالون. عمارة التحليل التي يرفعها صالح صفاً صفاً لم تعد تغرينا، صار واضحاً أنها مبرمجة، وجاهزة، كذلك فإن فلتات لسان جورجيت لم تعد تسلينا، هي الأخرى بدت مبرمجة وجاهزة. تشاوف عوني وادعاءاته ازدادت سخفاً. كان ينتقص من بقية الفنانين ويظن أن مجرد حضور معارضهم تنازلاً لا يسمح به. وإذا وضع نفسه مقابل فنان فلا بد أن يكون أجنبياً. إيزابيل كانت الوحيدة التي تقبل نفسها، لا تدعي ولا تنتقص من أحد ولا تضع نفسها حيث يمكن أن تهتز أو تبدو مضحكة. اللوحة الوحيدة التي أرتها لنا كانت تملك روحاً لا تملك مثلها لوحات زوجها. لكن إيزابيل تظل ساكتة فيما المدى مفتوح لصالح وجورجيت وعوني. سكوتها لا يبدو احتجاجاً على ثرثرتهم بقدر ما يبدو سياجاً لها. إنها

تعيش في حالها لكنها لا تطبق على نفسها، بمجرد أن تتلقى إشارة تفتح ذاتها وتخرج منها. ما تقوله بعيد كلياً عن حفلة السخط والادعاء والتعالم الدائرة. ليس احترابا ولا درامات ملفقة. إنها تتكلم من نفسها وعن نفسها ولا تحتاج إلى أن تحطم إنساناً كلما أرادت أن تقدم حالها. حتى صوتها لا يعلو ولا يغدو صراخاً على أشخاص غير ظاهرين أو تصفية حساب مع أشخاص غير ظاهرين. إيزابيل تظل مشغولة بشيء في يدها، تطريز أو حياكة وقلما تتكلم.

انسحبنا إلى غرفتنا من الليلة الأولى. لم نكن زوجين والأرجح أنهم قبلونا على مضض. تسللنا إلى غرفتنا ومنذ دخلناها انفرطنا في الضحك. خسر صالح ثلث جمهوره وحين أغلقنا الباب انقطع صوته تماماً. قالت كاميليا إنها لو كان لها أن تختار لفضلت أن تنام على البيانو. وبالفعل تمددت على ظهره. أنا فتحت الكيس الذي جمعه لي قريب من غرفتي. أخرجت بيجامتي وتوجهت إلى الحمام لألبسها. لكن كاميليا ضبطتني قبل أن أفعل. قالت:

– مستحي تشلح قميصك قدامي! أنا بدير ظهري (وبالفعل أدارت ظهرها).

وقفت أمامها وخلعت قميصي وبنطلوني ووضعتهما على الكنبة وارتديت بيجامتي، بالكاد نظرت إلي لكنها لاحظت دمغة على ساقي. قلت لها إن أمي اشتهت عنباً أسود. ضحكت وقالت إنهن دائماً يشتهين عنباً أسود. قلت إنهن يشتهين أحياناً حزوز بطيخ، قالت إنها لا تفهم لماذا يشتهين دائماً أشياء حمراء. طلبت مني أن أقف وأفكّ لها سحاب الظهر. وقفت وأنزلت السحاب الذي كانت تنكشف حواليه بقعة

متمادية من الأسمر المتورد المسامي. كان الظهر مضغوطاً ومشدوداً عند انحناء السلسلة. أحسست بأني تريثت هنا. صاحت بي "شو عم تتفرج" امتلكت كلمتي هذه المرة وقلت لها "ايه عم بتفرج" وبقيت فعلاً أنظر إلى منحنى سلسلتها. فرقعت بالضحك وقالت "ايه تفرج. بس أنا بردانة". تركتها تخلع قميصها. اكتمل الظهر وانتهت السلسلة عند ارتفاع ردفها ووركها. كان صدرها ملزوزاً نافراً في سوتيانها بادياً من الأعلى بسمرة حليبية حيث يتدافع الثديان المصروران بحزّ في الوسط. ارتدت قميصها وبقي الساقان من تحت أطراف القميص منظومين مصقولين. ارتدت بنطلونها بسرعة تحت القميص. وقالت إن علينا أن نبحث عمّا نأكله. كان البراد امتلأ بما أحضره الرفيق وما جلبته السيدتان اللتان نزلتا وتسوّقتا من الدكاكين القريبة. وضعت شرحة جبن داخل الرغيف وفعلت مثلي لكنها غطت الجبن بالمربى. كنا جائعين حقاً. اقترحت كاميليا أن تصنع شاياً وسارعت إلى ملء الابريق ووضعه على الغاز ولما بدأ الماء يغلي أضافت إليه حفنة من الشاي ووضعته في الصينية مع ست كاسات اعتنت بتنظيفها من جديد بفوطة على المجلى، وضعت السكرية جنبها وحملت الصينية إلى الصالون، حيث كان صوت صالح ما يزال يدرز بالرتابة نفسها. قدمت الشاي وعادت بالصينية إلى الغرفة ومن المطبخ حملت نصفي رغيف محشيين جبناً وجلسنا نأكل. تعمدنا أن نأكل بخشونة. تركنا فتات الجبن يسقط حولنا ولمناه بلساننا. شربنا الشاي ونحن نخرض بريقنا بصوت عال. كنا أحراراً بالقياس إلى من هم في الصالون وأحببنا أن نلعب حريتنا. دفعنا بعضنا بعضاً بالأيدي. شربنا من كؤوس بعضنا

وأكلنا من أرغفة بعضنا. فعلنا ذلك ونحن نضحك وبصوت عالٍ بدون أن نكترث إذا كان صوتنا مسموعاً في الغرفة التالية. وقعت كاميليا على السرير وأخذت تقفز فوقه. دعتني لكي أفعل مثلها لكني ترددت. قالت: اطلع يا جبان، ولما سمعت جبان خلعت مشايتي وصعدت جنبها. قفزنا معاً كل من ناحية، لكني أمسكت بها من خصرها وأمسكتني من ظهري وأخذنا نركض متلاصقين. كنا الآن نخرج من التظاهرة، التي بقي جوها إلى الآن مطبقاً علينا، كنا نتحرر من التظاهرة، نتحرر من القتلى والجرحى، ونفعل ذلك بخيانة معلنة ومطلوبة. شعرنا الآن كم كنا مكبوسين من الداخل، كم كنا في حداد ضمني. حرمنا على انفسنا حتى الآن الأكل واللعب، وها نحن نفعل كل ذلك بفظاظة وكأننا نجرح أنفسنا، وكأننا نوبّخها.

في الصالون كان صوت عوني مسموعاً. كان يجاوب بغبطة على جورجيت التي تشتهه بماتيس. يتكلم بالصوت الذي يجدر أن يتكلم به شبيه لماتيس. صوت عالٍ وعالٍ بالقدر الذي يريد أن يرفع إليه موضوعه. ليس صوتاً بل مجموعة شرقطات تخالطها ضحكات وأصوات مبلوعة. كانوا وصلوا إلى نهاية سهرتهم. بعد قليل اطفأوا الكهرباء وانسحبوا إلى غرفهم.

قالت لي كاميليا:

– بدك تنام حدي، أنا مش معودي نام وحدي. بنام أنا وأختي، أنا وأمي، أنا وخيي، المهم ما نام وحدي.

لم أخف بغبطتي التي لاحظتها كاميليا لم تتركني طويلاً فيها قالت:

– تنام حدّي. يعني متل خيي. ما يخطر لك شي تاني. هيئتك فكرت غير شي. خلص ما عاد بدي نام حدك.

بالفعل ذهبت كاميليا إلى السرير الأول وتمددت عليه وأغمضت عينيها. بينما تمددت أنا على السرير الثاني. اغمضت عيني لكن وجود هذا الجسد الراقد على مدى قصير مني حرمني من النوم، لم أكن قادراً على النوم ما دمت لا أعرف ماذا أنا بالنسبة إليه. لكن أنفاس كاميليا التي تسارعت جعلتني أنسحب إلى نفسي. استطعت أخيراً أن أحبس نفسي تحت عيني وفي داخلي بدأ يخامرني نعاس وأخذت أهبط في النوم، كنت صرت في عين النوم حينما شعرت بأن يداً تمتد علي. جفلت وجلست في سريري لكني رأيت كاميليا تحيطني بذراعها وتهدئني. قالت:

– ما قدرت نام، قلتلك مش معودي نام وحدي. أخذت غفوة صغيرة وفقت. جيت صوبك. رح نام جنب بعض. بس انتبه. ما تفكر بشي، اخوي. قلتلك أخوي، مش أكتر.

تمددت جنبي. وضعت رأسها على وسادتي. مدت يدها علي. أغمضت عينها وأغمضت عيني لكنها فتحتهما وقالت لي:

– مش قادرة نام هالتظاهرة بعدها براسي. وقع قتيل قدامي. قتيل ايه قدامي.

كادت عيناها تشهقان بالدموع. ترطبتا وسال خيط دمع على خدها. أحطتها بذراعي. أسندت رأسها إلى كتفي حبست دموعها وفجأة شرقطت ضحكة منها. كانت تضحك ودموعها على خدها. وضعت رأسها على وسادتي وانكمشت بقربي. تغطت بشرشف

سميك وأدارت ظهرها لي. لكنها بعد قليل انقلبت على جنبها وصارت قبالتي. قالت بصوت خافت:

- بتفليني. هيئتك ما بتعرف أنا بعلمك. حرك اصبعتين على جلد راسي. من فوق لتحت.

لم أنجح في المرة الأولى ولا في الثانية. أمسكت إصبعي إلى وسط راسها وجررتهما على جلدة راسها إلى أن وصلت إلى عنقها ولما انتهت عادت فرفعتهما إلى مكان آخر في الوسط، مجاور للأول، كأنما تحزز بذلك جلدة رأسها. عندئذ صار بوسعي أن أفعل ذلك من تلقائي. تركتني أجر إصبعي على جلدة الراس، خطاً بعد خط. انغمست في ذلك بينما راحت هي تتداعى في نومها إلى أن انتظمت أنفاسها.

نمت أنا بصعوبة. كنت أصطدم بحاجز جفني كلما بدأت أسترسل في النوم. ثم أخذتني غيبوبة وبدأت أهبط في النوم. كان نومي أنيساً واستيقظت وضوء الصباح يملأ المكان، لم تكن كاميليا في السرير لكني كنت أسمع طحشة في المطبخ. بعد قليل دخلت الغرفة وفي يدها صينية وفنجان قهوة. قالت إنهم لا يزالون نائمين. صالح يحلم بأنه لينين وعوني يحلم بانه ماتيس أما جورجيت وإيزابيل فلا تعرف بماذا تحلمان.

اقترحت جورجيت بأن نذهب ونجلس في مقهى تعرفه منذ أيام الدراسة. لم يبدُ أن الفكرة راقت لصالح لكن لمّا رفعت جورجيت صوتها وافق.

قادتنا جورجيت عبر شارع ضيق إلى ساحة وهناك وجدنا مقهى مسقوفاً انتشرت في وسطه طاولات مقشرة وكراسي خيزران جلسنا

على طاولة لكني لاحظت أن عين صالح على الباب تتمعن في الداخلين. أجفله الرجل ذو الشاربين الكثيفين الذي دخل واتخذ مكاناً قربنا. لم يتكلم كثيراً كعادته وحين كان يفعل كان يتعمد أن يقول ذلك بصوتٍ خافت. لما أرادت جورجيت أن تتكلم سياسة ثناها بتحريك كفه فابتلعت صوتها. لقد جئنا لنكون أكثر حريةً لكننا صرنا شبه حبساء. كان صالح يراقب المكان. جنبنا كان اثنان يتحدثان بالضبط عن التظاهرة بقدر من الاستهجان. فجأةً بدأت إيزابيل الساكتة عادةً تتكلم عن ماغريت، أحد فنانيها المفضلين. انغمسنا كلنا في الحديث عن الفن. تكلم عوني أيضاً عن ماتيس وتكلمت أنا عن شيريكو لكن الذي فاجأ هو حديث كاميليا عن غريكو. أخذنا الحديث لكني انتبهت إلى صالح. وجدت عينيه تكادان تقفزان من وجهه. كان يتطلع إلى ضابط وجد فجأةً في المكان. الضابط منشغل بالحديث إلى صاحبه وبشرب قهوته ولا يبدو عليه أنه يلقي بالاً إلى المكان. لكن عيني صالح لم تفارقاه. فجأةً انتبه الضابط إلى صالح فحيّاه من بعيد بل دار من وراء كرسيه وجاء إليه وصافحه قائلاً له إنه لا يذكره بالتأكيد. كان تلميذه في ثانوية الظريف وكان صالح أستاذه في الأدب العربي. أسقط في يد صالح وأجابه من حواضر الكلام. لا يذكره تماماً لكن وجهه ليس غريباً عليه. تذاكر الاثنان اسم المدير واسم الناظر العام. صالح بالتأكيد احتار كيف سيغادر المكان. إيزابيل هذه المرة قالت إنهم ينتظروننا وعلينا أن نغادر، نهضت ولحقناها. صالح مرّ من أمام الضابط وصافحه قبل أن نخرج ويصدر صوت عنا قبل أن نكون ابتعدنا.

عدنا إلى البيت خلف جورجيت أيضاً. تحت البناية توقفنا عند دكان، اشترينا بضع حاجيات، دفع صالح لكن تقاسمنا معه المبلغ، لم يمانع، وضع المبلغ في جيبه. منذ وصلنا دخلت جورجيت وإيزابيل وكاميليا إلى المطبخ. كن يردن تحضير الغداء، لكنهن أردن أيضاً أن يجدن وقتاً ليتحدثن بينهن كنساء فقد فاتهن منذ وصلن أن ينفردن ببعضهن. كان ابن عوني وإيزابيل أصيل زارنا وأخبرنا أن الشرطة طرقت أبوابهم في منتصف الليل وعلق على اللوحات التي وجدها في الصالون. فهمنا أنه الآخر فنان. كذلك زارتنا ابنة صالح وجورجيت ليس وقضى الثلاثة وقتهم في الحديث عن العائلة. لم تطل كاميليا بقاءً مع السيدات في المطبخ، انسحبت وداهمتنا في الصالون قائلةً إن علينا أن نستحي من بقائنا في الصالون نتكلم بينما أرسلنا النساء ليعملن. المطبخ للنساء، أليس هذا ما نفعله. النساء يصنعن مادة الحياة ونحن لسنا أكثر من طفيليين عليهم. كيف صاقب أننا اشتراكيون إذا كان هذا سلوكنا، إذا كنا نستحي أن ندخل إلى المطبخ. ماذا نختلف عن غيرنا إذا كنا نتمسك بذكوريتنا، إذا كنا نظن أن المطبخ يهيننا. عوني وأنا طبعاً دخلنا إلى المطبخ. عوني أتى فوراً إلى المجلى وبدأ فوراً بقطع الخضار للتبولة ببراعة لافتة. أنا غصت في حوض المجلى وجليت الصحون التي وجدتها. صالح بقي في الصالون يقرأ. لم يكترث لحديث كاميليا، لم يكن لعضو في المكتب السياسي أن يهتز لأي كلام. كانت كاميليا تريد أن تدفعنا إلى العمل ولما اكتشفت أن استعدادنا ليس قليلاً انكفأت تقلي البطاطا. منذ ذلك الحين صرنا نعدّ الوجبات ونتناولها معاً. صارت إيزابيل الهادئة هي التي تنظم العمل،

أقرّ لها الجميع بذلك، صاروا يعودون إليها في أموره، تسلم كلاً منا ما يعمله، تحدد له أين يعمل، تمرنه إذا بدا مرتبكاً. ظللنا ندخل سويةً إلى المطبخ، حتى صالح الذي عاند وبقي في الصالون صار يدخل معنا وقلما يعمل. صارت كاميليا تسميه عروس المطبخ وهو يضحك لها حين تدعوه كذلك.

ابنة صالح لميس تأتي في الصباح، تقول إنهم يسألون عن صالح كل يوم تقريباً، يأتون في منتصف الليل ويأتون في الصباح. وفي اليوم الثالث جاءت متعكرة، قالت إنهم أخذوا ابنه محله لكنها اتصلت بحلفاء الحزب فردوه عند الظهر. أقلقت هذه الأخبار صالح، قرر أن ينتقل إلى بيت صديق في الجبل. لكننا علمنا أنهم قصدوه في البيت وأمسكوه، ومرة ثانية تدخل حليف الحزب فأطلقوه.

كنا ننام أنا وكاميليا متحاضنين، مع الوقت صارت تندس بي. أقلّبها كل ليلة وتنام وأنا افعل ذلك. في الليلة الثالثة بينما كنت اغرس إصبعي في جلدة رأسها وأهبط بهما في شعرها، وجدت شعرها قريباً من فمي، وجدت دافعاً لأن أنحني عليها وأقبلها في شعرها. أحست هي فانقلبت على جنبها وابتعدت عني. لم تقل كلمة. تورّد وجهها وأزاحت رأسها عن الوسادة. انقلبت وصارت على السرير الثاني كانت تبتعد بدون أن تصدر كلمة. حين صارت في وسط السرير الثاني، قالت بصوت عالٍ "مش هيك". بقيت في وسط السرير الثاني لكنها أخذت تتقلب، شعرت بأنها تفعل ذلك عمداً كي أراها. لم أنبس بكلمة. نزلت عن السرير وصارت تتمشى في أرض الغرفة، قطعت الغرفة خمس مرات، ثم عادت فجلست على السرير. كانت تريدني

أن أراها هكذا أو تريد أن تثبت ذلك لنفسها. كنت لا أزال ممدداً على السرير، التفت عليه وحين صارت قبالته جلست عليه وكأنها تتردد في أن تصعد، أخيراً صعدت وبقيت على مقربة مني. لا أعرف ماذا كانت تنتظر أن أفعل، بقيت أنا ساكتاً لكني أشرت إليها أن تقترب. لم تتحرك من موضعها لكني أعدت الإشارة. بقيت ساكتة، لكني عندما رفعت صوتي "تعي، شو ناطرة" اقتربت. بقيت على جنبها قربي. تجرأت على أن أقول لها "شو ناطرة قرّبي"، اقتربت وصارت بموازاتي. لا أعرف لماذا شعرت أنها غاضبة، وأنها تقريباً غاضبة مني. مددت يدي إليها واحتضنتها، انقلبت على جنبها وصارت بمحاذاتي. مدت يدها واحتضنتني، احتضنتني بقوة، ثم انقلبت على ظهرها واندست بي. صار صدرها لصق كتفي، شعرت بكتفي يتخشب، كان علي أن أتجمد في موضعي لئلا أدوس الصدر الذي كانت طراوته الحقيقية أو فكرة طراوته تيبّسني. لم أطق نفسي، انقلبت قبالتها، صار صدرها على صدري، لم تغير موضعها. كانت الثقة التي بيننا ثابتة ولا يجرحها شيء، اندست بي أكثر. كنا متلاصقين تقريباً، متعانقين تقريباً لكن لا مبالين بعناقنا. كانت يدي ممتدة على وسطها، لكن حين وقعت على ساقها لم تتحرك، بل حين ملست بها على ساقها لم تتحرك. كنا واثقين من عفتنا في هذه اللحظة، كانت الشرارة بعيدة ونحن نتلامس بدونها، يمكن أن نكون بالغنا في امتحان أنفسنا. وضعت ساقها على ساقي بدون أن نتحرك، قفزت علي وصارت تعرك بيديها صدري لكننا ضحكنا معاً لذلك. ألقت نفسها على صدري ولكن كأننا نلعب، رفعتها عني وأعدتها إلى وسادتها الثانية. لا أعرف ماذا

كنا نفعل، كنا نلعب براءتنا لكننا، انتبهنا أم لم ننتبه، كنا نقوم ببروفات للمستقبل. كنا ندفع بعضنا بفظاظة، نصعد فوق بعضنا البعض ويعرش أحدنا على صدر الآخر، نشد شعور بعضنا البعض، نسحب الشرشف عن بعضنا البعض، نرمي ببعضنا إلى الأرض بعيداً عن السرير. كنا كلما بالغنا في لعبنا كلما استزدنا منه، بل بدا في لحظة أننا أطلقنا أنفسنا و لم نعد نبالي. قلبنا الفراش ورميناه على الأرض وسقطنا فوقه متدافعين ضاحكين. كنا نتدافع بخشونة تزداد مع الوقت بل نتعمد أن نزيدها، نتعمد أن يلحق الواحد الآخر ويرميه على الأرض ويكبّل يديه ويرفعهما إلى أعلى ويثبتهما هكذا. كنا ندفر بعضنا بعضاً بطريقة لا تخلو من التضارب. يحصر احدنا الآخر بين يديه ويمنعه هكذا من الحركة ويبقيه وقتاً تحت سيطرته، إلى أن ينتبه الآخر إلى أن بوسعه أن يوجه ضربة من القدم، يمكنها أن تحرره وتخبط الحصار كله. لحقت كاميليا وحصرتها في زاوية من البيت لكنها استكانت بين يدي، كان وجهها قريباً مني وعنقها تقريباً تحت فمي، كانت ساكنة مستسلمة بين يدي. شعرت أنها اللحظة التي يمكن أن نخرج فيها من اللعب، اللحظة التي نتوقف فيها عن التظاهر، لكني لم أجسر. ذات الفكرة، ربما، خطرت لكاميليا فوجهت ضربة من قدمها إلى ساقي وخرجت من الحصار.

كنا نبالغ بخشونتنا ونزيد فيها، ربما كان ذلك أسلوبنا غير الواعي للخروج من التظاهر بدون اي مسؤولية. ربما كنا نحسب أن الشرارة هكذا تحضر من تلقائها لكن الخشونة تحولت لعباً، وكلما بولغ فيها زادت في اللعب. لم يعد في وسعها أن تغادر مجانيتها، لقد دخلت

في منطقة الأمان، صارت جزءاً من الثقة، من العناق اللامبالي. لم تشبّ الشرارة من تلقائها. كل ما في الأمر أننا تعبنا، ذهبتُ وتمددت على السرير جاءت كاميليا وتمددتْ جنبي، اندسسنا في بعضنا بدون حساب. سبقتني كاميليا إلى النوم، تصاعدت أنفاسها لكنني لم أتأخر كثيراً. نمنا ضجيعين في ثوبي هوى وتقى كما قال الشريف الرضي من قبل. وحين استيقظنا ووجدنا أنفسنا على هذه الحال انسللنا من بعضنا، ليس بدون خجل. نظرنا إلى بعضنا بشيء من اللوم وكان كلاً منّا يتنصل مما جرى ويلقي مسؤوليته على الآخر ويتظاهر بانه يفعل ذلك، كأنه بذلك يكمل اللعب أو يضع له خاتمة من جنسه.

قالت كاميليا إنها ضاقت بالبقاء في المنزل وأنها تريد أن تخرج لترى وجه ربها. ارتدت بنطلون جنز وجاكيت صيفية ونصحتني بان افعل مثلها. أنزلتنا السيارة في الكولا وهناك واصلنا الطريق على أقدامنا إلى المخيم. على مشارف المخيم التقينا امرأة ما أن شاهدتها كاميليا حتى صرخت بها "أم محمد"، وأم محمد التي كانت أربعينية ممتلئة الجسم اتجهت بثيابها السوداء إلى كاميليا وعانقت الرفيقة "مريم" كما أسمتها. أصرت على أن تستقبلنا في بيتها وأن نشرب من قهوتها لكن مريم، أي كاميليا، اعتذرت، قالت إنها ستقابل كثيرين ولن يكون عندها وقت لتشرب القهوة في بيت أم محمد. رافقتنا أم محمد في أزقة المخيم الضيقة التي لا نجد موطئاً لقدم فيها. دقت على باب وانفتح وللحال ظهرت عجوز ما إن شاهدت كاميليا حتى ألقت نفسها عليها واحتضنتها وارتفع نشيجها. سألتها كاميليا عن أبناء الشهيد، ابنها كما فهمت، فقالت إنهم في الروضة. أصرت على أن تستقبلنا في بيتها

الذي كان غرفة ضيقة. حاولت كاميليا أن تعتذر لكن ام محمد حضتها على أن تقبل. دخلنا فوجدنا صورة معلقة على الحائط لشخص في زي عسكري. قالت أم محمد إنه ابنها الشهيد الذي ترك في عهدة والدته طفلين بعد أن تزوجت أمهما زواجاً ثانياً. قالت لي العجوز: انظر إلى صورته، ألا يبدو كالأسد؟ قلت لها إن له بالفعل هيئة الأسد. قدمت لنا العجوز القهوة وضيفتنا حبات تمر. خرجنا من عندها وسرنا في الزقاق الترابي خلف بعضنا البعض، وأخذ الزقاق يضيق إلى أن صار المشي فيه متعذراً. على جانب رأينا بيتاً مهدوماً، قالت لنا أم محمد إنه تقوّض منذ أشهر وصار أهله في العراء منذ ذلك الحين. لقد توزعوا على بيوت أقربائهم و لم ينالوا إلى الآن إذناً بترميم البيت. ظل الطريق يضيق لكن كاميليا واصلت السير إلى أن وصلت إلى باب فتحته لنا صبية لا تزال في ثياب النوم، وما أن رأت كاميليا حتى صاحت تدعو أخواتها بأن مريم هنا وبالفعل أسرعت صبيتان من الداخل كانتا هما الأخريان في البيجامات. هجم الثلاثة على كاميليا واحتضنوها كلٌ من جهة، كدن يرقصن ابتهاجاً بها. أول مرة أجد في المخيم من يناديها باسمها الحقيقي "كاميليا". قالت الأولى "اشتقنا لك كاميليا" لكن كاميليا صححت لها "مريم". لم يكن مريم هكذا اسماً حركياً، لقد اختارته لها البنات وهي أحبته وارادت أن تنادى به. قالت كاميليا إنها تريد أن تمر على الروضة، الروضة في مشارف المخيم وحين وصلنا إليها شاهدنا بيتاً حقيقياً. كان هنا فناء يلعب فيه صغار بالكرة وحول الفناء غرف مشرقة ونظيفة. كان صوت الإنشاد يتصاعد من إحداهما، صوت المعلمة هو الأعلى تتبعه أصوات الصغار. في غرف ثانية كان

الصغار يعكفون على الرسم، ألوان وورق وما يرسمونه ليس بعيداً عن حياتهم، المخيم بأزقته ومطارحه، العسكريون بأزيائهم وأسلحتهم. بعض الرسمات كانت من خيال بحت: أشجار وغابات ومساحات واسعة وبيوت جميلة. لفتتني فتاة عاكفة على رسم صورة نصفية بالزي العسكري، سألتها من هذا فقالت إنه أبي، وقالت لي فتاة جنبها إنه أبوها الشهيد الذي سقط وهي بعد في بطن أمها و لم ترَ له وجهاً. سلمت كاميليا على مدير الروضة الذي أصر على تضييفنا القهوة. في طريق العودة، كان وجه كاميليا مشرقاً فيما كنت أنا اكتفيت من الأزقة الترابية الضيقة والخانقة. كانت كاميليا تبدو كأنها عائدة من نزهة، فيما روائح الفضلات المعفنة والمجاري المفتوحة والبيوت الرطبة لا تزال في أنفي، بل شعرت بأنها نفدت إلى جسدي وأني في داخلي مدبوغ منها. إنها الآن رائحتي. لم أفهم كيف يمكن أن نرى وجه ربنا في هذه الطرقات المحصورة كالأنابيب والعائمة بالفضلات والطين والوحل.

كانت كاميليا منتشية. لفّت ذراعها حول خصري وأنا فعلت مثلها وسرنا متخاصرين. اعتزت بصداقتها لأم محمد أم الشهيد التي وقفت حياتها على خدمة أبناء الشهداء. تحدثت عنها بإكبار وكأنها مثال لها. لكل من قابلته في المخيم قصته التي هي معتدة بمعرفتها وبروايتها. كانت تكره أمها الغنية وأباها الذي يتبع أمها، تكره كل ما يريدانه لها. تغيب عن المدرسة نكايةً بهما، تسخر من أصحابهما ومن أبنائهم وتعلن ذلك في حضورهم. كانوا بالنسبة إليها مزيفين ومدعين ومتحذلقين، أكثر ما تكره فيهم رضاهم عن أنفسهم ورضاهم عن حياتهم، هي أكثر ذكاءً وتطلباً من أن ترضى بحياتها. لم تكن تشفق

على أهل المخيم، بل تراهم حقيقيين وأغنياء النفس ونبيهين ولهم فعلاً حياة، أكاد أقول إنها أرادت أن تكون مثلهم، إنهم كانوا قدوتها، احترامهم لها هو الاعتبار الفعلي الذي كسبته لنفسها. تصغي إليهم، تحب أن تسمعهم، تشغف بكلامهم وعباراتهم وأمثالهم وقصصهم، تتعلم منهم وتلتقط مأثوراتهم وتروح ترددها أمامهم وأمام غيرهم. لقد أكسبوها لغةً هي غالباً ما تتقنع بها، كأنها تخفي بذلك حقيقتها أو تموهها. وفي البيت، بيتها، ترى بأعينهم وتحاكم باسمهم ولا تهتم فهي تحاكم عالماً ميتاً. كانت تكره نفسها وطبقتها ومستعدة لأن تكره وتبادل بالكراهية أي شيء. المكروهون الملعونون كانوا عائلتها، لكن حتى هؤلاء لم يكونوا ليمروا بالجمع تحت عينيها. فهي قادرة على أن تزنهم وقادرة على أن تتميز مكر كل واحد فيهم وشوائبه.

كانت حزبية ملتزمة لكن الغضب الذي أوصلها إلى الحزب كان يعصف أحياناً بالحزب نفسه. كرهت بالتأكيد كل المراتب العليا، هكذا كان إخلاصها للحزب مترسخاً في تلك الكراهية التي لا تعفي أحداً. ذلك الإخلاص كان حديدياً وصلباً بسبب هذا الصدام المستمر. كان ولاؤها للحزب لا ينفصل عن كرهها لكلّ ما فيه، ليس قياداته فقط ولكن أيضاً قواعده، رغم ذلك ما من شيء كان قادراً على أن يفصلها عنه. كان بالنسبة إليها الفضاء الذي تنشر فيه غضبها والمحل الذي يغدو فيه هذا الغضب عقيدة مكرسة. أظنها كرهتني في البدء لأنها حزرت أني قريب من قيادات الحزب، لكنها لم تستطع أن تواصل كرهها لأنه كان يصطدم بما يشبه الجدار، لم أبادلها هذا الغضب ولم أرده لها. لم أكن غضوباً ولا جامحاً في شيء، لم أملك

كثيراً من الدوافع الغامضة التي تجعل الواحد يخرج من نفسه ويجمح بها. لا أخزّن كثيراً من هذه الرواسب المكبوتة، أنا سلبي إلى حد ما، أردّ بأهون أسلوب وغالباً ما أخجل عن غيري ولا أحتمل الخصومة وأفضّل عليها الإهمال. لعل لتربيتي بعيداً عن أهلي دخلاً في ذلك، لا بد أن معاناتي الأوديبية لم تكن قوية و لم تترك رواسب عميقة. أظن أن كاميليا طوال تلك الفترة التي أقمناها معاً كانت تراقب ردودي، كنت تقريباً من دون ردود. أتركها لشأنها تقول وتفعل ما تريد ولا أجيب. لم تستطع فيما أظن أن تقيسني على أي من أمثلتها المكروهة، لم تجدني أتصرف بالسلطة التي يتصرف بها المقربون من القيادة والمرشحون ضمناً لها. منذ البداية بهرتني وصار همّي أن أرضيها، مع ذلك لم أتحبب إليها بالشكل الذي يثير نفورها. كنت أتركها تتصرف كما تريد ونادراً ما أعلّق. حاولت أن تستفزني لكنها لم تلقَ جواباً. في الحزب كنت في صفّ المحتجين لكني أخزّن غضبي ويصعب علي أن أثور، هذا يستلزم طاقة لم تكن عندي. غضب كاميليا، حتى ذلك الذي ينصب عليّ، كان يروقني. فتنتني كاميليا، ليس بشرتها الحريرية وعيناها اللماعتان فقط، بل صوتها العميق المتهكم أيضاً وجسمها الفائر الذي يتموج مع كلامها. فتنتني لكني لم أفصح، كنت أرصد فقط حركاتها. أخاف أن أجفلها إذا أنا تصرفت بسرعة، أشعر أن متعتها أن تطيح بالذين يسارعون إلى طلب مودتها. كنت دائماً بطيئاً، في الحقيقة سلبياً، أترك الآخرين يتصرفون، أخاف أن أقوم بحركة خرقاء، أخاف أن أبدأ خطأ، أترك الآخرين يتصرفون عني. أظن أنهم سيحسنون التصرف أكثر مني، أخطاؤهم حتى أخطاؤهم ستكون

لمصلحتي. المهم أن أبقى جانباً حتى تأتي اللحظة التي يستدعونني فيها إلى ان أتصرف، عندئذ كل شيء يكون ممهداً والخطوة الصحيحة بادية للعيان. عندئذ يستحيل أن أخطئ. كاميليا كنت مستعداً إلى أن أتمدد جنبها وأفليها كل مساء وأنا أشعر أني أعمل، إن كل هذا لن يكون هباءً، إنه يجري تقريباً بانتظام وبتسلسل. في يوم ما، في ساعة ما بالأحرى، سيثمر. كنت أجد متعة في صبري وانتظاري. أظن أن اللعبة كلها هنا، لا ينبغي الاستعجال. ذات ساعة، ذات لحظة، سنصل.

حين عدنا أدخلت المفتاح في القفل فلم يفتح. كان المفتاح في القفل من الجانب الآخر. احترنا. من في الداخل، عوني وإيزابيل، لا يريدون شريكاً. قالت كاميليا: لنذهب وننتظر في مقهى. ذهبنا إلى أقرب مقهى. كان في الشارع الموازي مقهى أقرب إلى أن يكون مقهى حي. غرفة طويلة وطاولات وكراسي بلاستيك. لم نجد أحداً فجلسنا عند الطاولة الأقرب إلى الباب، أمضينا الوقت الذي شربنا فيه زجاجتي بيبسي كولا وعدنا إلى البيت. كان المفتاح لا يزال في القفل من الداخل، هذه المرة لم نتردد، قرعنا الجرس. لحظة انتظار طويلة ونشعر بأن أحداً وراء الباب، نسمع حركة المفتاح في القفل ويفتح الباب. نرى إيزابيل واقفة في قميص النوم، لفتني لون وجهها المتورد ونضارة بشرتها الحريرية وعيناها اللامعتان. كان وجهها مرتاحاً أملس وبلا غضون، كأنما استعاد شبابه. اعتذرت إيزابيل وتركتنا ندخل، جلسنا في الصالون وبعد قليل وافانا عوني في الروب النبيذي. كان وجهه بالعكس مجعلكاً مطعوجاً من ذقنه، ذكّرني بكلب الدمبر، الغضون بارزة على خديه وعيناه تقريباً خابيتان وراء نظارتيه. حاول

أن يرتجل نكتة ويبدو أنه لم يجدها فسكت وجلس على كنبة وقد كبس على شفته السفلى. إيزابيل بالعكس كانت مرحة ومنطلقة، ومذ جلست اشتبكت في حديث مع كاميليا فيما بقينا أنا وعوني صامتين. كانت إيزابيل وكاميليا متجاورتين على نفس الكنبة، الحديث بينهما قريب من الهمس وهما يتبادلانه ويتبادلان معه الكثير من الضحك والنظرات التي تلمع في عيونهما وحركات الأيدي والراس والجسمين اللذين يميلان إلى بعضهما بعضاً ويتماسان ويفترقان. حاولت أن أجرّ عوني إلى حديثه المفضل عن فنه لكنه أجاب باقتضاب وعاد الصمت بيننا، بعد قليل نهض عوني ودخل إلى غرفته. بقيت وحدي على الكنبة، فيما انخرطت كاميليا وإيزابيل أكثر في تواصلهما وصارت ضحكاتهما تصلني عاليةً، بينما ازداد حديثهما سريةً وتقاربا جسدياً أكثر.

عندما اختلينا أنا وكاميليا كان مرّ وقت طويل علي وأنا وحدي على الكنبة، ووقت طويل لتحضير العشاء مع كاميليا التي رفضت مساعدة إيزابيل ورجتها أن تبقى في مكانها، ثم للعشاء الذي غاب عنه عوني الذي لزم غرفته. كانت كاميليا مبتهجة، عيناها تلمعان بشدة وشفتاها خامرتان ووجهها متورد وبشرتها حريرية. قالت: أريد أن أفعل شيئاً، في جسمي طاقة تريد أن تخرج لا أعرف كيف لكنها تريد أن تخرج، سأرقص. أخذت تتمايل جنبي وتدور بجسدها وتنتقل بخطوات واسعة، تحرك رأسها وكتفيها وذراعيها في الفراغ ثم تعود إلى جنبي لتتمايل بدون أن تمسني. لم تكن هذه رقصة معروفة، كانت تخترع، كانت تتراقص فحسب. كنت أقترب منها لكنها تلوي جسمها وتحيد

عني تتمايل نحوي ثم تصرف جسمها بسرعة وخفة قبل أن تلامسني. كانت تثب صوبي، تثب وعيناها في عيني لكنها لا تصل إلي. تدور حولي لكن تحاذر أن تمسني. أتحرك في مكاني لأكون دوماً قبالتها، وهي لا ترفع نظرها عني، كانت ترقص لي ولكن ليس معي. هدأت حركتها أخيراً واختصرتها بالوقوف وهي تميد بخصرها وتهز صدرها وكتفيها وعنقها. ظلت على هذا الحال، وأخذت حركتها تتباطأ لكنها صارت أكثر إيقاعيةً وتكراراً. استمرت هكذا فيما كان لونها يتغير وعيناها تزدادان لمعاناً وحركتها تتحول إلى اهتزاز خفيف. ثم كأن طاقتها نفدت تماماً، توجهت إلى السرير وأراحت ظهرها عليه وبقيت صامتة وشبه متخشبة وقتاً. كنت في حيرة من أمري وأخيراً تحركت مقترباً منها لكنها من محلها أشارت لي بيدها أن أبتعد. ابتعدتُ ودرتُ حول السرير الذي تمددت عليه، ووصلت إلى السرير الآخر وجلست عليه. كنت أيضاً استنفدت طاقتي ولا أعرف ماذا أفعل بجسدي، أرهقني هذا التيبس في وضعي فيما كاميليا ترقص حولي وتريدني أن أبقى بعيداً ولو مسافة غير منظورة، أن أبقى حيالها بدون أن ألمسها. ما إن ألقيت نفسي على السرير حتى شعرت بهذا التعب الذي لا أعرف من أين جاءني، ربما من ضبط نفسي وجسمي، كنت لا أزال أواصل هذا الضبط كأني مصلوب على كتفيّ. سمعت اسمي بصوت خفيض متقطع كأنما يزحف إلي: "جلال"، كانت كاميليا تصعّده من أنفاسها. ذهبت وجلست حيث أشارت لي، كانت على جنبها وجلست قبالتها. ظلت صامتة وقتاً، وأنا أنتظر، إلى أن رفعت راسها، وضعته على ركبتي ثم بدأت تتكلم عن المخيم. كانت مفتونة بهذا

المجتمع الذي، كما تقول، يحكمه الشهداء. قالت إن في كل بيت صورة هي معبود البيت. ليسوا موتى، قالت، إن حياتهم الثانية تبدأ حالما يسقطون، إنهم ملائكة المخيم. لا يزورون في الأحلام فقط لكن الجميع يجدون طريقة لمخاطبتهم، والجميع يصغون إليهم في كل شيء. كلمتهم نافذة ما إن يشعروا بها، هناك الفتاة التي ردّت خاتم الخطبة لأنها شعرت أن أخاها الشهيد غير راضٍ عنها، هناك الأخوة الذين يلتحقون بالفدائيين لأن هذه هي إرادة الأخ الشهيد. حين يسقطون لا يدوم الحزن عليهم أكثر من أيام، إذ يتبيّن الآخرون أنهم ما زالوا بينهم، بل هم ازدادوا حياةً. استنطاقهم ليس صعباً، الجميع يجدون طريقة لذلك، ومنذ ذلك الحين كل شيء يتم بإرادتهم. لم يبدُ على كاميليا أنها تتحدث عن أوهام، لم تقل إنها تؤمن، لم تقل إنها تصدّق، لكن حاجتها إلى ذلك لم تكن أقل من حاجة ذوي الشهداء. هذه القصة رائعة وهذا بحدّ ذاته يكفي. انتقلت كاميليا إلى عائلتها، أمها الثرية ابنة العائلة التي تزوجت مستخدماً عند والدها لكنها تزوجت الفقر. لم تنسَ ابنة العائلة أصل زوجها، إنها تريد أن تنزعه عنه، تريده أن يغيّر جلده ورائحته وربما اسمه. تعامله كما لو كان مستخدماً عندها، وهو راضٍ بذلك. لم يصدّق إلى الآن أنه تزوج بنت معلمه. لا يردّ على سخطها وكلما وبّخته على أنه أوقع فُتاتاً على المائدة، أو أنها شمّت رائحة عرقه، أو أنه لم ينتبه إلى أن ياقة قميصه مبرية يبتسم مشاركاً لها في يأسها منه، وسعيداً مجدداً بترقّيه الاجتماعي، لا ينفد صبره على الإطلاق ولا يتعب من تذكيرها له بأصله أمام الأولاد. زواجها من مستخدم عند أبيها زاد من شعورها بطبقتها وجعلها تؤكد في كل

لحظة عليها. كاميليا وهي تتكلم جرّت نفسها إلى قربي وأحاطتني بذراعيها. كانت لا تزال تتكلم عن أبيها، وشعرت أنا بأني عندها في هذه اللحظة ذلك المستخدم الذي كانه أبوها. لم أتحرك وتركتها ترفع جسمها وتلقي رأسها على صدري، لامس شعرها وجهي وغمر ذقني وفمي. تركتها تقف على ركبتيها وتتناول وجهي بيدها وترفعه قبالتها ثم تطبع على فمي قبلة وتعضوض شفتي وتمضغهما. رفعت فمها إلى أذني وأنشبت لسانها فيها، حينئذ دسست يدي في صدرها وأخذت أفرك حلمتها. خلعت فستانها وسوتيانها وكيلوتها ورمتها حولي وتمددت على السرير ومدت يدها تدعوني إليها.

أخذتني كاميليا بعد ذلك إلى بيتها وعرفتني على والديها. كانوا يسكنون في شقة واسعة تطلّ على البحر وعلى صخرة الروشة. لم تكن مزدحمة، كانت الفراغات محسوبة والمساحات محسوبة، الأناقة هنا مقصودة لا الفخامة. كانت أم كاميليا نسخة عنها، العينان المسحوبتان البراقتان، البشرة السمراء الحريرية، الفم المكوّز. لولا فارق الطول، كاميليا أطول، لأشبهتها تماماً. والد كاميليا المحرج دائماً، والذي يعثر بصعوبة على كلماته ويقولها أحياناً قبل أن يتأكد منها، ذو هيئة هوليوودية يشبه برت لانكستر وله طوله ووجهه المحجّر وابتسامته حتى وإن كان كسا الشيب فوديه. كان بارزاً ومهيباً وهو يملأ مطرحه على الكنبة لكنه يستعجل الكلام وكأنه يخاف أن يضيّعه، وما يقوله يجعل امرأته تزمّ فمها غالباً وتحاول إنقاذه بتحويل الحديث إلى دفة اخرى. لم اكن أثيراً عند والدتها مذ عرفت أنني ابن قرية، لكن وجود والدي في كولومبيا رفع عني تقريباً هذه الوصمة. أما والدها فكان

يسايرني ويسايرها بالحديث عن ماضيه النقابي في أول عهد البلد بالنقابات. كنا نخرج معاً، أنا وهي، ونعود معاً ونصعد أحياناً إلى غرفتها. نكتفي بتحية والديها إذا صادفناهما في البيت ونتزوي معاً في غرفتها أو على الشرفة أو حتى في ركن من الصالون. ما كان أحد يقتحم علينا خلوتنا، كانت كاميليا هكذا حرة. جدتي لم تكن تسمح لخالاتي بمغادرة البيت إلا بإذن ولوقت معلوم سلفاً. حرية كاميليا هكذا ساهمت بتحريري أيضاً فانتمائي الحزبي ليس وحده كافياً لتخليصي من رواسب تربيتي. لم نكن الكوبل الوحيد في الحزب، مع الوقت أخذ عدد الكوبلات يتزايد وكذلك الزواجات من داخل الحزب. أصبحت هذه الزواجات من مناسباتنا الحزبية، كانت تقريباً أعياداً خاص تنقضي حتى الصباح في الشرب والأغاني والأناشيد السياسية.

كنا أمضينا معاً قرابة ثلاثة أعوام حين قالت لي كاميليا "خلينا نتجوز ما عدت أطيق أمي" كنت اقترحت هذا من قبل مرات وفي كل مرة تجيبني "بعد بكير خلينا نستنى"، أو تقول إنها ليست متأكدة والزواج قد يكون غلطة، لا تعرف إذا كانت تحبني، قلبها يحيّرها، أحياناً يقول لا، أحياناً يقول نعم، أحياناً يكون مثالها رجلاً يرفعها بيد واحدة أثناء الرقص وأنا أنزوي عنها وحدي في السهرات الراقصة وأتركها وحدها في الحلبة. كانت تحسن الرقص والتزلج وأنا أحمل جسدي كالخشبة، وإن كنت أستطيع تنقيله في الدبكة حيث الذي يمسك الدفة هو الوحيد الذي يرقص ويجرّ الآخرين وراءه. تقول إنها أحياناً تريد رجلاً يشبه الشهداء وأنت، تقول لي، دعني افكر، أنت تشبه

أميناً عاماً. أنا لم أكن أعرف ماذا تشبه كاميليا، لا يهمني أن أعرف، لاحظت منذ البداية أنها لم تكن مثلي لكن هذا الأمر الذي لم أعرف كيف أتعامل معه بدأت أعتاده وبدا يرضيني. كنت أدعوها للزواج فتردّ بأني لن أستطيع احتمال جنونها طويلاً. أفضل لنا أن نختبئ في غرفتي الصغيرة المستأجرة، لكن هذه المرة قالت هي "يللا نتجوز ما عدت طيق أمي". ظننت أنها ستعود عن كلامها في الغد، لكنها استمرت تقوله "يا الله خلينا نتجوز". كنت لا أعرف متى ترجع عن كلامها لكننا فتشنا عن شقة وفرشناها على مهل، وبالطبع تبعاً لذوقها. وبقيت هي تقول "خلينا نتجوز".

٥٤

لا أدري لماذا ذكرني المعلم يوسف وهو على بابي بفرخ غراب نقف حديثاً. كان يفتح فمه بدون أن يخرج صوتاً وكأنه يكافح ليتنفس ويفتح عينين شبه مذعورتين على وسعهما. بدا مجعلكاً ومنبوشاً بل ومنكمشاً حتى خيل إلي انه فقد من حجمه. ظل واقفاً وقتاً أطول من المعتاد أمام الباب و لم يستجب لدعوتي إلى الدخول إلا بعد وقت، فهمت خلاله أنه ليس واثقاً من انه يريد أن يدخل، بل وصل إلى بيتي بدون أن يكون واثقاً من رغبته في المجيء. كأنما وجد نفسه أمام بابي، كأنما فاجأته أنا بوقوفي في الباب. خلت أنه سيهرب إن أنا ألححت عليه، لذا تركته يقرر وبالفعل بدا أن لا طاقة له على التفكير، ولكي لا يطيل هذا العجز دخل فجاةً بسرعة حتى قبل أن أتنحى له، لكنه وقف فجاةً في الصالون قبل أن يذهب ويلقي نفسه على كنبة ما لبث أن غادرها، كأنما انزعج من كونها لشخصين، وانتقل إلى كنبة منفردة، يملأها بنفسه أو يتحصن بها. لم يكن المعلم يوسف من زواري، حضر إلى بيتي حين ركّب لي الزجاج. الآن يبدو عليه انه نسي ما جاء من أجله، أو اكتشف فجاةً لاجدواه. بقي جالساً وسألته إذا

كان يفضّل القهوة أو يشرب قنينة باردة وتهيات للدخول إلى المطبخ. لم يردّ وعندما رآني أتحرك قال بصوت مبحوح إنه لا يريد شيئاً. لم ألحّ عليه ففي صوته كان هناك ما يشبه التوسل. جلست على كنبة جنبه ونويت أن لا انتظر أكثر، ان أساله عمّا به. لكنني أيضاً لم يواتني الكلام بسرعة، لذا ابتلعت لساني وبقيت برهة في الحيرة. ثم التقطت أول عبارة خطرت لي:

– مبيّن مش على بعضك. متضايق. ايش بك فيه شي؟

سؤال أوقعه هو أيضاً في الارتباك. بقي وقتاً يفكر. كان يطبخ الجواب في رأسه، وأخيراً بدأ من اي مكان:

– طلعت.

سألته "مين طلعت؟" لم يسبق لي أن سمعت هذا الاسم.

– طلعت تلميذ الصنايع اللي حكيتلك عنو. لمينا ميت دولار من هون وميت دولار من هون واشترينا صحن لاقط.

بدأت أتذكر حكاية الصحن اللاقط التي غابت تماماً عني. كنت شريكاً في الحكاية فقد أعطيت المعلم مئة دولار وسألته:

– ايه تذكرت. اشتريتوا الصحن؟ ايه شو صار؟

– شو صار؟ شو ما صار؟ هيذا طلعت، فكرتو عالم، ايه عالم. كان الأول بالمدرسة ولو ابوه عندو مصاري كان عمل مهندس. بيو، كان لازم اتذكر بيو. بيو كذاب كبير. كان لازم أعرف أنو بيطلع لبيو، هوي كمان كذاب كبير. قال لي إذا فيه صحن لاقط بيصير فينا نلقط الأرواح، قال لي أنو عندو طريقة. جبنا الصحن. ركبناه على سطح المحل. اختلفنا نحنا وسكان البناية لسمحوا لنا نركّبو. ركّبنا وقعد

هوي يشتغل فيه. اسبوع ورا أسبوع أخيراً ما طلع معو شي. بس هوي كذاب متل بيو. حطني قدام الشاشة ودوّر التلفزيون. صرنا نشوف ذبذبات على الشاشة. قال لي هوذي الأرواح. فهمت أنو عميضحك عليي. كذاب متل بيو.

لا أعرف لماذا طغى علي شيء يشبه الضحك. حاولت أن أمسك نفسي. لكن ضحكة عالية فرقعت مني. نظر إلي المعلم يوسف مذعوراً. لقد جاء إلي ليسري عن نفسه وربما كان ينتظر مني تعاطفاً أكثر. لم أستطع أن أمسك نفسي عن الضحك، ضحكة تجر أخرى والمعلم يوسف شاخص إلي، ثم بدا له أن يشاركني الضحك، لكن طفرت منه ابتسامة باهتة وعندها أحس بالمفارقة التي نحن فيها وازداد ارتباكه. فجأةً وقف ومن دون أن يقول كلمة انطلق إلى الباب بعجلة وفتحه بعنف وخرج. رافقته وخرجت وراءه. نزل الدرج، وحين صار في الطريق وقف فجأةً ونظر إلي وأنا فوق الدرج، واستدار وانطلق من جديد.

٥٥

لا أعرف كيف أعادني منظر الأقحوان وشقائق النعمان على كتف التلة إلى دفاتر الخط التي رسمت عليها الحروف في سنوات الدراسة الأولى وإلى أول ساعة يد اشتُريت لي بمناسبة نيلي الشهادة الابتدائية. كنت أجتاز الرويس في طريقي إلى بيت عدنان عليان. رأيت الأزهار ذاتها نامية بين أشجار الحديقة وفهمت بعدئذٍ أن روزيت أوصت الجنائني بأن لا يقتلعها. أرادت أن يبقى شيء بري في المكان. نادوني من الصالون العائلي أن أصعد. كان عدنان ممدداً بطقم صيفي مقلّم على كنبته الطويلة، بينما لبست روزيت ولين بنطلوني جينز أزرق لروزيت وبني للين مع بلوزتين قصيرتي الكم أظهرت أن لهما نفس البشرة الحنطية المتوردة. كانتا قبالة الواجهة الزجاجية مغمورتين بالشمس. أصررت على عدنان أن يبقى ممدداً وصافحت روزيت ولين. احسست أن الجميع ماثلون لهذا النهار الربيعي. وجه عدنان الذي بدا وكأنما نقصت تجاعيده ووجه روزيت الذي بدا صبياً في موازاة وجه لين الذي اكتسب نضجاً أنثوياً، بالإضافة إلى ذراعي روزيت وذراعي لين المكشوفتين بحيث تراءى لي أن النهار يمر بينهما.

سألتني روزيت منذ جلست إذا كنت أفكر بأن الحرب عائدة، الصراع السياسي الحاد يضعنا، في رأيها، على حافتها. أجبتها بأنني لا أعرف متى تأتي الحرب، إنها تبدو وكأنها حدثت فجأةً، فجأةً وغالباً عندما نتوقف عن توقعها. إن لها بالتأكيد أسبابها ولكن الأسباب نفسها لا تكفي لتصنع حروباً، أحياناً تفكر بأن الحرب تخترع أسبابها، الأسباب عندئذ تكون لاحقة عليها. لكن بالتأكيد الحرب استثمار، هناك من يريدونها كذلك. الحرب استثمار، وقفت روزيت عند هذه العبارة كرّرتها، الحرب استثمار.

– ايه الحرب تجارة، فيه ناس بيبيعوا وبيشتروا فيها، ما بنعرف مين اشترى ومين باع، يمكن كلنا بدون ما نعرف بعنا واشترينا، مين بيعرف. حتى الخسرانين بيكونوا باعوا واشتروا. بس جلال ما هيئتو لا باع ولا اشترى.

أتبعت كلامها بضحكة، لم أعرف ماذا كانت تقصد، إذا كانت تقصد أكثر مما قالت، حتى عدنان بدت على وجهه الحيرة، وردّ بجفاف:

– لأ مش كلنا. في غير جلال كتار ما باعوا ولا اشتروا.

سمعت عدنان وعادت إلي فوراً صورة النار تندلع وسط المركب. انتهت الحرب عند الرصاصة التي خرقت رأس عدنان عليان وعند المركب الملتهب، النار التي في وسطه باقية كرصاصة في رأسي، المركب الذي أفرغ كل البضائع المهربة على مرفأ الأوزاعي. لم يسعدني ان تجهل روزيت كل هذه القصة، خفت من أن أكون بريئاً في نظرها إلى هذا الحد، بدا لي كأن هذه هي كذبتي أنا. عدنان بالتأكيد يعرف

كل شيء وإذا غطى علي فلكي يغطي أولاً على نفسه، شعرت الآن أني شريكه في ذلك، بأنه جرّني إلى أن أتواطأ معه. ظننت ان مع المركب المحترق احترقت كل المسألة، منذ صرت في الصنوبرية لم أفكر بها، طردتها من رأسي تماماً، قررت أن أبدأ من صبحية. لكن هذا الحديث أثار ذعري، ردني إلى القصة التي حسبت أني نجحت في صرفها، بل وفي خنقها كأنها لم توجد أبداً.

غادرت بيت عدنان وأنا أفكر بأنني لن أعود إليه. لن تكون لي بعد طاقة على ذلك. أدركت أنني بدون أن اقصد حبكت خديعة للجميع، إن هذه الخديعة واهية للغاية، إنها ربما ستنكشف بمجرد أن أدير ظهري وأخرج، ربما سيحدثهم عدنان عن حقيقة هذا الذي لم يبع و لم يشترِ. إن كان سكت إلى الآن فمن أجل أن يبيض ماضيه بي، لن يسكت إذا شعر ان هذا تجاوز الحدّ، اي كنت أتبرأ على حسابه.

كنت اتعثر طوال الوقت بافكاري لكن قدمي حملتاني أخيراً إلى البيت الذي لاح لي من بعيد مضاءً. ما إن أدخلت المفتاح في القفل حتى انفتح الباب من تلقائه ووجدت صبحية على الباب في ثوب أبيض تراءى لي أنها فيه كالعروس. كانت أعادت ترتيب الصالون ووزعت الكنبات على زاويتين، واشترت لمبادير نصبته وسط الصالون. أرتني ذلك وهي تؤشر بيدها ولا تكف عن الكلام.

قالت إن طقم الكنبات شاخ وعتقت موضته ولا بد أن نستبدله بعد سنة. قالت إنها لم تدفع ثمن اللمبادير واشترته على حسابي. أفرغت ما عندها من كلام وسكتت فجأةً ونظرها متعلق بي. كانت ترقب باهتمام ما سأقوله. لكني لم أفه بكلمة. راق لي الترتيب الجديد لكني

لم أعلق، فاتني أن أقول شيئاً. سكوتي كسف حماسها فبرد وصارت تسرد، بدون انتظام، يومياتها في الأيام الثالثة الأخيرة التي لم نلتقِ فيها. دخلنا معاً إلى غرفتي فوجدت باقة شقائق في زهرية على طاولتي، استعادت حماسها حين لاحظت غبطتي بالأزهار. قالت وهي تشير إلى السرير إنه لم يعد يكفي وإنها ستوصي على واحد آخر لنا. هذه المرة لاحظت أنها تتكلم عنا معاً أنا وهي. لكني ايضاً لم أتكلم، لم أجد ما أقوله، حتى بعد أن اعادت بأن علينا أن ننزل إلى صيدا ونوصي على سرير آخر، رسمت ابتسامة على فمي و لم أرد.

٥٦

بعد عامين من زواجنا ولدت هدى. ما إن رأوها حتى قالوا إنها تشبهني. كاميليا قالتها وكأنها تمنحني هدية، كأني أنا الذي ولدت من جديد.

لم أفهم كيف أمكن بمجرد النظر إلى هذه الكتلة اللحمية معرفة مستقبلها، لم أفهم كيف أوجد فيها، أوجد سراً أو كسرٌ في هذا الشكل العجيني. ما إن حملتها حتى خفّ شعوري بهذا التباين. هذه المضغة التي خرجت بعد حبس تسعة أشهر، ولا تزال رطبة من السائل الذي رقدت فيه، تبدو على أيدينا وفوق صدورنا حائرة بين النبات والحيوان والبشر وقادرة على التحول بينها جميعها. ورغم أنها لا تتكلم إلا أنها تعيدنا إلى الإصغاء للعالم وسماعه كإشارات ورموز وتحسسات. كاميليا كانت تكلمها أكثر مما تكلمني وغالباً أفضت لها بكل ما في صدرها، استودعتها أدق أسرارها وأخفاها، كانت تصب نفسها فيها، كنت أسمعها وهي تحكي لها. انا انزهها والاعبها واغني لها لكني بالطبع لا اكلمها. كنت أحياناً لا اصدق أنها من لحمي ولا أثق بأن معجزة كهذه من صنعي، لكني وأنا أحس بصدرها على صدري

أخاف ان تكون ضيفة من السماء. أفكر أن كل طفل يمكن أن يكون إلهاً زائراً. أخاف أن يكون في يدي هذا السر الذي في استطاعته أن يطيح العالم ويقتلني.

لم أكن اشتغل، كان أهلي يرسلون ما يكفي. كنت حزبياً مواظباً، اصل إلى مكتبي في مركز الحزب التاسعة صباحاً وأمضي فيه إلى الثانية بعد الظهر، أفعل ذلك بدقة موظف وأمضي فيه دوام موظف، لم اكن جامحاً بأي حال. ليس الحماس ولا الشغف هما باعثي، كنت منضبطاً، يكفيني أن ألتزم لأستمر. لا أطرح أسئلة صعبة ولا أحتار كثيراً ولا أراجع ولا تثنيني الخسارة ولا أسرع إلى الخيبة أو اليأس. كان عملي في الحزب يوازي حياتي، مثل حياتي لم اكن اتوقف لألقي أسئلة عليه، مثل حياتي أقبله بما فيه، أعرف بالطبع خفاياه وأرتاب في جزء منها والمنى لو لم يكن، لكنها الحياة بخفاياها وأسرارها ودواعيها ومشاكلها.

إنها الحياة لا عودة فيها إلى الخلف ولا مناص من التقدم إلى أمام. هكذا هو الحزب نولد مجدداً فيه، وليس لنا بعد الولادة إلا أن نتابع. إنه عقد لا رجعة عنه، قد يستمر طول العمر، قد يغدو الحياة نفسها. إنه طريق اخترناه وعلينا أن نكمله. كنت بالطبع أستاء أحياناً واحتجّ أحياناً، لكن ماذا أفعل بالسنوات التي أفنيتها بالحزب، السنوات الطويلة التي استثمرتها فيه؟ ألم يكن مشروعي واستثماري وخارطة حياتي؟ ماذا أفعل بكل ذلك؟ ألقيه إلى المجهول، أهدره وأستغني عنه؟ أكون عند ذلك بددت حياتي ونثرتها هباءً، أكون عندئذٍ لست أكثر من لا أحد، ضيّعت اسمي وهويتي اللتين جعلتهما في عهدته. لم يكن

اسمي يعنيني إلا بقدر ما هو في الحزب. لم تكن هويتي تعنيني إلا بهذا المقدار. إن أنا تركت الحزب لن ينفعني عندئذ اسمي ولا هويتي، أكون كمن ألقاهما للريح. بل أرجع إلى حياتي، فأجد أني تزوجت في الحزب وأنجبت في الحزب وصادقت وعاشرت في الحزب، وإذا خرجت من الحزب سيكون كل ذلك بلا معنى. في الحزب انبنت حياتي كلها وإذا تركته لن يعود في وسعي أن أعتدّ بشيء. لن يكون لي ماض ولا ذاكرة ولا عائلة ولا محيط. أعرف أشخاصاً تعبوا وانفضّوا عن الحزب واشعر اين صاروا، كأنهم لم يوجدوا، كأنهم لم يراكموا شيئاً و لم يبنوا شيئاً. كنت أقول هذا لنفسي كلما ساءني شيء في الحزب، وطالما ساءتني أشياء فيه، لكني لم أجسر على أن أترك. كنت أخشى أكثر من ذلك. أخشى إذا تركت أن ينقلب علي القدر وأن أمنى بكوارث وأن تحيق بي مصائب، أن أمرض أو أموت، أن ينهار علينا البيت أو أفقد كاميليا وهدى في حادث. لا يستغرب أحد هذا، فالحزب مع الوقت يغدو هو القدر وهو مبتدأ الكون وهو مستودع خوفنا وقلقنا الوجودي، ولا يفرق بشعرة عن الله نفسه.

٥٧

بشير يدعوني بالتلفون إلى موافاته في مكتبه إذا كان عندي وقت. منذ صار في المكتب السياسي قلّت لقاءاتنا. في المكتب صار أميناً للمالية تحت يده أملاك الحزب التي كانت تتناقص، ففي حومة الحرب كان أعضاء يستقلّون بما عُهد إليهم. أراض وصيدليات وتعاونيات ومطاعم اقتطعت من الحزب واستولى الأمناء عليها. لم يبقَ كثير في عهدة بشير لكن الأهم كان صلته بحزبيين قدامى صاروا مع الوقت أثرياء أو متمولين يعتبرون أنفسهم أصدقاء للحزب. أغلبهم من الذين يستوردون من بلدان في المعسكر الاشتراكي. كانت هذه الشريحة نواة البورجوازية الوطنية التي هي نظرياً ركن في تحالف الحزب، وعلى الحزب كذلك أن يجدها أو يخترعها. بشير منذ صار مسؤولاً مالياً صار هذا معشره، واختلف من ذلك الوقت أسلوب حياته، صار أحرص على أن يكون رسمياً في ثيابه وبات له سائق خاص وبدّل سيارته الصغيرة بمرسيدس. لقد صار فرداً من هذه البورجوازية الوطنية التي لم يكن لها غير وجود نظري.

تركت مكتبي وتوجهت إليه. استقبلني بطقم تيرغال رصاصي

وصديرية رمادية وربطة عنق نبيذية. كان في جيب سترته منديل مطوي أحمر وفي يده سلسلة ذهبية. لقد بدل المكتب المقشر القديم بآخر من خشب الجوز وصفّ حوله كنبات جلدية، على الجدار المحاذي مكتبة فوق واحد من رفوفها تمثالان نصفيان لماركس ولينين. في الزاوية علم تتوسطه أرزة محاطة بمنجل ومطرقة. لم تكن هذه في الأغلب فكرة بشير، لقد سلموه المسؤولية ومعها المكتب. حين دخلت وقف واحتضنني وربت على ظهري. كان بشير الذي أعرفه وإن بدا غريباً في ثيابه التي اجتهد بالتأكيد ليجعل جسده ملائماً لها. لا أشك أنهم وضعوا في اعتبارهم وسامته وشبابه حين اختاروه لهذه المسؤولية. كان له مظهر ابن نعمة لكن عليه أن يتعلم كثيراً ليستحقه ويستحق معه هذا المكتب الأنيق. شممت من ثيابه رائحة التخزين الذي لم يتهوّ بما يكفي، بينما كانت رائحة الدهان الحادة تتسرب من خشب المكتب. فكرت أن هذه رائحة الأكذوبة لا تزال منبعثة.

قلت لبشير إنهم مهما فعلوا فإن رائحة الفقر ستبقى فيه. ضحك بشير بكل جسده وقال إنه ليس الوحيد الذي في ورطة فأنا معه فيها. سيجعلونني صاحب مركب وسأصبح أنا أيضاً بورجوازياً وطنياً. قال إنه دعاني لهذه الغاية. المركب الذي تسلمه الحزب من عامين، أي من أول الحرب، استعمل في البداية لحمل السلاح، لكن هذا لا يكفي. في الإمكان شحنه ببضائع أخرى، تبغ وأدوية وشوكولا وملابس. وضعوا المركب في عهدة الرفيق سليمان الذي قام بها بأمانة لكن الرفيق، لا نعرف لماذا، قرر أن يترك الحزب وأن يسافر إلى ساحل العاج ليعمل مع أخيه. أعاد المركب إلى الحزب ومنذ ذلك الوقت

وقع المكتب السياسي في حيرة. وبناءً على اقتراح بشير اختاروني أنا لأتسلم المركب ودعاني بشير ليبلغني.

احترت فأنا لم يسبق لي أن اشتغلت. أنا متفرغ في الحزب لقاء لا شيء، لم أقبل أن اتقاضى اي مبلغ لقاء تفرغي. عرضوا علي ذلك أكثر من مرة، كنت أعتاش من أهلي وهم يغدقون علي، لم أفكر في يوم أن أكون أجيراً في حزبي، كنت أصرف كل وقتي فيه لكن بدون أجر، لم أقدّر كثيراً عملي لكني لم افكر أنه يمكن حسابه بالنقود. لم أكن حراً فيه إذ لم أحاول في يوم أن اتهرب أو آخذ إجازة. انضباطي كامل لكني مع ذلك لا أشعر باني مرغم. كوني أعمل بلا ثمن جعلني لا أفكر البتة بقيمة عملي، كان هذا بحد ذاته يجعل لعملي قيمة بدون أن أفكر بها. أما حين يغدو لعملي مقابل نقدي، حين يحسب بكذا وكذا من النقود فإنه لهذا السبب وحده سيكون بلا قيمة، لن يكون عندئذ سوى المبلغ الذي اتقاضاه عنه. طالما سخرت من هؤلاء الذين يؤجرون وقتاً من الصلاة نيابةً عن متوفين فاتهم أن يؤدّوه في حياتهم، حين أؤجر عن عملي الحزبي لن أكون عندئذ أفضل من باعة الصلاة هؤلاء. كنت حراً حين أعمل بلا ثمن وبثمن سيكون العمل خسيساً، إنه سبيل لاسترخاصه والانتقاص منه.

لم أقل هذا لبشير الذي كان متفرغاً باجر. قلت له فقط إنني لا أصلح لهذه المهمة، ليست لدي خبرة ولا استعداد، أنا مرتاح في عملي الحزبي فلمَ لا يجدون لهذا المركب شخصاً غيري. بشير قال ولكن المكتب السياسي قرر. إنه مركب يا جلال ولا نستطيع أن نرميه لأي كان. تعرف ماذا فعلوا بأملاك الحزب، سلبوه إياها بلا أي اعتبار. الخبرة تأتي مع الوقت. لا تستطيع أن ترفض. هذه المهمة لبستك وليس

لها غيرك، الأمين العام قال هذا قرار غير مسموح بالمراجعة فيه لكنه مع ذلك راجع، قال أنت رفيق ممتاز وتقدر أن تخدم الحزب حيث يحتاجك. لنا ثقة بك وبقدرتك.

كنت بالطبع أستطيع أن أقول لا، لو وقفت عندها لأذعنوا. لكن "لا" كانت كبيرة علي. ليس في وسعي أن أصل بالأمور إلى هذا الحد، لا أقدر أن أجزم في مسألة بهذا الحجم وفي وجه هذا العدد من الأشخاص. أحياناً تكون "لا" كالصفعة وأنا لا قدرة لي على أن أصفع أحداً، أنا أكثر حياءً ومداراةً من أن أفعل هذا. كان الانضباط الحزبي بدأ يتراخى مع الحرب وصار على القيادة أن تفاوض، لكن الأمين العام حين يفاوض فإن كلمته هي الحزب، ولا ينبغي أن يربح أحد على الحزب.

لم يكن في نيتي أن أرفض، كنت أماطل فحسب. منذ قبلت، أو استسلمت اختفى الحزب، تركني مع سليم قبطان المركب. كان أشقر أخضر العينين طويلاً كالشمعة، صاحب لغات وله على المائدة سلوك أرستقراطي، أي أنه كل شيء إلا أن يكون بحاراً. بحارته أنيقون دائماً، مفوهون، وأقرب إلى أن يكونوا رجال أعمال. على الغداء أفهمني سليم أنهم لا يستطيعون أن يحركوا إصبعاً قبل الاتفاق مع مافيات المرافئ. كانت عيناه في صحنه وهو يقول ذلك وهو يقرره كأنه أمامه في الصحن. حين نقلت ذلك إلى بشير قال لي، وكأنه يروي فكاهة، إنهم تقريباً استولوا على المركب، سليم وبحارته، لكنهم ما زالوا يعترفون بسلطة اسمية للحزب. التفت وهو يقول ذلك إلى الأرض كأنه يريني موقع هذه السلطة، إنها واهية وليس أسهل عليهم من إنكارها، لنحذر من أن ندفعهم إلى ذلك. فهمت أن وجودي سيكون أيضاً اسمياً، حاذرت

لذلك حتى من زيارة المركب. صرت أكتفي بلقاءاتي مع سليم. فهمت أنهم شحنوا المركب تبغاً فأسلحة فعلب خضار فثياباً من قبرص واليونان ويوغوسلافيا وفرّغوه في الأوزاعي (وهو مرفأ غير رسمي بلا جمارك). كانوا مهربين لكنها الحرب والتجارة كلها تهريب ومن كل المنافذ براً وبحراً بما ذلك مرفأ بيروت الرسمي. فهمت أنهم أحالوني تقريباً على التقاعد الحزبي. كان سليم وبحارته يصرّفون أيضاً البضاعة ويعقدون لذلك اتفاقات مسبقة، في النهاية يرمون في يدي مبالغ ضئيلة، يقول سليم إنهم يدفعون للمافيات وما يبقى بعد ذلك ضئيل. بشير أخبرني أن سليم اشترى شقة جميلة وأمام بيته عدة سيارات له ولزوجته وابنته الكبرى، لكنه أوصاني بالهدوء والتجاهل.

سنة بعد سنة واصلت يوماً بيوم دوامي الحزبي في المركز. بقي لي مكتبي أشغله بلا مهمة. سوى ذلك اللقاء مع القبطان سليم بعد كل شحنة لم يعد لي ما أعمله، لم أكن الوحيد المتبطل في الحزب، سواي كان هناك عشرات بل مئات، النشطون قلة تتوزع على بعض مراكز فيما الآخرون يكتفون بالاجتماع الأسبوعي. لا أعرف لماذا وضعوني جانباً، كنت في سبيلي إلى المكتب السياسي حينما أسندوا إلي هذه المهمة، لا أعرف إذا فعلوا ذلك بقصد، إذا ارادوا أن ينحوني. لم أكن طموحاً ولا أنافس، الحرب فتحت الطريق أمام الشبان وكنت عندها شاباً والجميع فهموا ما يُرسم لي، والحقيقة أنني صعدت في الحزب درجة درجة في وقت قياسي. لم يكن بيني وبين المكتب اكثر من خطوة حينما أخرجت من الحلبة. في البداية ضجرت، لم أكن معتاداً، كنت أشغل نفسي بالكثير ولا أطيق ساعة فراغ، ارتعت من الفراغ الواسع الذي صار. جعلني هذا

أتعثر بنفسي وصرت غضوباً، تجرأت على السخرية من أعضاء المكتب وشيئاً فشيئاً نشأت حزازة بيني وبينهم حتى بشير، وخاصةً بشير، لم اوفره. كان هو الذي ألقى بي في هذه الورطة و لم أسامحه. لا بدّ أن هذا نُقل إلى بشير وإلى المكتب، كانت النميمة والتلصص موازيان للعلاقات التنظيمية. التوجس والشكوك والحذر كانت في أساس الطبع البوليسي للحزب، الطبع الذي ربما تحدّر إليه من الأشقاء في المعسكر الاشتراكي، ربما تحدّر إليه من الأصل الفلاحي لكثير من قيادييه. لم أكن بالطبع حزبياً عادياً، لذا طارت سخرياتي وانتشرت بسرعة وتنوقلت في الحزب، صرت هكذا خصماً للمكتب. أما أنا، الذي كانت تفلت مني هذه السخريات بدون تصميم، فقد وجدت فيها وفي الخصومة المستجدة وغير المفهومة للمكتب ما يملأ وقتي. لقد وجدت نفسي بدون قصد خصماً للمكتب وصار هذا فيما بعد مهنتي في الحزب. لم أكن بطبعي متمرداً، كنت صاحب تسويات وأخاف، بل ترعبني، الخصومة. لكنني صرت بالنسبة للمحتجين في الحزب رمزاً. كانوا يقصدونني في مكتبي في المركز وتعلو قهقهاتهم وأصواتهم إلى درجة أخافت المكتب السياسي الذي ظنّ أن شيئاً ما يدبر في مكتبي فإذا بي أفاجأ بقرار بإغلاقه. أصل ذات صباح فأجدهم بدلوا القفل وأدير فيه مفتاحي فيبقى موصداً، لقد طردت من المركز. هذه خطوة لا بد ستتبعها خطوات، انتظرت محاكمة حزبية لكن بشير هو الذي اتصل بي. لما دخلت إلى مكتبه وجدته بكامل اناقته، طقم بني مقلم وصديرية وربطة عنق، لكن الذي لاحظته أكثر حمالتا كتف حالا دون أن تظهر استدارة بطنه ونظارتان بزجاج ذي لون دخاني.

كان بشير غاضباً لكنه لم يبادرني. سقطت حاملة مفاتيحه فانحنى يلمها وقبل أن يرفع راسه رد تحيتي بنصف صوت، وحينما علا رأسه من فوق الطاولة رسم على فمه ظل ابتسامة. جلس خلف طاولة المكتب فيما أشار إلى كرسي أمام المكتب طالباً مني أن اشغله. كان هذا الوضع الأنسب لمحاكمة حزبية، كنت أجلس في كرسي الاتهام. لم ينتظر بشير، سحب ورقة ونظر فيها وبدأ يسرد سخرياتي من الأمين العام ومنه ومن المكتب السياسي، أي الـ"تفاريش"، اللفظة الروسية بمعنى "رفيق" كما كنت أطلق على أعضاء المكتب. دخل الأمين العام وسط كلام بشير وجلس قريباً منه، وانتظر إلى أن انتهى من مضبطة الاتهام وتبعه بدرس نظري عن الطاعة الحزبية ومبادئ المركزية الديمقراطية. ارتقب الاثنان جوابي. في هذه الأثناء دخل عضوان آخران من المكتب السياسي وجلسا جنب الأمين العام، كانت المحكمة تكتمل بالتدريج. لم أجبه رغم أن بشير طلب مني أن أجيب، لم أعرف ماذا أقول. كنت عند نفسي أنكّت. لا أعرف متى أفلتت مني النكتة الأولى التي أبهجتني أنا قبل الآخرين، انفتح لي باب من الكلام لم أكن ادري به، لا أعرف سبباً لاسترسالي في هذه النكات سوى هذه البهجة. لم يكن لي أي غرض سياسي. حين كنت أقول عن "تفاريش" المكتب السياسي أنهم أكياس بطاطا وأنهم يحتفظون في غرف رؤوسهم بمشاوي دجاج ينامون على رائحتها، لم أكن أقصد شيئاً سوى بدانتهم وحبهم للطعام. لم يعنني إطلاقاً هذا الحديث عن الطاعة الحزبية، إنهم يتهمونني بآثام لا قبل لي بها، لست قادراً حتى في داخلي على إنكار الحزب وإنكار الأمين العام. بمن اعترف إن أنا أنكرتهما؟ كانا ضروريين لوجودي،

سخريتي كانت تأكيداً مبطناً لهذه الضرورة، كانت ضيقاً بفرط الإيمان وفرط اليقين، كانت ممازحة للنفس، لكن ها أنا أمام محاكمة لمجرد أني مزحت. هذا غير لائق بالحزب، الحزب إذاً يخاف مني، يخاف من كل كلمة تقال، يخاف من مزحة، كيف يمكن أن يكون ضرورياً وهو بهذا الخوف. لم أجب، لكن لكي لا يبدو صمتي مشبوهاً قلت إنني كنت فقط أمزح. الأمين العام قال إن هناك حدوداً للمزاح، هذا ليس مزاحاً، إنه تخريب. لم أكن عند نفسي قادراً على تخريب اي شيء، لكن الأمين العام بدا ضعيفاً والحزب بدا ضعيفاً وكنت أنا الذي لا أثق في قوتي، قادراً على تخويفهم. لم يسرني ذلك، أزعجني، كما لو كنت فقدت ذراعي، كما لو كانت العناية هجرتني. الحزب الذي كان بالنسبة إلي ساعة مضبوطة بدا سخيفاً، كانت المحاكمة مضحكة. حين كنت أسخر من بدانة أعضاء المكتب السياسي، كان هذا أشبه بالضحك من بدانة بوذا. حتى في هذا كان الأعضاء يتميزون بصفة غير بشرية، أما الآن فهم يبدون بشراً محدودين، كيف يمكن أن نصدّق أن الأمين العام أكثر من إنسان عادي.

بعد ذلك تناوب عضوا المكتب اللذان كانا متجمعين جنب الأمين العام على الكلام. سألني أولهما وهو يكاد يشرق بكلامه إذا كنت مندساً في الحزب، التقط الثاني الكلمة وقال إن من المحتمل أن أكون في السي إي إي. كان العضوان شابين وجديدين في المكتب السياسي وها هما يستعيدان الكلام الذي مضغته قبلهما أجيال في الحزب. أنهى الأمين العام بالقول إن هناك أموراً فوق المزاح. كان كل ما سمعته بلا طعم ولا يستحق مزاحاً. نهض الأمين العام فنهض معه الجميع،

بقيت وحدي جالساً، لقد انتهت الجلسة. قال لي وهو يهم بالخروج "أكتب نقد ذاتي. بعدين بنشوف". لقد انتهت الجلسة. سار فمشى معه الجميع. حتى بشير صحبه وخرج معه. ثم عاد بعد قليل مستعجلاً ورمى نفسه على كرسيه وتشاغل بأوراق ثم رفع بصره عنها وقال لي "المركب، المركب لازم تسلّمو".

دعوت سليم القبطان إلى لقاء في مقهى "الروضة" البحري. العاشرة صباحاً ذهبت فوجدته ينتظرني. لا بد أنه بكّر فقد كانت أمامه نارجيلة وصبي المقهى منحنٍ عليها يزودها بجمرة. كان بربطة عنق وكاسكيت. نهض من بعيد لاستقبالي مشيراً إلى أن مكانه على رصيف جانبي يطل على البحر.

بقي واقفاً إلى أن وصلت. كان البحر هائجاً تعربد أمواجه وتنطح الحاجز وتقفز عليه وتتحول فوقه إلى مروحة منشورة من رشاش أبيض. جلست أنظر إلى الموج فيما سحب هو أنفاساً من النارجيلة. سألني وهو يخرج مبسم النارجيلة من فمه عن الحزب، كانت فرصتي لأقول إن بيننا مشاكل، لم يبد على سليم أنه تفاجأ، شد على المبسم بيده وقال إنه سمع بذلك. قلت له إنهم يريدونني أن أرفع يدي عن المركب. لم يبدُ عليه أنه سمع، التقم المبسم وثبت نظره على رأس النارجيلة. أعدت ما قلته فرفع يده ولوح بها في الهواء وكأنه يطرد دخاناً وقال بصوت رتيب:

– وهني شو دخلهم بالمركب؟

لما لاحظ أني جفلت لجوابه سألني:

– ليش، مش مسجّل باسمك المركب؟

– مبلى.

– ما بدها سؤال. المركب إلك، يروحو يبلّطوا البحر، المركب إلك ونحنا بنظل معك، يفرجونا شو فيهن يعملو.

خطر لي هذا بالطبع، لكني لم أرد أن أسرق الحزب، طالما نددت بمن سرقوه، لكن سليم لم يعتبر ذلك سرقة، اعتبره حقاً. قال "المركب إلك"، لم يقل سرقته. لم يكن في نيتي الاستيلاء على المركب، لأصل إلى قرار كهذا يلزمني تفكير طويل ومعركة مع نفسي. لكن سليم هوّن الأمر، ألقى ماءً بارداً على بلبلتي. قرّر عني. قفز على مراحل من التردد والتشويش وقال الكلمة الأخيرة. بعد هذا الكلام لن أحتار. سمعت من داخلي الكلمة نفسها "المركب إلك"، إنه لي، أنا الحزب. القبطان والبحارة سيبقون معي، إنه لي.

كنت سمعت بأنهم يدسّون بين علب التبغ المشحونة في المركب علب التبغ أو علب المحفوظات الغذائية أو علب البيرة أو حتى بين الخضار بضع وحدات محشوة بالهيروين، والكوكايين. شحنة كهذه لا تمر إلا بتواطؤ مع المافيات التي تجعل المباحث تغضّ النظر. عندما سألت سليم عن ذلك قال إن كل حروب العصابات تتمول بتهريب المخدرات، لا بد أنهم في الحزب يعلمون بذلك، كان الأمر هكذا من الأول وسيستمر. مع ذلك فإن تهريب المخدرات أقلقني، جعلني هذا أحس انني أتورط في امر فادح، أنني لست كفئاً لمسألة كهذه، انني أضع نفسي أمام الخطر، امام احتمالات فوق طاقتي.

استعيد الآن صورة المركب المشتعل، النيران التي تأكل المركب كانت بمعنى ما تحررني، تطفئ قلقي.

٥٨

لا أعرف متى بدأت علاقة كاميليا بعصام، إلى الآن يصعب علي أن أصدق أنها أقامت علاقة معه. عصام رغم قامته الطويلة وكتفيه العريضين يكاد يكون غير مرئي. إنه صامت صمتاً شبه مطبق ولا يشارك في الجلسة حتى بعينيه أو بأمارات وجهه، وبعد وقت ينساه الجميع فلا يعود أحد يتوجه إليه بشيء. حينما التقينا به في بيت سليم كان وحده على الكنبة والجميع في الناحية المقابلة منهمكون في الحديث ويقاطع بعضهم البعض الآخر. لا أعرف ما الذي جذب كاميليا فراحت وجلست جنبه. بعد قليل لاحظت أنها تتكلم كالعادة بفمها وعينيها وإشارات يديها بينما هو يدير لها وجهه ويحرك شفتيه أحياناً ويبتسم لها. أمضيا السهرة منزويين هكذا فيما استمر الآخرون في عجقتهم. بعد ذلك صار عصام رفيقها الدائم، يلازمها في بيتها وفي زياراتها وفي تنقلاتها. يقرأ كتبها التي تختارها له ويحضر معها السينما ويستمع إليها ويجاوبها أحياناً فقد بقي قليل الكلام حتى معها. كان يبدو طوع يدها، تقرر هي عنهما، وكنت أفكر أنها رغم قامته تطويه في جزدانها كمنديل وتحمله في حقيبتها. كانا معاً دائماً.

كان ملكها بالكامل وحين خرجت من غرفتي في البيت وجدتهما في الصالون على الكنبة وقد أعطته شعرها وهي يجر إصبعيه فيه. بقيا على حالهما حين مررت قربهما وحين كلمت كاميليا أجابتني من تحت شعرها الذي بقي تحت أصابع عصام. فكرت عندئذ ببدايات علاقتنا، لكني طردت الشك من نفسي فعصام أليف إلى الدرجة التي لا يكاد يكون فيها رجلاً. كان ملكها كما يمكن أن تكون دميتها أو قطها، لم أفكر أن ما بينهما قد يكون أكثر من ذلك.

بعد أن ولدت هدى تركت كاميليا الحزب. هجرت أيضاً المخيم. كانت تمضي ساعات مع هدى وتكلمها حتى وهي في قماطها. تسرد عليها كل شيء، تصف لها وتخبرها وتنتظر منها أن تفهم، ظننت أنها هكذا استقرت، وجدت نفسها، صارت أماً. سرني أن يضيق عالمها هكذا، أن ينحصر في مهد هدى. طالما خشيت من فلتات كاميليا، من شعوري بصعوبة احتوائها. استمر هذا سنوات. الآن صارت هدى في المدرسة، خرجت من البيت، فرغ تقريباً منها. لا أعرف إذا كان هذا الذي أعاد كاميليا إلى المخيم، هناك تعلقت بواحد من الفدائيين. ظلت تكلمني عنه. تذكرت افتتانها بالشهداء، لكنها فجأةً سكتت ولم تعد تذكره بكلمة، لا أعرف ما الذي جرى بينهما لكني لم أستغربه. بعد ذلك تعلقت بواحد من الحزب، ابن حارة وأبوه بدأ صبي فرن ثم استطاع أن يمتلك فرنه، كان بالنسبة إليها ابن الشعب، وأحس هو بذلك فبالغ في تقليد عمال أبيه، لا أعرف أيضاً لماذا توقف فجأةً عن زيارتنا. أنا بالتأكيد لم أعد مَثَلها. صرت بالنسبة إليها رجل أعمال، شخصاً كأبيها لا أكثر. لكن الآخرين كانوا يسقطون أيضاً من عينها، لم

تكن تستطع أن تقولبهم. عصام لم يكن فيه ما يعترضها، كان كله لها، كأنه موجود من أجلها فحسب. في البداية لم أهتم، هناك دائماً شخص تختاره ليكون مرافقها. بعد زواجنا لم يعد أنا، صارت تجده غالباً بين أصدقائي. كنت راضياً بذلك لأنه يحررني من فلتات مزاجها، هكذا لا أعود أرتبك أمام إشارات طبعها التي لا تسامح من لا يفهمها. كنت في داخلي أرثي لمن تختاره، أعرف أنه سيكون في حرج دائم معها، سيسعى عبثاً ليلتقط مرادها، ليفك إشاراتها وستفور في وجهه مراراً لأنه لم يفهم. مع عصام لم أجدها في يوم غاضبة، كان يلتقط بسرعة أو أنها أشفقت من أن تعرضه لامتحانات صعبة، لا بد أن شيئاً من التواطؤ ساد علاقتهما من اللحظة الأولى. كان سلبياً بالكامل. ذلك يعني أنه صفحة بيضاء بالنسبة إليها أحبت أن تترك عليها ما تشاء. لم يكن في داخله ذرة مقاومة لأي شيء. إرادته لا تتدخل، خبرته لا تقف حائلاً، لذا كان أسرع إلى فهمها وإلى الصدوع لها. كان طفلاً ضخماً بلا ماض تقريباً، ولم يمانع أن تستولي عليه، أعطاها نفسه طوعاً وجعلها تحت سلطتها، لم يكن آخر إلاّ في حدود لذا سهلت مطابقته لها. لم أهتم في البداية، لم احسب أن فتاة في ذكاء ومزاج كاميليا ترضى بهذا الروبوت، لكن كاميليا اختفت ثلاثة أيام وحين عادت، لأنها اشتاقت إلى هدى كما قالت، صارحتني بانها كانت مع عصام، وحين وجدتني امتعضت وقلت لها باستغراب "عصام"، قالت إنه افضل منا جميعاً وألطف وأذكى. حتى هذه اللحظة لم أفهم لكني تحسبت. حين اختفت بعد شهر مرة أخرى مع عصام وقالت لي عند عودتها "لأنها اشتاقت إلى هدى" أيضاً أنها كانت معه. لم أتمالك

نفسي، صفعتها. عندئذ قالت لي إنها تحب عصام وتريد أن تعيش معه.

قلت أمتص الحادثة وأحولها إلى حساب صغير، أجعلها ورائي وأبدأ التفكير في ما بعدها. لكنني لم أستطع، كان هذا جديداً علي. وقفت كالسنّ في رأسي، لا أستطيع أن أبتعد عنها. كان هذا فراقاً إلى الأبد، دخلت في هذا الأبد من الآن، صرت عاجزاً عن أن أخرج منه، كدت أنشق من تفكيري، لم أستطع أن أتابع. درت على كل أصدقائها ليقنعوها بالعودة إليّ، اتصلت بوالديها، و لم تكن صلتي بهما حميمة، ليساعدا في إعادتها. مرت سنوات ولا أقدر على القول إنني شفيت. هذه الحادثة كانت بين مرحلتين، بين عمرين، أنا بعدها لست كما كنت قبلها، شعرت بنفسي تتفتت وكل فكرة تؤلمني. صرت أخاف من نفسي ولا أقوى على صدّ الهواجس التي تهاجمني. بقيت ليالي من دون نوم وإذا غمضت عيني استيقظ مصدعاً. زرت طبيباً نفسياً وأعطاني حبوباً كبستني تماماً وجعلتني أشعر بثقل لم أعهده. تغيرت فعلاً، خفت من نفسي، لم أعد أعرف ماذا تحمل إليّ. متى تشقها عذابات لا أعرف مصدرها ولا موضوعها. متى تلتهب نفسي من دون سبب. قضيت عاماً على هذا الحال، بينما كاميليا هجرتني فعلاً، وكل صباح أستيقظ متحسراً لأنني لحظة يقظتي افكر أنها الآن مع عصام.

٥٩

لم يكن عدنان عليان فاقداً وعيه حين حُمل إلى المستشفى، أصابه صداع مستمر وخارت قواه فحملوه إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت. حين نزلت إلى بيروت لزيارته وجدته خفّ صداعه وبدأ يستعيد قواه. كان منشرحاً وأخذ يتحدث عن كتابه القادم بل أوصى روزيت بأن تحضر له دفتراً وأقلاماً. أوصاني، أنا الأعلم منه بالنحو، بأن أصحح لغته. رغم انشراحه خطر لي أنه يتحدث عن كتاب ينشر بعد الوفاة. أيام وانهار. غرق في غيبوبة، قالت روزيت إنها فاجأت حتى الأطباء. قالوا إنه التقط فيروساً مميتاً من جناح العناية الفائقة. تلفنت لي روزيت الموهولة قائلةً: "ألا تريد أن تودع عدنان؟". نزلت فاستقبلتني روزيت ولين بالنشيج. وجدته بالكاد يلتقط أنفاسه والأطباء يائسون منه. حملوه بعد ذلك إلى الصنوبرية ودفنوه جنب قبة جدتي. تفرق المشيعون وصحبت روزيت ولين إلى الفيلا، نشفت دموعهما وهما ترشفان القهوة، عندها قالت روزيت إنه في الأيام الأخيرة ذكرني كثيراً.

قالت إنه أخبرها عن مركبي الذي أحرقته المافيا. كان هذا كل ما

رواه لها، كان مركبي فحسب، لم أسرقه من الحزب وأحرقته المافيا بدون المرور بحكاية المخدرات. تعجبت من أنه حماني أمام روزيت التي، بعد رواية عدنان، زادت إشفاقاً علي. كانت هناك عائلة عدنان، إخوته وأبناء عمه لكني عند لين كنت الوحيد الذي يستحق أن تسميه "عمو". حمل عدنان معه أعماله وأعمالي، شعرت أنني الآن أقل جنايةً. لقد تحررت بمعنى ما، كأن عدنان تحمل عني حكاية المركب والمخدرات. بعد قليل توافد المعزّون وضاق المكان بهم فخرجت من الفيللا، وفي الطريق إلى البيت تنشقت هواء نظيفاً.

٦٠

سمعت أن بحّاراً فقد من المركب في اليونان. الخبر وصل إلى مكتبي في الصنايع. نقلوا الشائعة من المرفأ. جاء أهل البحار وبلغوني، اشتكوا من سليم وقالوا إنه المسؤول. تلفنت لسليم الذي قال لي إن البوليس اليوناني حقق في الموضوع واعتبر انه حادث. لكن أهل البحار أصروا على أنه شجار وأن جماعة سليم في المركب قتلته. كانوا ثلاثة، والد البحّار الذي اختلط بياض ذقنه بسوادها وكان يشرق بدمعه كلما تكلم وعيناه الزرقاوان تعتكران وراء نظارتيه السمكيتين، الشاب الذي كان أخا البحار كان له عينا أبيه وكان يقول بهدوء إنها جريمة، فيما كان المراهق الذي هو ابن البحار صامتاً طوال الوقت. قلت لهم إنني عرفت منهم الموضوع وسأحقق فيه، وإن حقهم لن يضيع. لم يرضهم كلامي أو لم يكفِهم لكنهم عند حلول الغروب غادروا المكتب ورجعوا إلى بلدتهم.

كان سليم قال لي إن البحارة الأربعة يريدون أن يكونوا شركاء وأنهم يتصلون بأنفسهم بالمافيات وأنهم هددوا بإغراق المركب أو إحراقه إذا حاول هو إيذاءهم. قالوا إنهم يريدون حصصاً مساوية له من أرباح

المخدرات، إنهم يخاطرون أكثر منه ولهم نفس حقوقه. سليم شغّل في المركب أربعة آخرين، اختارهم هذه المرة من بلدته. كانوا تقريباً أقارب له، هؤلاء صاروا جماعته أو بالأحرى زلمه يقون رهن إشارته ويحامون بالطبع عنه، ومنذ اشتغلوا صار المركب فريقين واحد مع سليم وواحد ضده. بالطبع تجاوزت خلافاتهم الكلام، صاروا عند أقل بادرة يتنازعون بالأيدي. كانت لديهم السكاكين والمسدسات، هذه أخذوا يهولون بها، لكن النزاع استمر والخوف من أن يلجأوا فعلاً إليها صار وسواساً. إذا حدث ذلك ستكون مجزرة، والآن يقال إن بحاراً فُقد. لربما خنقوه في المياه، لربما رموه للموج.

أغلقت مكتبي وسافرت إلى قبرص. من يدري ماذا سيحدث في الأيام القادمة. من الأفضل أن أكون بعيداً.

من قبرص تلفنت لسليم الذي قالت لي زوجته إنه ليس في البيت، حين عاد كلمني هو. كان هائجاً ويفلت صوته فجأةً ويتحول صراخاً، كان يقول إنها مسألة مدبرة، إنه يشك أنها كلها بلا أصل. اختفى البحار، من يقول إنه ليس في فندق حقير في أثينا، من يقول إنه ليس مع مومس في مكان ما، من قال إنه لم يسقط من المركب؟ سليم ابلغني إنه سيصرف الكل حتى هؤلاء الذين جلبهم من بلدته، سيشغّل بحارة يونانياً مكان الجميع، هذا أفضل. هكذا لا يتعرض لوجع الرأس ولا يسأله أحد عن أرباحه. قال كلها أيام ويعود إلى بيروت، إنه هنا يهيئ شحنة وسيعود بعد أيام بعد عشرة أيام بالضبط سيكون في بيروت.

بقيت في قبرص منتظراً نهاية العشرة أيام. حين يعود سليم سيكون هو في وجه الجميع، سيكون هو المسؤول. تبدل مزاجي، أخذت

اجول في ليماسول التي سبق أن قضيت فيها أسابيع مع كاميليا وهدى. كنت أتذكر حين قصدت هدى الطفلة آنئذ أطفالاً واستطاعت أن تتفاهم معهم رغم أنها لا تعرف اليونانية. جاءت وأخبرتني أن والد الأطفال في الشرطة ووالدتهم معلمة في مدرسة وأن أحد الأطفال تقريباً في صفها. أخذت تلاقيهم كل يوم تقريباً وفي النهاية بدأت تدمج في حديثها إلى ألفاظاً يونانية.

تبدل مزاجي تماماً، كنت خائفاً حين جئت إلى قبرص، جئتها هارباً، لا أعرف ماذا كان أهل المفقود سيفعلون بي. الآن لا أفعل سوى التسكع والتمشية على الشارع الطويل المحاذي للشاطئ، أمرّ بين شجيرات الحرش وأتوجه إلى الساحة السياحية، في اليوم الحادي عشر رجعت إلى لبنان. توجهت من توي إلى المرفأ وهناك قدِّر لي أن أشهد النار تندلع في المركب، أن أراها تشبّ وتنتشر بدون أن يتصرف أحد إزاءها. لقد تُركت تأكل المركب. نفذ البحارة وعيدهم. قالوا السليم هم أم المركب، وقد فعلوا. هل كان ذلك فقط نزاعاً بين بحارة؟ أما كان في الحقيقة نزاعاً بين مافيات؟ هل حاول سليم أن يلعب على بحارته أم أنه في الحقيقة كان يلعب أو يحسب أن في قدرته أن يلعب على مافيا؟ قلت في نفسي إنهم هكذا حرروني من المركب. كنت بدأت أخاف، أشعر أن النزاع سيصل أخيراً إلي، أنني لن أستطيع أن أبقى إلى النهاية بعيداً. حين زارني أهل البحّار المفقود خفت، لكن الغريب، بعد حريق المركب، أن أحداً لم يعد يتكلم عن المسألة، لا أعرف ماذا حل بها، هل ظهر البحار، أم ظل مختفياً؟ لكن الجميع صمتوا. لم يعد أهله إلي. لم أرهم منذ ذلك الحين. كان المركب هو المسألة وها هي انتهت.

٦١

رسالة من هدى

بابا، أنا لا أعرف إذا كنت موجوداً في يوم من الأيام. هل كنت موجوداً عندما التقيت بامي أم انها هي التي أوجدتك. أنت تكتب إلي رسالة كل أسبوع. تصلني في اليوم نفسه ولا تنتظر جواباً. أنت تكتب إلى نفسك. ربما لتتأكد من وجودك، ربما لتكون أباً مرة في الأسبوع. أمي تقول إنكما التقيتما في الحزب، أنا متأكدة أنك كنت مناضلاً مرة في الأسبوع، وعاشقاً مرة في الأسبوع. إنك لا تستطيع ان تصبر اسبوعاً كاملاً على اي شيء. كيف كنت مناضلاً، لا أعرف، لكن لا شك أن أحداً اختارك لهذه المهمة. اختارتك أمي عاشقاً لكنك لم تفعل شيئاً حين شعرت أنها تبتعد عنك. لا تقل لي إنك فوجئت بعصام، لا تقل لي إنك استبعدت أن تغرم به. أنت من اللحظة الأولى علمت أنك لم تعد في المكان الذي وضعتك فيه. علمت بالتأكيد أنها لم تعد تسندك في هذا الموقع. لم تسقط لكنك بقيت كما كنت طوال حياتك تتأمل في الفراغ. أنت المناضل لم تناضل لحظة واحدة في سبيل أن تبقى لك. مجرد أن أدارت وجهها عنك استسلمت لذلك،

تألمت بالتأكيد لكنك لم تكن قادراً على ألم طويل، ذلك يتطلب نفساً لا تجدها دائماً، ذلك يتطلب أن تقف علىٰ قدميك وأنت لا صبر لك على أن تكون وحدك. أنت لا تطيق أن تستنهض شيئاً من داخلك، تريده أن يبقى نائماً. ما يؤلمك أكثر من الهجر هو أن تجد قوة تجابه بها، يؤلمك ان تبذل جهداً لتبقى على قدميك. تركتني مع أمي واكتفيت بأن تكون أباً مرة في الأسبوع. لكن أمي تستحقك، اختارت للمرة الثانية رجلاً خاملاً أيضاً، شخصاً غير موجود إلا حين تشير إليه ولا يتكلم إلا في حضورها، تريدني أنا كذلك لكني لم أقبل. بمجرد أن تصديت لها توقفت...

٦٢

تقول صبحية إن عبد الكريم عاد اليوم من عند المعلم يوسف ساهماً. طبخوا له مجدرة، الأكلة التي يحبها لكنه بالكاد قرب منها أصابعه، بقي في البيت و لم يخرج ليلعب مع صحبته. حين جاء أحدهم يسأل عنه جفل منه واكتفى بأن قال له، وهو يصرفه إلى الباب، إنه لا يريد الخروج. قالها وهو يشدّ على أسنانه. كان من قبل يومين مرحاً وسعيداً بأن يرى المعلم يوسف يقص الزجاج ويلعب بأدوات المهنة. كنت نصحت صبحية، التي شكت من أنه يبقى ضجراً في البيت في عطلة الصيف ولا يطيق روحه، أن يرسلوه إلى المعلم يوسف عله يلتهي بالمهنة. وبالفعل طرب عبد الكريم لقص الزجاج وتركيبه وصار يستعجل الذهاب إلى الدكان. لكنه هذا اليوم واليومين اللذين جاءا بعده صار يعود وينزوي في البيت ويكاد يفزع إذا رأى وجه صاحب جاء يدعوه إلى اللعب مع رفقته. حين سألته أمه عن السبب أشاح عنها و لم يجسر على أن ينظر في عينيها وحين عاد والده إلى البيت اختفى عنه في سريره متعللاً بالنعاس. قالت صبحية إنها تشم شيئاً سيّئاً في هذه القصة وإنها سألت عبد الكريم فقال لها بعد تردد وبصوت متقطع إنه

لا يريد بعد أن يذهب إلى دكان المعلم يوسف، وحين سألته عن السبب اصطبغ وجهه وأطرق ولم يقل شيئاً.

بالفعل لم يذهب عبد الكريم يومها إلى الدكان، وحين ألّحت أمّه عليه انفجر في وجهها وبكى. سألته عن السبب فابتلع لسانه وسكت ولوى وجهه عنها وقد انكسف وكشّر. تركته صبحية إلى أن هدأ وذهبت إليه وحضنته وقبلته في شعره وسألته لماذا لا يريد الذهاب إلى الدكان، وبين ذراعي صبحية أغرق عبد الكريم رأسه ومرّغه في حضنها وبدأ يبكي وسالت دموعه على وجهه دون صوت. أغلقت صبحية الباب ووجدته ارتاح إلى الاختلاء بها. سألته مجدداً فعاد هذه المرة يبكي ويشهق بدموعه ثم وبصوت متقطع وبين الشهقة والشهقة فهمت صبحية أنه يشكو من المعلم يوسف.

عادت صبحية تقبّله وهو يختلج بين ذراعيها ويغمغم وكلمة كلمة سحبتها صبحية من فمه، فهمت أن المعلم يوسف أغلق الدكان وأخذه إلى سدة فيها وقال له، وهما في شبه ظلام، أن عليه أن يخرج قضيبه كما يفعل هو وكان بالفعل أخرج قضيبه الذي وصفه عبد الكريم بالطويل. قال المعلم إن عليهما أن يفعلا هكذا لكي لا يؤذيهما الشيطان. حاول المعلم أن يجبر عبد الكريم على أن يخلع بنطلونه القصير ففر الصبي من بين يديه وفتح الباب وخرج. قال عبد الكريم وهو ينهنه دموعه بين ذراعي صبحية بأنه لا يريد العودة إلى دكان المعلم يوسف لأنه كما قال "زعران" بالجمع يريد من ذلك القول بأنه أكثر من أزعر. كان رأي صبحية أن تذهب هي إلى المعلم وتبلغه بأن أهل الصبي علموا وتهدده بأنه إذا عاد لمثلها مع غيره ستفضحه بين

الناس. هذا أفضل من أن يعرف والد الصبي الدركي الضخم فيذهب ويهين المعلم ويشبعه ضرباً فتشيع بين الناس أقاويل تسيء إلى الصبي وتجرح سمعته.

٦٣

توفيت زوجة الحاج مهدي، فاجأتها نوبة وهي في نومها. عاشت طاهرة وماتت بسلام كما قالت صبحية التي قضت أسبوعين في دار الشيخ تخدم البيت وتدور على المعزّين، وانتفضت حين حاول الحاج أن يجازيها بالمال. قالت له "لأ يا حاج. سلامة فهمك. أنا بنت اصول. الحاجة من ضيعتي والخدمة بأجرها على راسي". أعاد الحاج المال إلى جيبه وانحنى عليها بقامته الطويلة وقبّل راسها. الحاج لم تدمع له عين إلا حين ألحدوا الحاجة. سالت دمعة من عينه استدركها بخجل وقال "الحمد والشكر لك يا الله"، لكنه طوال أيام العزاء بقي صامتاً بحيث قلق عليه إخوانه في "أهل السراط" وصاروا يستدرجونه إلى الكلام فيسايرهم قليلاً ثم يعود إلى وجومه. كان ذلك في أيلول والضيعة حاشدة بالعائدين إليها من المدن والبلدات يمضون فيها صيفيتهم، لذا احتشدوا في دار الحاج وصار للحاجة (والشكر لله) أجر عظيم. حين ضحكت وأنا أسمع صبحية تشيد بجنازة الحاجة وتحمد الله عليها صاحت في وجهي وهي تغالب ضحكتها "إيه ما بيكفي إنها شقيت بحياتها. مستكتر عليها موتة منيحة". بعد ذلك

صارت صبحية تستدعى إلى دار الحاج كثيراً وتمضي هناك نصف نهاراتها وتعود متعجبة من أنها لا تجد ما يشغلها حقاً. تقول "الحاج نظيف، كتير نظيف، بس بمكن موسوس بالنظافة" وأسالها ماذا فعلت هناك فتقول "لا شيء، عملتُ قهوة ورتبت الغرف من بره لبره" فقد وجدتها نظيفة كما تركتها البارحة وإذا شطفتها بالمياه فلكي تعمل شيئاً تستحق عليه أجرها. أخيراً جاءتني إلى البيت. هذه المرة نادتني من الخارج وتعجبت حين وجدتها تتردّد في الدخول. خرجت إليها ووقفنا في نسيم الخريف. لم تتكلم فوراً. كانت تريدني أن أنتظر، تريد لكلامها لحظة خاصة. تريد أن تضع جسمها وكيانها فيه. قالت وهي محتارة كيف تبدأ:

– الحاج، قصدي الحاج مهدي، احزر شو بدّو؟ احزر إنت شو بدّو؟ فكّر فيها.

سايرتها بأن أبديت حيرة مطلقة. كانت مملوءة بتلك الجملة التي تؤخّر نطقها وتنتظر أن تقفز من فمها. خطرت لي الفكرة التي أردت أن ألصقها بالشيخ لكني لم أتكلم. رسمت في الهواء بيدي ما يشبه الاحتضان.

رفعت أنفها واصطبغ صدغها وقالت بحنق:

– هيذا إنت. مخمّني ما بستاهل إلا هيك. فتّح عينك. فيه ناس بيشوفوني أحسن من هيك، فيه ناس بيحترموني. أنا محترمة، إيه محترمة، شو عمتفكرني مرمية لكل من بدو يركبني. فتّح عينك أنا مش هيك. بتعرف شو بدو مني الحاج؟ بدو يتجوزني.

– مش هيك قصدي. إنت عندي أهم من الحاج. شو جاوبتي؟

– ليك ملاّ سؤال. شو جاوبتي. شو بدي قلّوا. بقلوا عندي واحد مش سائل عني ومخمّني متوفرة لكل واحد بدو مني شي! ليش مخمّن الحاج مش عارف؟ صيتنا أنا وياك مالي الضيعة. وأنا مش فارقة معي. بقول إنو هيذا حب ومش لازم نستحي فيه. بقول إنو هيذا نصيبي ومش لازم إنكرو. الحاج بيعرف ومع هيك احترمني. إنت حبيبي وما بتحترمني.

– شو هـ الحكي. أنا بحترمك بس ما بحترمو هوّي. برجع بسألك شو جاوبتي؟

– ليك. بيرجع يسألني نفس السؤال الأهبل! أنا قلتلك مِن لَمِن حبّيتك ما عاد عندي إلا إنت. إنت لوحدك لو إنك ما بتستاهل. إذا ما بدّك ياني ما بتعود بتفرق لوين بروح. الحاج أكبر مني بكتير. بس إنت مش زغير عليّي. الحاج منيح وآدمي. إذا ما بدّك ياني، قللي من هلّق.

لم أكن فكرت في الزواج ثانية لكن الفكرة التي رمتها صبحية في رأسي بقيت فيه. لم افكر بصبحية كزوجة، لم أفكر بها كعشيقة أيضاً. الزوجة كاميليا والعشيقة سلمى وليست صبحية أيهما. لم تكن أيضاً نزوة مع شغالة منازل. فجأةً اكتشف أني لا اعرف لها مكاناً في نفسي. لكنها قالت (إذا ما بدّك ياني) و لم أشعر عندئذٍ أنها تجاوزت حدّها. لقد اختارت هي مكانها و لم أتفاجأ و لم أعترض. اختارتني هي و لم تسألني وها هي لا تزال حرة وأمامها خيار آخر. أنا رغم كل شيء لست حرّاً مثلها. لست حرّاً حتى أمامها. اختارتني حبيباً وأنا لا أجد القدرة على أن لا أكونه. اختارتني وتملك فرصة أخرى بينما أنا لا أملك أي فرصة. إذا تركتها أمامها الحاج مهدي فليس أمامي

سوى الخارج. ما الذي يدريني أني لم أحسب لها حساباً للسبب الذي لا أعترف به، إنها شغالة منازل. شغالة منازل وتريد أن تكون زوجة، ألا يغيّر هذا الموضوع؟ ألا ينبغي على الماركسي القديم أن يقوم بهذه التجربة على حسابه؟ أعيش من شغل أهلي وصبحية تعيش على الأقل من تعبها. لماذا لا نصدق نحن الأفكار التي نبشّر بها، لا نراها جديرة بالحياة، لا نثق بها كما لا نثق بأنفسنا، أو على الأقل لا نرى أننا قادرون عليها؟ لماذا تركت مريم، الأنها شغيلة خياطة؟ لماذا تركتني كاميليا، ألأنني ابن ضيعة وأتصرف في البيت كأبناء الضيع؟ وسلمى هل كنت لعبتها، هل أرادتني لأني الأستاذ وأنا هكذا ارهف من زوجها صاحب الدكان؟ صبحية تقول إنها منذ أحبتني صارت لي وحدي ومنذئذ لم يمرّ ببالها إنسان. لكن المسألة ليست هنا، كيف أستطيع ان لا أكترث بمن اختارني. إني أجدهم على طريقي ولا أستطيع إلا أن أماشيهم، الأصدقاء صاروا كذلك لأنهم أرادوني صديقاً، الحبيبات صبرت إلى أن تحرشن بي. اليوم صبحية تختارني زوجاً، هذا بالطبع يتطلب جهداً أكبر، لكن كيف أستطيع ان ألوي وجهي عنها؟ كيف أنزع هذه الفكرة من رأسي؟ روزيت، ربما تنتظر مني شيئاً، لكن الوقت لم يحن، إنها في فيللتها في بيروت، تتلفن وأتلفن من حين لآخر. الآن أمامي صبحية، لماذا لا أخبر هدى أنني سأتزوّج ثانيةً. ربما لن تفكر هذه المرة أنني سأكون زوجاً مرة في الأسبوع. لا أعرف ماذا ستفكر هدى لكنها لن تلومني هذه المرة. لقد وجدت شيئاً أنصح نفسي به. شيئاً، شيئاً لا أحتار فيه ولا أتوقف لأفكّر فيه حتى. إنه فقط طبيعي ومناسب، لا أحتار ولا أتوجّس كأنه يخطر لغيري. هذه

الملعونة صبحية عرفت ماذا ينقصني. فقط ما هو طبيعي ومناسب، أن اجد امرأة عند عودتي، أن أتمدّد بعد الغداء، ان أسهر على التليفزيون، هذا بالضبط ما كنت مهيّئاً له. لا أعرف لماذا لم أنتبه. ما الذي زين لي أن أكون فوق العادة. الحزب هو زمرة أشخاص عاديين يصبحون عند اجتماعهم أكثر عاديةً. الحب ليس قفزة في الهواء، لا أحتاج لأن اتشقلب من أجل الوصول إلى صبحية. إنها لا تخيفني. أستطيع أن آكل أمامها بأصابعي ولن تنكسف صورتي، ستبقى لي واستطيع أن أنساها وأنا مطمئن، لن أستنفر ذاتي لأكون دائماً ماثلاً لها، لن أقضي كل الوقت في البحث عنها. هدى لن تلومني. ستعرف أنني هذه المرة لم أخطئ. امرأة أخرى تحتاج إلى نظرة واحدة فقط لتستنتج أن صبحية ذكية وجميلة. إنها أكثر من ذلك، طبيعية ومناسبة، امرأة أخرى تفهم ذلك فوراً.

عاد جلال إلى قريته الصنوبرية. لم يجد منزل جدته حيث نشأ كما كان. لقد اقتحمه أهل القرية وحطموا أثاثه لاعتقادهم أن صاحبته الحاجة هدية كانت صديقة الجان.

صبحية، الأرملة التي تسكن في الجوار، تزور جلال لتعرض عليه تنظيف المنزل. تتطوّر علاقتهما نحو ملامسات حسّية، لكن ذكرى حب قديم تستيقظ داخله بعد اتصال هاتفي من سلمى ابنة خاله، كما أن روزيت زوجة صديقه عدنان تريد شيئاً منه.

فجأةً يتغيّر مزاج أهل القرية تجاه الحاجة هدية. لقد صنعت معجزات عديدة من قبرها، ما دفعهم إلى اعتبارها وليّة، وزيارة ضريحها للتبرّك به. لكن ذلك لا يعجب «أهل الصراط» لأن الله لم يرسل نبيّات إلى البشر وإنما أنبياء.

عباس بيضون شاعر وروائي لبناني، مسؤول عن الصفحة الثقافية في جريدة السفير. له في الشعر «ب.ب.ب.»، «بطاقة لشخصين»، «الموت يأخذ مقاساتنا» الحائز «جائزة المتوسّط» عن فئة الشعر، وفي الرواية «مرايا فرانكنشتاين» و«ألبوم الخسارة» و«ساعة التخلّي». ترجم شعره إلى الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية.

17€00

ISBN 978-6-14425-744-9

9 786144 257449

DAR AL SAQI

دار الساقي